أحمر

إدريس لفريك

رواية

أحمر

إدريس لفريك

رواية

الطبعة الاولى: 2020

رقم الإيداع 2020-1905

ردمك: 978.9920.574.17.5

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية أو أي وسيلة بدون إذن من الكاتب.

إهداء:

إلى رشيد دوماً ...

للمترجمة كلمة

في أواخر كانون الأول 2017، وردني إتصال هاتفي مفاجئ، من صديقي الدكتور فيكتور بنالو، الذي يعمل طبيباً جراحاً بالمستشفى الجامعي بمدينة دانكرك الفرنسية. إتصل بي يخبرني بضرورة زيارته في أقرب وقت ممكن. حاولتُ أن أستفسر منه عنْ سبب الزيارة، وعن تفاصيل أكثر بخصوص الموضوع؛ لكنه رفض أن يزودني بأي معلومة. قال فقط إنَّهُ يحتاجني في أمر لا يحتمل التأخير.

في اليوم الموالي، رَكِبْتُ القطار على الساعة السابعة صباحاً، من باريس إلى دانكرك، وبداخلي الكثير من الأسئلة التي كانت تتزاحم في ذهني، كنتُ مرتبكة قليلاً، والحيرة تتملك كل فكري.

وصلتُ بعد رحلة طويلة وشاقة، أخيراً إلى مستشفى سان فريناندو، المستشفى الذي لمْ أزره منذ أربع سنوات تقريباً، فقد كان أخر يوم لي في ذلك المكان، هو يوم الإحتفال الذي نظمه الطقم الطبي بمناسبة شفائي التام من سرطان الثدي، المرض الذي أخذ معه جُزْءً من جسدي، وشكل مني امرأة أكثر صلابة.

كان الدكتور فيكتور في انتظاري بمكتبه، إستقبلني بعناق حار وابتسامة مكسورة تحمل في ثناياها الكثير من الحزن والوجع، لمْ أعرف سببهما. طلب لي فنجان قهوة، وَسلمني حزمة من الأوراق، ثم

اِنصرف بسرعة إلى عمله، تركني مشدودة إلى عبارة كتبت بقلم حبر أسود على الصفحة الأولى وباللغة العربية.

" يا أمي، كتبتُ هذه الرواية بدم القلب، كي أخبرهم جميعاً، أنني لَمْ أكن سيئاً لتلك الدرجة "

خطفتني من نفسي هذه الجملة، أربكتني، شتتني. أحسستُ حينها بقطرات ماء بارد يتسرب من رقبتي، ويستقر أسفل ظهري، شلل هلامي أصاب عواطفي دفعة واحدة. شعرتُ وكأنني أتهاوى من مكاني، وكأنني أسقط من علو شاهق جداً.

أرغمتني تلك الجملة المزلزلة، على تفقد كومة الورق الأبيض الموضوعة على ركبتي، من صفحة إلى أخرى، من نص إلى آخر، من رسالة إلى أخرى، كنتُ تائهة بين زخم الأحاسيس المتدفقة.

قلت في قرارة نفسي حينها: أي ورطة أقحمني فيها الدكتور فيكتور، أي قصة غريبة تنتظرني بين هذه السطور؟

"يبدو أن من كتب هذا الرسائل، كان متعباً جداً، وخائفاً جداً، وضائعاً "

هكذا قاطعني الدكتور فيكتور، بينما كنتُ غارقة في تفاصيل الحكاية، الصفحات الأولى مليئة بالدسائس الصغيرة التي وضعها الكاتب بُغْية توريطنا في نصه، وفي حياته، وفي ذكرياته. أيّاً كانَ مَنْ

كتبَ هذه المذكرات، فهو حتماً كانَ يلمح بنصف نظرة، العالم وهو يضيق من حوله كل يوم أكثر.

اِنتابني خوف غريب لمْ أعهده، وشعرتُ فجأة أنني أخطأت الطريق حين جئتُ إلى هنا. أي صدفة هذه التي جمعتني بكومة ورق تخفي الكثير من الأسرار، وتخبئها بعناية بين الكلمات؟.

لا أدري لماذا اجتاحني كل هذا الإلتباس، وزاد هلعي حينما أخبرني الدكتور فيكتور أن صاحب هذه المذكرات مات منتحراً بعد أن حقن نفسه بمادة مخذرة قبل يومين فقط، وأنه أيضاً كان مصاباً بمرض إضطراب الآنية، وأنه كان يرفض بشكل قاطع تناول الأدوية، مما كان يجعله يعيش حالة من الهلوسة والإرتباك في أغلب الأوقات، وكأنه يعيش داخل حلم لا ينتهي، وأحياناً كان يعاني من فقدان القدرة على التركيز والقدرة على إتخاد القرارات. وكان يقول دائماً، أنه أصبح غريباً عن نفسه، أي أنه لا يدرك ذاته بالصورة المألوفة، وأن العالم أيضاً قد أصبح متغيراً، لكن من دون أن يُحدد نوعية هذه التغيرات بصورة واضحة، كان يشعرُ أن بداخله نوعٍ من الخواء، وعدم القدرة على التفاعل مع محيطه بالطريقة التي يريدهَا.

ما أن سمعت هذه المعلومات، حتى توجهتُ بسؤال سريع إلى الدكتور فيكتور :

- ما المطلوب مني يا دكتور؟

أتذكر أنه رد بنبرة يتخللها حزن مكابر :

- قرأت عدداً كبيراً من تلك الأوراق التي بين يدك الآن، وأحسستُ بأن تلك الرسائل الكثيرة، من الواجب أن تصل إلى وجهتها. أريدُ منك عزيزتي كلوديا، ترجمتها من اللغة الفرنسية إلى العربية.

- وَلِمَ الترجمةُ إلى اللغة العربية بالضبط؟

- هذا ما كتب في وصيته، قال إنَّهُ يتمنى أن تُترجم هذه المذكرات إلى اللغة العربية، وتنشر بعد ذلك.

بعد ما سمعت كلامه، لمْ أرغب في طرحِ أي سؤال آخر، رغم أنني كنتُ مزدحمة بالأسئلة، حملتُ تلك الحزمة تحت ذراعي وتوجهتُ إلى محطة القطار، كان الأمر أَشْبَهَ بكابُوس مروع.

لستُ أدري كيف استطعتُ أن أتحمل كل ما سمعته أو ربما خيل لي أنني سمعته، لا أعرف بالضبط.

و منذ ذلك اليوم، وأنا متورطة وغارقة في ترجمة مذكرات، كتبها رجل لا أعرف عنه، سوى أنه رحل بطريقة موجعة، وَتَرَكَ خلفه سراً كبيراً.

أخذتْ مني هذه المذكرات، جهد سنتين ونصف من السهر والتفكير والحيرة والحزن والأرق، حاولتُ خلال تلك المدة أن أبحث عن كل شخص ورد اِسمه في الرسائل أو المذكرات، وزرتُ كل المدن التي كَتَبَ عنها، إلتقيتُ بعض أصدقائه المقربين منهم وحتى الأعداء. عرفتُ عنه كل شيء تقريباً، عَرِفْتُ كيف قضى طفولته وشبابه وأخر أيام

حياته. عرفته حتى صار بيني وبينه علاقة صداقة، ثم علاقة حب .. أحببته، نفذ إلى قلبي، كما لو أنني أراه أمامي في كل لحظة، كما لو أنني أشاركه أدق تفاصيل حياته. صار بيننا أيضاً حكايات منتصف الليل، تلك التي لا تحكى لأكثر من شخص.

وعدته سراً، بيني وبين نفسي، أن أنشر هذه المذكرات، كما كان يريد ويشتهي، وأن تصل كلماته وأسراره الصغيرة والكبيرة إلى حيث كان يريد لها أن تصل.

اليوم، باستطاعتي أن أستريح من ثقل أتعب صدري، وأضع أخيراً هذه المذكرات بين يد القارئ.

يقول الكاتب في إحدى مذكراته ..

" لا خطوط حمراء في كتاباتي، سأقول كل شيء كما حصل ودفعة واحدة. لمْ أمارس الرقابة على ما كتبت. هذه حقيقتي وحقيقتهم جميعاً، هذه حياتي كما عشتها، هذا أنا ببساطة "

كلوديا شرف الدين ..

الرسالة الثانية

إلى ريما

14 تشرين الأول 2014

ريما، يا فراشة الأحلام الجميلة.

كل شيء كان يمتد بشكل لا مُتَنَاهٍ ...

بعض الوقت فقط، ريثما تتقلص هذه الرعشة القاسية، وتختفي الغيوم السوداء، من سماء هذا البحر المنسي في جبروته وعزلته.

- أتحبُ البحر؟

- يسكنني حزنه الفخم المتعالي، ثمة شبه بيننا.

ثمة مستحيل ما يحكمنا، يقفُ بيننا وبين ما نريد ونشتهي، قد يكون هذا المستحيل ذاكرة، لا تنفك تتركنا أشلاء روح تائهة لا وجهة لها عدا البحر. ذاكرة مبهمة ترسم طريقنا الأصعب، وتنسج من حولنا ذلك الفراغ الكبير؛ وقد يكون المستحيل، فكرة نعيش معها، ولفرط الإيمان بها سرقت منا ربيع القلب، ولأننا لمْ نتخيل أنفسنا خارجها، أدخلتنا خريف الحياة باكراً جداً.

ويحدث أن يكون المستحيل، شخص عابر مر بنا سهواً وترك وراءه أجمل الحرائق، وتركنا أيضاً شاردين في قسوة ذلك السؤال القاتل: إلى أين سنمضي بعده بجسدٍ عارٍ وقلب محروق؟ يحدث أن يكون المستحيل، كلمة "نعم" حين كان لزاماً علينا أن نقول "لا".

أغمضُ عيني مرة أخرى، أحاول أن أنسى كل شيء دفعة واحدة، أشتهي أن أفرغ من الداخل، أن أبتعد قدر الإمكان، حيث لا سراب في يقيني وإستكانتي. وأن أحمل الجسد حقيبة سفر وأمضي بعيداً، بعيداً جداً. وأهرب من هذا الفراغ الموحش، بلا ذاكرة، حيث لا شيء غير أنا الذي كنته، قبل أن تطفئ عبثية الحياة، ومنطقها المعاكس وهج الأمل والبقاء بداخلي، وقبل أن تحرقني شاعرية الأحلام البسيطة، وتمزق ما تبقى لي من صور وأحاسيس. وتدفعني صوب دروب السهو والإرتباك، وحيداً كغزال بري أضاع طريقه ذات شتاء.

كان ذنبي الوحيد والأكبر في هذه الحكاية، أنني غصتُ شيئاً فشيئاً كما المجنون في كومة القضايا الكبرى. كنتُ أرى القدر المروع الذي ينتظرني بوضوح، ورغم هذا كله لمْ أتوقف عن الحلم بوطن يليق بنا جمعياً، وطن دافئ كصدر الأم، هادئ كجناح فراشة.

هذا الحلم مهما بدا تافهاً وبسيطاً حال دون أن أكتشف مخاطر اللعبة مع الكبار، ودون أن أستوعب كم كنت صغيراً، صغيراً جداً. خسرتُ وقتاً طويلاً لأكتشف هذي الحقيقة، وأقنع نفسي بضرورة الصمت أمام ورثاء هذا الوطن الحزين.

في لحظة دوار ضيعتُ البوصلة، ومشيتُ حافياً على أرض باردة، بالكاد كنت أرى كتل الضباب الكثيف المترامي أمامي، للحظات كنت أتوقعه خيط ألوان دقيق جداً، يلتصق بكفي لا أكثر. أَعْرِفُ الآن أنني أخطأت المسالك، وَركضتُ في الأزقة الضيقة والمسدودة من كل الجوانب والجهات.

فكلما تأملت نفسي وشموخ القضية، وعنفوان رجالها الأوفياء وحتى الخونة منهم، زادت هي بعداً عني، وصارت أكثر ظلاماً و وحشيةً، واقتربت أنا خطوة من التلاشي والإندثار كرماد النار المشتعلة فينا.

ربما، ربما كان لزاماً علينا أن نحترق سوياً كي يشع ضوء الفجر الذي طال غيابه، وطال انتظارنا له؛ ربما كان لزاماً علينا أن نفصح أسرارنا منذ بداية الطريق.

وحدكِ عزيزتي تَعرفينَ معنى أن أكون اندفاعياً حد الهوس، حد الجنون الذي يلامس الغباء أحياناً. وأن أغامر بأجمل سنوات عمري القصير، فقط لأثبت للصوص الوطن أننا لمْ نعد نخاف زنازنهم ورصاصهم الطائش. وأن أسير وراء شيء مبهم غير واضح الملامح، لا لشيء مهم؛ فقط لأنني كنتُ أحمل على كتفي ثقل جيل بأكمله، ثقل الأحلام المشتركة والآلام المشتركة.

أي جنون هذا الذي قادني إلى هنا، إلى الموت الذي يشتهينا؟

نعم ..

أدرك الآن أن عطبي الكبير؛ كان بسبب أنني لمْ أخذ تفاصيل ذلك الموت بجدية، ليس الموت بمعناه الصغير والبسيط، أقصد ذلك الموت الذي يتسلل إلينا قطرة قطرة، ومع كل قطرة نفقد جزء منا، نفقد شخصاً عزيزاً علينا، نفقد حلماً كبيراً، مع كل قطرة نموت قليلاً وشيء فينا ينصهر، فنصبح كصخرة بركانية متفحمة قذفتها الحِمَمُ بعيداً.

أي صرخة مجروحة كانت تتسرب مع دمي الأحمر، وأنا أغمض عيني لحظتها؟

آه كم هي منهكة هذه الروح عزيزتي ريما، فهل كان ضرورياً أن نفترق كي يكبر الشوق فينا؟ هل كان لابد أن نضع بيننا مسافة اِنتظار شاق حتى يمكننا أن نكتب لبعضنا رسائل بهذا التدفق المخيف؟ متى يلغي حضورك المشتهى، كل هذا التيه الذي أحسه كلما تذكرتك؟

لِمَ اِخترتك أنتِ فقط؟ لأخبرك بهذه القصة الغريبة. لا أعرف صراحة، لكنْ يا هبلي الأخير كل ما أعرفه هو أنني أحْتَاجُ أن أبوح لك بسر الأَنين الذي يسكنني منذ زمن بعيد. دمع الطفولة المسروقة مايزال ساخناً على خدي. أحْتَاجُ أن أقص عليك ولو قليلاً من حجم الأشواق التي دُفنت في عز اشتعالها، وقتلها خوفنا الذي تقاطع يوماً، وقدرنا المتشابه.

ها أنا، أودعُ سنة أخرى من خريف هذا العمر الهارب كحبات رمل من قبضة يدي. لماذا يا صغيرتي لمْ أحس حينها أن كسري الكبير

كان هنا؟ حيث القصة الأكثر تعقيداً، حيث عمق عينيكِ، وإسمكِ، وماضيكِ الذي تجهلينه.

اِمنحيني بعض الصبر حتى أنهي هذه الرواية، لكي تعرفي الحقيقة التي لنْ يخبرك بها أحد غيري، حقيقة البداية والأصول، حقيقة وحدي أعرف تفاصيلها شبراً شبراً؛ وأملك الأجزاء المفقودة منها، لأنني لمْ أغادر ذاكرتي بعد، ولمْ تغادرني رائحة المنطلقات، وَلَمْ أَنْسَ أبداً تاريخاً كنتِ طرفاً فيه.

أنا من سأكتب حياتي؛ لأنني فقط من يملك حق كتابتها. أعلم تماماً أنني لنْ أكون موضوعياً في نقل تفاصيلها إليك، فقد أجعلك عبثاً ودون تخطيط مسبق، تكرهين بعض أبطالها، وتحبين البعض الآخر.

أَتَسَاءَلُ الآن، هل مَرَ في حياتي أبطال حقاً بمقاسكِ أنتِ؟ أم كل من عرفت كانوا على هامش الحكاية؟، قد أوجعكِ قليلاً عزيزتي، ويمكن أيضاً أن لا أحرك فيك ذرة شعور إتجاهي.

مَا يهمني فقط الآن، هو أن أقول لكِ، كم كانت الحياة قاسية، و كم كنتُ على ذاك القدر من السذاجة.

فقط أعْطِني القليل مِنْ وقتكِ، وَتَفَقَدي هذا النص حتى نهايته، هو من سيدافع عني أمامك وينصفني، فلمْ يَعُدْ هناك متسع من الحياة حتى نضيعه في المزيد من الصمت.

إننا نَكْتُب كي نقول ما لم نستطع قوله بأصوات عالية. الكتابة وحدها تقدر على كشف أسرارنا الصغيرة أمام من نحب. والآن علي تدارك الزمن قبل أن يدركني الرحيل، فالموت يأتي دفعة واحدة عكس الحياة التى تمنحنا دائما فرصة للبوح وفرصة أخرى للبكاء.

كان لابد أن أتوقف مع الإنعطافات التى طرأت صدفة، وسحبني مسارها الإجباري إليك، حاملاً معي ذاكرة لا أعرف سر خوفها وصمتها. كان لابد ان أتبع عواطفي المتكتمة على لغزها إلى حيث تسير دون أن أسال إلى أين.

لا أخفيك سراً، يا دمشقية العطر والرائحة.

فقد صار الموت حالة مؤكدة هي مسألة وقت لا أكثر، وتزداد إحتمالية وقوعه يوماً بعد آخر أمام بحر يدعوك كل صباح لإحتضان الحياة فوق خريطة المد والجزر، ويضرب لك أجمل المواعيد وأحلاها على شرفات ساحل القلق والتيه.

كلما جاء الشتاء على هذه الأرض الباردة، صار الموت شهياً ومنتظراً، وسرت أشتهي الرحيل وهي تمطر، كما تمطر الآن في الخارج بغزارة الشوق والصبابة والإحتراق. أَتَسَاءَلُ لماذا الأمطار تُشعل فينا كل هذا الحنين؟

لا أعرف سبب هذه الرغبة، صدقيني لا أعرف ..

لا تستغربي من كلامي إن قلتُ لكِ، نعم مايزال إندهاشي بسماء هذه المدينة وبحرهَا وبسحابهَا وبشوارعها كما اللحظة الأولى، يومَ رمتني بِهَا لعنة الأوطان، وأدخلني إليهَا القدر من الباب الخلفي باحثاً عن دفءٍ مختفٍ، وعن حب سرق مني لحظة عنفوان مفرط.

لستُ أدري كم يلزمني من العمر كي ألملم شتات الذكريات المعطوبة؟ لمْ يعد هناك من يمسك يدي بقوة. أشعر وكأنني ضيعت لغتي، وهويتي، وإنتمائي. ونسيت شكل الأرض الأولى، والحجر الأول، والنغم الأول، ونسيتُ اِسم جارنا العجوز في الحي القديم.

مزدحم أنا بمن رحلوا، مكتظ بالفراغ وسط هذه الغرفة البيضاء. أي معنى في أن نبقى على قيد الحياة وقد مات كل شيء جميل فينا؟

آه ثم آه ..

فاتني أن أخبركِ أنني بدأت رحلة علاج شاق، وذلك بعد أن إكتشفتُ إصابتي باللوكيميا قبل ثلاثة أشهر تقريباً. حدث ذلك صدفة حينما إجتاحتني حالة مفاجئة من دوار، ومن شعور بالتعب والإعياء والحمى والتعرق، وأنا في أحد المقاهي القريبة من البيت. تقيأت وكدت أختنق، مما تطلب نقلي على وجه السرعة إلى المستشفى لإجراء التحاليل الطبية اللازمة؛ فحوصات دم وفحص وظائف الكلي والكبد، وفحص مستوى خمض اليوريك والكثير منَ الفحوصات الأخرى، والتى بينت في الأخير إصابتي بذلك المرض اللعين.

لمْ أعد أحتمل رائحة المستشفى، وعلب الدواء، وحصص العلاج الكثيرة. باتتْ تكبلني حالة الهوان التي أعيشها، والألم الذي تمكن من كل جسدي صار يزعجني. كرهت نومي طول اليوم على هذا السرير، وكرهت الحقن التي لاتنتهي. صرتُ أقرف من أي شيء لونه أبيض، الأفرشة، الستائر، المخدات، المناشف، وطلاء الجدران.

وجهي إختفت ملامحه أصبح شاحباً وجافاً كغصن ميت لا حياة فيه. فقدتُ الكثير من شعر رأسي، ورموش عيني، وحواجبي أيضاً؛ بسبب الأثار الجانبية للعلاج الكيماوي الذي يهاجم الخلايا السرطانية المتنامية سريعاً في الجسم وتهاجم هذه الأدوية أيضاً الخلايا المتواجدة في جذور الشعر.

صِرْتُ شبحاً هزيلاً، يخيفني إن نظرتُ إليه في المرآة، وصرتُ أخاف المرايا التي تشعل خوفي. وحده البحر الممتد على طول البصر، المطل من نافذة الغرفة، يخفف عني قليلاً وطأة المرض، ويجيب أحياناً عن بعض الأسئلة المستعصية التي تحاصر قلبي من وقت لآخر.

وحده البحر الغارق في زرقته، يمنحني مساحة إضافية من الحياة، ويعوضني عن كل شيء فقدته. وحده البحر يستحق الالتفات.

ريمتي المجنونة، يا لون الماء وذاكرته. أكادُ أسمع نبرة صوتكِ الغاضبة وهي تعاتبني بحزن، كيف لي أن أخفي عنكِ موضوعاً خطيراً كهذا؟

كيف لم أخبركِ في الرسالة الأولى[1] التى أرسلتها لكِ قبل شهر، عن مرضي المفاجئ. ولِمَ لمْ أخبرك بتفاصيل أكثر في هذه الرسالة أيضاً؟. آسف جداً لكنني لا أستطيع أن أخبرك بالمزيد، أنا نفسي لا أعرف غير ما قلته لكِ للتو، لا أعرف نسبة شفائي من عدمه، ولا كم تبقى لي في هذه الحياة من يوم. كل ما أعرف أن جسدي يقاوم بشكل قوي، وأنه لَمْ يستسلم بعد.

أنا كذلك لنْ أدير ظهري للحياة بهذه السهولة، أعدكِ أيتها المشاغبة أنني سأواسي نفسي بمزيد من الأمل، الأمل الذي يقول إننا سنلتقي مرة أخرى قبل السفر النهائي. كوني في الموعد إذن، أنا في انتظاركِ كالعادة.

ورغم أنني لا أود أبداً أن أظهر عجزي وضعفي أمام أحد، يقتلني الإحساس بالشفقة، لكن من حقنا أيضاً أن نكون ضعفاء ولو للحظة واحدة بقرب من نحب. من بين كل الذين عرفتُهم وحدكِ كنت هناك في المرايا وعلى زجاج النوافذ. وجهكِ ينعكس على صباح أمامي على الجدار الأبيض.

---

[1] **توضيح صغير**: بخصوص الرسالة الأولى التي أرسلها الرواي إلى ريما، لم نجد أي نسخة مصورة منها. بعكس باقي الرسائل التي أرسلها في ما بعد. ربما يكون قد نسى نسخها قبل وضعها في صندوق البريد، أو لربما فضل عدم الإحتفاظ بنسخة منها.

وحدك تملكين حق النظر إلى هشاشتي كما هي وكما أعيشها، دون أن أشعر بالخجل من نظراتك.

آهٍ لوْ تَدْرين.. كم أُحلمُ أن أكونكِ فقط لأعرف كم أنا فيكِ وأنتهي، وسط ضجيج الشوارع وضجر الحياة. ملامحكِ فقط أتعثر بها، أي شجن محير يتملكني، إنه يتدفق حارقاً داخل الشرايين الجافة. شيء مَا يحتل القلب على شكل رماد، وكأنه رماد الذكرى، رماد الصور القديمة التي لا تغادرني مطلقاً

أتساءلُ بِصَوْتٍ خفي في قرارة نفسي، صوتٌ سرعان ما يندثر ويتمزق إلى ملايين الشظايا الدقيقة، أي حنين يحملهُ هذا الرماد وأي شوق هذا الذي يجزئني إلى قطع هائمة في الفراغ؟.

منذ ذلك اليوم البعيد، أشياء كثيرة تغيرت. أُطفأت أنوار الجنة وأضحت رحلة القسوة طويلة وممتدة، وغدت الأماكن غريبة وموحشة، والإنكسارات كثيرة وكبيرة.

يبدو لي أننا سنقضي ما تبقى في العمر، نبحث عَمَّنْ أحْدَثَ فينا كل هذا الخراب.

هبيني فقط يقين أن نظل معاً في هذه الدنيا الظالمة، فما يزال هناك متسع للفرح، للرقص، وللموسيقى، وللأعياد، لن نتركه يفلتُ منا بغباء.

ضعي بعضاً منكِ في صدري حتى أستطيع مواصلة العيش. مثلك أنا تنتابني رغبة كبيرة وملحة لتدمير كل شيء يرجعني نحو العدمية والبلادة. فما أوجع الرجوع للخراب بحجة ترميمه. هي فقط تلك اللحظة الخاطفة التى تسرقنا من الحياة، وتسحبنا نحو الموت، في تلك اللحظة فقط يجب أن نقف بتوازن لنواجه القبح بمزيد من السخرية والضحك والسخافة إذا تطلب الأمر ذلك، ودون أن تغادرنا الرغبة في البكاء.

ما يهم هو أن نغرق بعضاً منا في الآخر، حتى نكون أكثر صلابة وشجاعة. وحتى تتبدد الكآبة التي ينفثها الغياب، وهو يصبغ كل شيء من حولنا. حتى صَارَ الكلام مبهماً هكذا. وصارت الحياة مقرفة عابسة ولا تستطيع أن تمنحنا أكثر من ابتسامة فاترة.

إذن كم يلزمني من جنون لأسكنك وأموت هناك؟

أشياء صغيرة جداً لا تكاد تُلمس، تراكمت في أعماقي على مر سنوات، حولتني إلى إنسان آخر دون أن أشعر.

المهم دعينا من هذا كله الآن، كيف أنتِ؟ كيف حال شقيقك إياد؟. أخبريه أنني إشتقتهُ كثيراً وقريباً سأزور بيروت لرؤيتكم، إن طاوعني الجسد في ذلك، وجاد عليا العمر ببعض الوقت الإضافي، لأنني فعلاً أفتقد تلك المدينة جداً.

أفتقد ليالي السهر في شارع الحمراء، وأفتقد الأصدقاء. أفتقد بائعة الخبز، ومحل الورد، ورائحة البن، ومكتبات الرصيف؛ وأيضاً

أفتقد المسارح والمطاعم والحانات والساحات. أسماءً ووُجُوهاً وأماكنَ تجري بداخلي كالنهر الجارف. ذاكرة المكان لا تفارقني.

في الحقيقة كنتِ سبب توريطي تلك الورطة الجميلة، في عشق مدينة اِسمها بيروت. كنتُ أتمنى أن أزورك في دمشق المدينة الأقرب إلى قلبك وذاكرتك؛ لكن كما تعلمين إنني ممنوع من الدخول إلىّ سوريا بعد ما وقع في ذلك اليوم الذي تَمَّ إعتقالي فيه والتحقيق معي في قضايا لا أعرفها ولا صلة لي بها؛ وبسبب الأوضاع السياسية والحرب التي ترفض أن تنتهي قبل أن يهاجر الجميع إلى وجهات مختلفة دون عودة.

أنتِ بدورك تركتيهَا هرباً من موتٍ يحيط بكِ أينما ذَهبت. وحدها بيروت لا ترفضُ استقبالنا، وحدها بيروت مدينة كل عربي مطرود مِنْ وطنه.

بالمناسبة إعْتَكَفْتُ طُول الأسبوع الماضي على قراءة رواياتك الأولى **"مَلاَمِحُ زمن الخَوف"**. كانت مربكةً حقاً، كانَ فيها شيء منكِ. وَكَمَا قُلْتِ لي يوماً: "بِالنهاية نَحن نَكْتبُ أنفسنا فقط تحتَ أسماءٍ أخرى، حتى نُبْعِدَ عنا أصابع الإتهام، ونرفع الحرج عن عورتنا؛ لأننا شعوب تَخَافُ الوقوف عارية وَتُرهبهَا الحقيقة.

هل كتبتِ نفسكِ فيها؟ كيف لقلبٍ صغير أن يتحمل كل أوجاع العروبة دون أن يشتكي، متعالياً عن حزنه الشخصي بذريعة الكتابة عن حزن الوطن أولاً.

كانَ الليل في منتصفه عندما أنهيت قراءتها، أذكر أنني رأيتُ كل شيء بعيونكِ المتعبة لحظتها. رأيت مخيمات النازحين في لبنان، وقوارب الموت على شواطئ تركية واليونان. رأيت ألاف الأحلام تقف في طوابير خلف ذلك السياج الفاصل بيننا و بينهم. رأيت القتلى والجرحى. رأيت جثث الأطفال المطمورة تحت ركام البيوت المهدمة. رأيت دموع النساء المغتصبات من طرف حماة الله وحماة الوطن. رأيت الأوجاع في كلماتك. رأيت الخراب العربي منتشراً على الطرقات، وفي الأزقة وعلى الجسور. رأيت الحاكم العربي يستبيح دم العتبات. رأيت اللاجئ العربي يبحث عن وطن جديد يتسع لأحلامه. رأيت كل شيء بعيونك المتعبة. رأيت كل شيء بعيونك المتعبة، صدقيني ...

هكذا يبدأ الإنتحار الذي نخافه ونشتهيه. بإمكاني أن أعد الأزمنة القاسية التى إغتالت مساحة تشبه الإنسان وتشبه الحياة في إتساعهما. مع كل كلمة في نصكِ كنتُ أجدك كائناً غريب المزايا، يسبق دائما حتفه بخطوة. قولي لي كم من رصاصة أفلتتك وأصابت غيرك، كم؟ كم من بيت تدمر فوق رؤوس الأبرياء فقط لأنك مررتِ بجانبه صدفة؟، كم من امرأة اغتُصبت، وعلقت على الأشجار مقطوعة الرأس والأطراف فقط لأنها تشبهك، وكنت أنت الفريسة المنتظرة وليس هي؟، كم من القتلة يتربصون بك، ينتظرون فرصة مناسبة لسفك دمك. وفصل رأسك الصلب العنيد عن باقي جسدك، وقطع لسانك الطويل الذي يفضحهم؟.

مِنْ حقكِ أن تختاري مواضيع نصوصك، وتوجهي سهام كلماتك حيث أردت، لكن قدرك هُمْ مَنْ سَيَخْتارُه؛ لأنك متهمة بحلم القلم، القلم الذي يزعجهُمْ، ويوجعهُمْ، ويظهر حقيقتهم للعالم.

أشاهد الأخبار كل يوم، ليس للتسلية لكن حتى أطمئن خوفي، وأيقن أنك مازلت حية ولمْ يتمكن منكِ بعدُ أصحاب اللحي الطويلة، ومرتزقة النظام.

فكلما صادفني خبر عن اغتيال أو تفجير في سوريا توقف قلبي، وصارت الدنيا من حولي باهِتَةَ الملامح. أصبحت لا أفوت جريدة عربية إلا وبحثت فيها عن صورتك، أو موت عربي إلا وخلتكِ أنتِ الميتة.

لمسة منكِ كانت كافية لتشعل بأعماقي جمراً طالما سكنني. جئتكِ لأحيا بكِ وفيكِ. متعب أنا، متعب من أشباحي الكثيرة، من الإيقاع نفسه الذي تسير به قصتي منذ الصرخة الأولى على هذه الأرض. متعب من الرتابة التي أضافها المرض على حياتي الفاترة أصلاً. متعب من كل شيء حتى من الكتابة إليك في هذا الوقت.

لَوْلاَ بعض الدهشة لكانتْ الحياة أكبر خسارة ومأساة نطمحُ لها وَلا نود مغادرتهَا. قطعاً لا أعتقد أن الصفوف الأمامية للموت تَليقُ بنا نحن الخائفون، الشاردون في الماضي، فقد تركتْ فينا السنوات الماضية بعض الجنون حتى نقهر دراما الموت والإنتماء ولو مؤقتاً. حتماً يا ريما، كَمْ هو جميل هذا الإحساس رغم شتاته، ورغم أنه محفوف بالخطورة والإلتباس

طبعاً من السهل أن نرتكب جرائم بشعة في حق أنفسنا، لا لشيء، فقط لأننا أخذنا الحلم مأخذ الجد، وكانَ الأمل ضرباً من الجنون والعبث. أَلمْ يكن من الممكن يا فراشتي، أن تواجه هشاشتنا المخجلة قساوة الوطن؟ ألم يكن من الممكن أن لا يحدث هذا كله؟

هيهاتَ أن نُحَرِرَ أنفسنا من ماضٍ لا يغيبُ عن أروقة العمر الذي تبقى. ليت شيئاً ما يجمعنا في مكان ما، و لو صدفة، ولو صدفة. اكتبِي لي متى اتيحت لك الفرصة، أنا في إنتظار ردكِ.

مهدي. م

من هنا كانت البداية .. بداية الحكاية

كَازابْلَانْكَا

آذار 1973

ليالٍ طويلة، طويلة جداً، وقاسية جداً، وباردة.

ليلة بعد أخرى قضيتُها بين أربعة جدران، كانت قادرة على أن تصُوغ مني إنساناً له ذلك الصمت الطاغي، صمت ورثته عمن سبقوني إلى تلك الزنزانة المظلمة والعفنة.

علمونا حينها كيف نصمت، كيف نصمت للأبد.

* * *

مازلتُ أذكر بوضوح شديد ذلك اليوم بشيء من الحرقة الدفينة، بشيء من الوجع الخفي، وبشيء من الغبطة. كان ذلك في صباح 15 من آذار 1973م، كنا نعيش حينذاك على إيقاع الأحاسيس المتناقضة من تمرد و ندم، كنا نتذبذب على وقع الحيرة والمبهم.

عيون الناس لا ترى سوى الخوف المعلق على الشرفات والشَبَابِيكْ وأمَامَ الأبواب المغلقة وعلى العتبات، قلوب الناس لا تسمع سوى رشقات الرصاص الذي يأتي من بعيد، من مكاتب التحقيق ومن أقبية النظام ومن مقابره السرية.

كان منتصف شهر آذار من الأيام الأكثر سوداويةً واضطهاداً، كانت تلك هي أكثر اللحظات وحشيةً وظلماً في ذاكرة الوطن، وفي ذاكرة الأرض والسماء معاً، وفي ذاكرة الألم المغربي أيضاً.

كُنَا نقف عند منتصف كل شيء، منتصف الحرية، منتصف العدالة، منتصف الوطنية، منتصف الحياة، ومنتصف الموت. كنا في مواجهة مباشرة مع النظام الملكي الحاكم.

الاحتجاجات الجماهيرية الشعبية تَمْلأُ المدن الكبرى من شمال المغرب إلى جنوبه الأقصى البعيد، وحتى القرى النائية الغارقة في جهلها والمنسية فوق قمم الجبال الشاهقة، كانت تعبر عن سخطها العارم اتجاه التفقير والتجهيل الذي ينهجه النظام المخزني المغربي[2] بخصوص الطبقة الكادحة الهامشية والمهمشة، وعلى سياسة القمع

---

[2]**النظام المخزني أو المخزن:** مصطلح يشير قدحياً إلى نظام عتيق تعود أصوله إلى بداية القرن السادس عشر، مع دولة السعديين. وهو متداول في المغرب ويشير إلى الملفوظات السياسية وإلى التحالف القائم بين مجموعة من المكونات على رأسها المؤسسة الملكية، ويدخل في مفهومه مختلف الدوائر التنفيذية في المملكة المغربية، كرجال المؤسستين العسكرية والأمنية، وكبار الموظفين بما في ذلك مستشاري الملك، والمستفيدين من هبات الدولة بدون وجه حق.

التي تطال كل شخص فكر في أن يطالب بحقه وكرامته. وأن يرفع صوته أمام الطبقة الحاكمة.

طاحونة الموت الشرسة ورموزها تسحق بقسوة حقيرة كل الأصوات الحرة التى قالت " لا " في وجه النظام الملكي، وأتباعه ومريديه، وفي وجه المخزن، و في وجه الأحزاب السياسية كذلك.

كنتُ ساعتها بساحة كلية الأداب بالدار البيضاء، رفقة مجموعة من الرفاق، كالعادة نتبادل أطراف الحوار حول الوضع السياسي والاقتصادي الذي تعيشه البلاد، و عن الأخبار الرائجة في تلك الأيام، بخصوص الاعتقالات المخزنية القسرية التى عرفتها مدينة فاس والحسيمة وخنيفرة، في صفوف الطلبة والتلاميذ والأساتذة، وكل من ينتمي إلى اليسار من قريب أو بعيد، و كل من يحمل في دمه غيرة على البلاد.

كانت بين يدي نسخة من جريدة العلم، كنتُ قد أنهيت للتو قراءة مقالة كتبها أحد الصِّحَافيين المستفيدين من خيرات النظام، حول الموت الإكلينيكي للأحزاب اليسارية، ودور الدولة في تسيير شؤون البلاد، إضافة إلى بعض المنشورات، وورقة مكتوبة بخط اليد من خطاب العرش الذي احتفل به المغاربة قبل أيام قليلة.

الخطاب الذي توعد فيه الحسن الثاني باللغة الحادة كالسيف، ونبرة صوت أرقّها إشتعال الشارع السياسي، نبرة ماتزال إلى اليوم تتردد في مسامعي تكاد تخرم طبلة الأذن، حين قال بغضب

وإنفعال كبيرين على موجة الإذاعة الوطنية: أنه سيجتث المخربين من جذورهم، ولنْ يتسامح مع أي جهة تقف ضد سياسته وضد القصر، وأنه سيسحق كل من يمس أمن الوطن ووحدته،

كان في كلامه الكثير من الحقد، كان يحاول أن ينشر الخوف في شعبه الخائف منذ زمن بعيد بالفطرة أو ربما بالوراثة.

وما هي إلا لحظات قليلة، حتى وجدنا أنفسنا محاطين بمجموعة كبيرة من رجال الأمن بزي مدني، كانوا مسلحين، طوقونا من كل الجوانب بشكل دائري، جعلونا في الوسط، لا أذكر عددهم بالضبط، كل ما أذكره أنهم وجهوا مسدساتهمْ نحو رؤسنا في حالة تأهب وإستعداد، وقد صاح أحدهم بصوت عالٍ:

- إرفعوا أياديكم

صَمَتَ للحظة ثم واَصَلَ بنبرة اكثر حدة:

- إرفعوها الآن، ودون شوشرة وإلا سنطلق النار على أية محاولة للهرب أو المقاومة.

كانت ملامحهم تقول الشيء الكثير، أكثر من تلك العبارة التحذيرية الجافة التى أطلقها قائدهم في الهواء كرصاصة أولى.

ألمت بي رجفة لمْ أَدْرِ سِرَّهَا، وتحت وقع المفاجأة الصباحية، وعبثاً دون تفكير رميت الأوراق على الأرض سريعاً، كنتُ أحاول

التخلص منها دون أن يلمحني أحدهم، ثم سحبت نفساً عميقاً من السجارة التى كانت ماتزال بين أصابعي.

كنا عزّلاً داخل الحرم الجامعي المنهك والمنتهك. مجموعة صغيرة من الطلبة المحسوبين على اليسار الجذري، يحاولون صناعة نصر صغير، وكتابة التاريخ بالدم والدموع والتضحية، رأيت يومها مزيجاً مِنْ خوف ودهشة يتسللان إلى عيون الرفاق، رأيت كل الأحلام الهاربة تسبح في عروقنا كالأسماك الأليفة.

تمتم إبراهيم الصالحي، وكان أكبرنا سناً وأقلنا خوفاً، بكلمات غير مفهومة، وهو لا يدري إن كنا سمعناه أم لا، إرتسمتْ على محياه اِبتسامة من كان ينتظر لحظة كهذه منذ زمن، ضحكة خفيفة بلا صوتٍ، اختزلتْ كل مخاوفنا وَهواجسنا. لَمْ نبد حراكاً، وضعوا الأصفاد الحديدية في أيدينا.

بخطوات سريعة يتخللها شيء من الإضطراب، أخذونا إلى سيارة مدنية من نوع بيجو كانت مركونة على مسافة قريبة من أحد الأبواب الخلفية للجامعة، أدخلونا إليها أمام أنظار الطلبة والأساتذة. جلسنا ملتصقين بعضنا بعضاً كالخراف، كنا خمسة أشخاص في المقعد الخلفي، أحمد مامو، إبراهيم الصالحي، نجمة، وأنا. وبجانب النافذة من جهة اليمين جلس شرطي قوي البنية أسمر البشرة، تجاعيد وجهه تشي بعمر الأربعين أو أكثر قليلاً، كان يعطي الأوامر لسائق السيارة بأن لا يتوقف عند إشارات المرور.

إنطلقت السيارة كسهم يسابق سحابة صغيرة كانت تحجب عنا أشعة الشمس وضَوْءَهَا وَدِفْءَهَا. وانطلقت معها أصوات متداخلة كانت تأتي من الخارج على هيئة صورة مضببة، مختلطة بصوت المحرك الهرم الذي يجاهد من أجل تحريك السيارة بوزنها الزائد.

كانت عملية إختطاف مخزني واضح المعالم والخطوط والأشكال، وواضح الغرض أيضاً.

طردتُ كل شيء من ذهني، وَلَمْ أحتفظ إلا بلحظة الصفاء التي إخترقت أعماقي، حين نظرت إليّ نجمة بعينين دافئتين تبرقان بوميض من الأسئلة الحائرة. هزتني نظرتها الشاردة.

عدلتُ من جلستي قليلاً بحيث زادت إستقامتي، تأملتها وهي تتحسس ركبتها بأصابع يدها المرتجفة. بدا لي للحظة وكأن الأصفاد الحديدية الثقيلة صارت فجأة أساور فضية تزين معصمها.

تغمض عينيها كلما مرت عليها الظلال المتلاحقة ظلال الأشجار، والوجوه، والبنايات، وظلال الخيبة والخوف والإنتظار أيضاً. ذلك أننا لم نكن بعد قد إستوعبنا بشكل كبير ما يحصل، أو ما سيحصل في ما بعد، كنا ما نزال تحت وقع الصدمة.

كانت تتقاطع في رأسي أكثر من قصة، وأكثر من سيناريو، كنا نتجه صوب المجهول الذي لا أحد يستطيع رؤية ما يخفيه لنا بين طياته.

كيف يمكن أن يحصل هذا الأمر، تساءلتُ بصوتٍ خافت، رغم أننا كنا نتوقعه، لكن على الأقل ليس بهذه الطريقة التي تشبه فيلماً بوليسياً، كان من المفترض أن يتم اعتقالي في إحدى المظاهرات، أو أحد اللقاءات التى كنا نقوم بها بشكل سري في بيت ابرهيم الصالحي، أو في تلك اللحظات التي كنا نوزع فيها المنشورات على البيوت ليلاً،

لكن الاعتقال وقع هنا في ساحة الجامعة وسط ضجيج الطلبة والأساتذة، وأمامَ نظراتهم المستفسرة، تم اعتقالنا يومها أو بشكل أكثر دقة تم اختطافنا من ساحة الجامعة.

كانت الرياح قوية جداً، وتهب من كل الجهات وضباب نزل فجأة على شكل قطرات مطر خفيف. حين وصلنا إلى مفوضية المعاريف، كان المكان مكتظاً على آخره برجال الشرطة الحيارى وَهُمْ يتحركون في كل الإتجاهات. أبواب تفتح وأخرى تغلق بقوة، أصوات المفاتيح والأقفال تُحدث جلبة ورهبة في كل الزوايا. كانت هناك حالة استنفار واضحة.

شعرتُ برعشة تملأ قلبي وتسري في دمي باردة كالثلج، رعشة سرعان ما تلبدت فوق صدري كالغمام، إنقبضت أنفاسي، حاولتُ قدر الإمكان أن أحافظ على مسافة الإرتياح بيني وبين الضابط الضخم الذي يسبقني بخطوة،

أدخلونا إلى قاعة كبيرة بنوافذ خشبية صغيرة تطل على الشارع، وقفنا جنبا إلى جنب على طول الحائط المقابل للباب، أخذوا منا الأشياء التي كانت في حوزتنا من مفاتيح، وعلب السجائر، ومحافظ النقود، والأحذية، وفي لحظة صمت مطبق إستدرت برأسي دون أن أحرك باقي جسدي، نظرتُ خلسة إلى نجمة الواقفة إلى جانبي، وهي تقاوم عطب الرهافة، معقودة اليدين واللسان.

في غمرة الخوف والأسئلة التي لا جواب لها حتى تلك اللحظة، وجدتها امرأة مليئة بالحياة والرغبة، والعنفوان النسائي الشهي. متأرجحة ما بين وعيها وإدراكها للأشياء، وبين أنفاسها التى تكاد تنقطع من شدة الحيرة والهلع. شيء يشبه الصراخ كان بداخلها، عيناها تستعرضان إمتداد روح شابة في العشرينَ مِنْ عمرها، مصفدة اليدين، معتقلة أو مختطفة هذه الكلمة هي الأصح، وقد تصير قتيلة أو مشوهة الأطراف في أية لحظة.

ملامحها الهادئة، كانت تقول كلاماً كثيراً وسرياً، وحدي كنت القادر على فهمه. تلك الطفلة المهبولة، المجنونة على الألوان و فرشاة الرسم، لم تكبر بعد في نظري،.

حمامة بيضاء صغيرة كما عرفتها قبل سنوات طويلة، لمْ تتغير أبداً، أصبحتْ فقط امرأة كاملة الأنوثة، متفتحة كزهرة الياسمين.

كانت غارقة في صمتها المكابر، لم تنطق كلمة واحدة ربما حتى تستر خوفها، وخطوها المبعثر. لحظتها تمنيت لو أنني أحتضنتها كما

أفعل معها دائما حين تسترسل في الصمت والتفكير، وأرْبتُ على كتفها، وأمسح ببطء على صدرها، وأزيح عنها الهم المثقل بالأسرار الدفينة، أسرارنا معاً ذاكرتنا المشتركة في مرحلة من عمر مضى، تفاديت أن أهمس لها " لا تخافي ".

رغم أن الكلمات كانت تتزاحم في حلقي، منحدرة من عمق مجهول. تمنيتُ لو وضعت رأسي بين كفيها حتى تتبدد كل مخاوفي وأقتفي خطوات أنفاسَها و نداءَها الخافت.

ثم ماذا لو أننا سرقنا قبلة مجنونة من أمام الحارس الذي يرقب حركاتنا بتوجس عجيب، ثم ماذا لو منحنا هذا المكان المرتعش كالشجر الميت بعض الحياة، لأنه لايمنح غير الموت والمَذَلَّة، ووضعنا بدل الرصاص قليلاً من البنفسج البري، والكثير من الدفء عوض أكفان الموتى المعلقة على أبواب المكاتب.

كيف كانت ستبدو حياتنا دون هذه الأغلال الثقيلة؟

يا للغرابة ..

علاقتي بالمكان تغيرت، ما كان يبدو لي عند عتبة هذه البناية ثقيلاً جداً، أصبح خفيفاً كنسمات الهواء، وكأنني حققت إنتصاراً على الجلاد قبل بداية الجولة الأولى، صرت أسبقه بخطوة وأصبح من الممكن أن أتفرج عليه بسخرية وألعن القدر والوطن معاً، وأسال الله لماذا؟

أما باقي الرفاق فحالهم حالي تماماً، الكل صامت لا يتحرك، لا يتكلم، الكل يتنفس ببطء وبحذر، الكل يتأمل الكل، والحارس يتأملنا جميعاً، صراخات ضعيفة وبعيدة تحضر ثم تغيب من حين لآخر.

بعد خمس ساعات تقريباً، قضيناها في تلك الغرفة الصغيرة، دخل علينا الضابط الوحش، أو ربما أقرب إلى قرد غوريلا في ملامحه ومشيته، جلس إلى مكتب حديدي صدئ، أشار بيده اليمنى إلى نجمة كي تتقدم إليه، أشعل سيجارة ورمى عود ثقاب أمامه دون إطفائه.

إقتربتْ منه قليلاً ثم توقفتْ، وكأن شيئاً ما منعها من التقدم أكثر، أشار إليها بأصبع السبابة مرة أخرى كي تقترب أكثر، وبنظرة إستفزازية كان يرمقها من مكانه وهو يرشف بملء صدره كأس الشاي.

أما أنا فبقيت مسمراً في مكاني، أشاهد من بعيد وأفكر في طبيعة الحوار الذي سيدور بينهما، وبدون مقدمات أو تحية أطلق وابلاً من الأسئلة الروتينية التي نصادفها في مكان كهذا، اِسمك اِسم أبِيكِ، اِسم أملكِ، عنوان السكن، مكان الإزدياد، طبيعة عملكِ ... الخ

مما لا شك فيه أنهم يعرفون كل شيء عنا، كل شيء، يعرفون الأمراض التي ورثناها عن أجدادنا، وفصيلة دمنا، ولون الشراشف والوسائد في غرفة نومنا، حتى مواعيد دخولنا إلى الحمام يعرفونها، فهل يعقل أن تفوتهم معلومات سخيفة كهذه لا أتوقع ذلك أَلْبَتَّة، إنَّهُ مجرد تمهيد للأسئلة الأكبر والأكثر أهمية. الأسئلة التي أحضرونا من

أجلها والتي تستحق أن تؤخذ بجدية عالية أما هذا التمهيد الغبي فهو يثير الضحك حقاً.

كتب المعلومات سريعاً على ورقة ووضعها داخل ملف أحمر اللون، ثم وقف أمامها مشدوهاً لثوانٍ قليلة، قبل أن يسحبها من ذراعها بعنف ويمشي مهرولاً بإتجاه أحد المكاتب وكأنه توصل لشيء ما، بعد أن سمع الأجوبة على أسئلته الغبية. وقد تركنا نحن الثلاثة في تلك القاعة وحدنا دون حراسة ولمْ يغلق الباب حتى، تركه مفتوحاً على مصراعيه، ربما لفرط إرتباكه نسي أن يغلقه علينا، أو ربما تعمد ذلك لأسباب نجهلها، أو لعله القدر فتح أمامنا فرصة للخروج من هذا المكان الموحش، لا أنكر جاءتني فكرة الهروب لكن كيف؟ لا أعرف، كان من الممكن أن أجد طريقة للخروج من هناك.

يا للغباء .. قطعاً لمْ يكن من الممكن، هذا مجرد كلام فارغ لا أكثر، لكنني سرعان ما تراجعتُ عنه وعن تلك الفكرة الساذجة والحقيرة أيضاً، كيف أترك نجمة داخل مكتب مغلق مع ضابط تحقيق، كيف سمحتُ لنفسي أن أفكر بهذه الأنانية المقيتة؟

مع مرور الوقت زاد قلقي، كنت معلقاً على أسئلتي الكثيرة التى إرتسمت في دماغي المتعب، إنهم أمامي زعماء و سياسيون وقادة الجيش والشرطة، وكبار القوم، الخائفون من أن تسحب من تحتهم كراسي السلطة، و يحرمون من الإمتيازات التي جاد بها الوطن عليهم، ها هم أمامي قتلة، أكفهم ملطخة بالدم، دم أحمر لم يجف بعد، لمْ يفقد لونه وحرارته.

الإحساس بالسلطة هو إدمان يصعب التخلي عنه بسهولة وببساطة.

مرت ساعة ونصف بالضبط، ساعة وخمسة وعشرون دقيقة، كانت عقارب الساعة الحائطية المعلقة فوق الباب تشير إلى الرابعة عصراً إلا خمس دقائق، ومر على تواجدنا في المفوضية، ما يزيد عن خمس ساعات. تمكن منا العياء، والجوع، والعطش. لمْ تعد أقدامي تتحمل ثقل جسدي وخاطري، لمْ أعد قادراً على إستساغة كل ذلك الصمت والخوف والانتظار الذي طال. كنتُ كمن يقف على الجمر الحارق.

عاد إلينا المحقق والعرق يتصبب من جبينه العريض، مثل الذي له مهمة لم تكتمل بعد، ثم لحق به آخر لم أكن قد لمحته قبل تلك اللحظة، رجل لفرط ضخامته بالكاد يستطيع المشي، رمقني بنظرة عدائية وهو يربت على جبينه، التقطتُ تلك النظرة ذلك الكره الذي يشع كالبرق من سواد عينيه، كان كل شيء هنا يشي بأننا سنعيش رحلة تحقيق قاسية وعلينا أن نتحملها ونتحمل صعوبتها.

وحده الموت لمْ يكن ضمن أسباب الخوف الذي عشته أنا بشكل خاص، ثمة أماكن يكون الموت فيها أكثر جمالية من بشاعة الحياة. وموت في مكتب تحقيق كهذا أكيد سيخلده التاريخ وتكتب عنه الأجيال القادمة.

إنطلاقاً من تلك النظرة الحاقدة التى قذف بها ذلك الرجل الضخم، سيشرع كل شيء في التداعي، كل ما كنت أريده حينها أن ينتهي ذلك الانتظار المحير، لعبة حماسية غدت خطيرة فجأة، أكبر منا و غير مضمونة العواقب وها قد وضعنا مصائرنا في قبضة الجلاد اليوم، ما علينا فعله هو أن نظل على العهد أوفياء للقضية، وللرفاق، وللوطن، وللجماهير البائسة، التي تنتظر حقها، حتى لو كان الثمن رقابنا وعمرنا الذي تبقى.

ورثاء الدم الأحمر .. ورثاء الأشواق المنهكة

إقتسموا الوطنيات الزائفة، إقتسموا المناصب والمكاسب، إقتسموا الكراسي والثروات، واقتسمنا نحن الهزائم والزنازن، اقتسمنا الظلال المكسورة و بعض الكبرياء.

يحدث هذا على مرأى منا، كل شيء يتحرك بسخرية مبكية، كل الحرائق تشتعل ببطء، إلا حريق الوطن تبتدئ فيه النيران متأججة. شعب يموت في المذابح الجماعية بتهمة الخيانة، و طن يموت كل يوم قليلاً، أية خيانة؟ ياالله هل صارت المطالبة بالعدل والحرية خيانة، وإن كان ذلك خيانة فعلاً، فأعلن أمام الجميع أنني خائن، خنت الخوف الذي كبرنا فيه وسيطر على كل تفاصيل حياتنا، أعلن أنني خائن أن كان الحلم بحياة تشبهنا خيانة. سأرفع صوتي عاليا مهما كلفني الأمر،

إنها مرحلة القتل العمدي والمنظم، مرحلة الكلمة التي تساوي رصاصة يطلقها المخزن، مرحلة الفكرة التي تفضي بصاحبها إلى غياهب السجن والإعدام،

يا نجمة، من صنع هؤلاء القتلة؟

نحن لم نكن نريد وطناً ممزق الأطراف، تسيره عصابة تدين بالولاء لكل من يمنحها الرخاء والمال والسلطة، جماعة القصر وحاشيته، كل منهم يدافع عن مصالحه الخاصة لا أكثر. الوطن في حالة غبن مستمر، غبن يمتد لأكثر من خمسين سنة مضت، غبن تخفيه اِبتسامة كاذبة مخادعة، تنسحب كلما جاء المساء ودون ضجيج، حتى لا نفطن كم نحن تعساء على هذه الأرض. وكم قلوبنا صارت باردة كصخرة يابسة.

صارت الشوارع بيوتاً باردة، لم يترك لنا أي مخرج للفرح حتى ولو كان صغيراً. تركوا لنا فقط حلما يتأرجح بين نارين، وتركوا لنا القليل من الهواء، نتنفسه حتى لا نموت اختناقاً تحت سماء هذه المدينة العرجاء التي تتوحش كل يوم قليلاً.

من هم أعداء الوطن إذن؟

من هم الخونة؟

من هم القتلة؟

عند ذلك الحد من الصمت المفروض علينا، وفجأة كَسَرَتْ تلك الصرخة التي وصل صداها إلى أبعد نقطة في مفوضية المعاريف الإنتظار الذي كان يسكن عظامنا، صرخة الرفيقة نجمة، أول صرخة أسمعها بقلبي لا بأذني من داخل تلك البناية الحقيرة.

صرخة قوية أيقظتني من غفوتي وشرودي،وكاد قلبي ينطُ من مكانه، التَفَتَ نحوي باقي الرفاق، وعلامات الإرتباك تعلو ملامحهم، قلتُ دون أن أنظر إليهم:

- لنْ يمنحونا وقتاً آخر للصمت، المطلوب منا الآن أن نتكلم، أن نقول كل شيء .

- ثم واصلت في قرارة نفسي:

ما ينتظرنا أصعب مما سمعنا ومما نتخيل، رائحة الموت هنا شبيهة برائحة المنشورات الورقية التي كنا نحرقها بعد نهاية الاجتماعات السرية. فهل يمكن لصرخة باردة أن تعيد تشكيل أفكاري المفككة وأن تفجر قلبي بكل هذه المخاوف ؟ أيعقل أن تكون تلك الصرخة التي سمعتها هي صرخة نجمة؟

ثم ما لبثت أن أنهي تفكيري، حتى ظهرتْ نجمة وهي تخرج من المكتب وأحد رجال الشرطة يدفعها من الخلف بقوة وكأنه يحاول دفعها للجحيم الآتي، لمحتها فضج قلبي بوجع وحزن عارم، توقفت أمامي للحظة خاطفة ثم قالت بصوت متقطع بضحكة مخنوقة:

- تنتظرُكَ تُهم ثقيلة جداً.

واسترسلتْ بفخر متزايد :

- كن كَمَا عَهدتُكَ.

فجأة إنطلقتْ يد الشرطي الغاضب صوب وجهها بصفعة قوية، صفعة كبحت صوتها وحركتها في لحظة، فتطاير الدم المنبعث من أنفها وفمها على الأرض وتناثر على قميصها الأبيض، كأول قطرات المطر في يوم خريفي، كأول الغيث، كأول النزيف، وآخر الخوف، دمها الذي نحث في داخلي المظلم خراباً وغضباً كبيريْن.

كان في جوفها الكثير لتقوله، لكن الجلاد لم يمنحها مساحة لتنطق كلمة أخرى. كنتُ واعياً في قرارة نفسي، أن ما حدث، ما هو إلا رسالة قصيرة إلينا جميعاً، رسالة تقول إننا صرنا في يد الجلاد، وأن زمن العذاب قد وصل أخيراً.

يا الله، كم تعنيني هذه المرأة؟

لا أحد يعنيني غيرها، لا أحد بَتَاتاً، أنا من ورطها في هذا الخراب، ولابد وأن الدنيا قد وضعتنا في مواجهة مباشرة مع مصيرنا، صرتُ واعياً بالأمر، وعياً جاء متأخراً كثيراً، جاء بعد أن أفنيتُ سنوات طويلة في التمادي والحلم. تماديتُ في كل شيء.

الدم الأحمر في كل مكان، صرختها ماتزال تتمدد في شرايين دمي كالأمواج العالية، كل شيء فيها إنسحب فجأة، ولمْ يَتَبَقَّ أمامي إلا الألم المتدفق من عينيها، شيء ما دفعني إلى الركض مكبل اليدين نحو الشرطي، ودون تردد رميتُ بثقل جسدي كله عليه، حتى سقطنا ثلاثتنا أرضاً. كنت أحاول بهذه الطريقة حمايتها منه، حتى وإن اقتضى الأمر موتي برصاصة مبكرة، لا يهم.

كل ما كنتُ أفكر فيه حينها، هو كيف أدافع عن جسد هش طالما إشتهيت أن ألبسه، جسد امرأة أكثر طراوة من الماء، كنت تواقاً لمشاركته شيئاً مًّا، وها أنا اشاركها الألم، كما شاركتني هي منذ سنوات بعيدة الحب، والطفولة، و الذاكرة، وحمل القضية.

هي التي نذرت شبابها للكفاح ضد البؤس المثوارت والمكتوب علينا كقدر مشؤوم، ها هي الآن غارقة في دمها كغزال مذبوح، كفراشة محروقة الجناحين تتخبط في رمادها، وفي صمته المزمن.

حملني أحدهم من على الأرض، طوقني بقوة وغضب، وكأنه كان يريد كسر عظامي بين ذراعيه. جاء باقي رجال الشرطة لما سمعوا الضجة والصراخ في الغرفة، حينها لمْ يمنحوني وقتاً للوقوف والتقاط الأنفاس، تلقيتُ ضربة بعصى ثقيلة على الرأس من الخلف، ضربة صلبة كانت كافية لأسقط من طولي مرة أخرى على تلك الأرض، التي لم تكن رحيمة بنا هي أيضاً، وشيئاً فشيئاً أخذت أغرق في الفراغ، وصورة نجمة تنطفئ أمامي بهدوء.

جاءني صوتها هذه المرة دافئاً وحزيناً من عمق الضباب الذي بدأ يحجب عني الضوء، غاب وعيي في الظلمة سريعاً لمْ أعد أشعر بما يحدث حولي، كانت الكلمات تأتي إلي مسامعي غير مفهومة ومتداخلة تشبه الصدى البعيد، وحدها اليد الناعمة المرتجفة التي امتدت إلي، ولامست وجهي كنتُ أعرفها، أحسست أصابعها الطويلة واحداً واحداً. كانت رؤوس أصابع نجمة هي من يتحسس ملامح وجهي الشاحب.

لا أدري كم مضى من الوقت وأنا غائب عن الوعي، فتحت عيني بصعوبة كبيرة، وكأن ثِقْلٌ ما فوق الجفن، وجدتُني مربوط القدمين بحزام من الجلد، ومشدوداً بإحكام إلى مكتب حديدي، في ركن غرفة صغيرة ومظلمة، لا نوافذ لها سوى تلك الكوة الصغيرة فوق الباب، ومصباح يبعث ضوءً أصْفَرَ خافتاً يتدلى من السقف، وخزانة خشبية قديمة في الركن المقابل.

يدي ماتزال بها الأصفاد المعدنية الضيقة، وجسدي ممدد على الأرض كجثة لفضها البحر، أو لعل العبارة الأصح لفضها الوطن، وكان تحت رأسي منشفة مبللة بالدم الذي أصبح بارداً ومتخثراً، وعلى مسافة خطوتين يجلس المحقق وبيده عصا دقيقة من الخيزران، أو شيئاً شبيهاً بالخيزران يضرب به على سطح المكتب بشكل منتظم وكأنه يعد الثواني، وقرب الباب المغلق يقف رجل في متوسط العمر قصير القامة، حليق اللحية، مكفهر الوجه، يرتدي بدلة رسمية بربطة

عنق، عرّفَ نفسه أنه من فرقة مراقبة التراب الوطني، وجاء خصيصاً لاستجوابي ومساعدتي على حد قوله.

إقترب مني قليلاً، ثم إنحنى متكئاً على ركبته أزاح خرقة القماش التي كانت تسد فمي وتكتم أنفاسي. ثم إسترسل في قراءة ورقة كانت تحمل بعض معلومات عني.

- أنت المهدي المباركي ؟

أرد بنبرة مخنوقة لا تكاد تسمع :

- نعم

لم يسمع ما قلته، فصاح بصوت مزلزل :

- إرفع صوتك أكثر

- نعم

- مزداد سنة 1953 بدرب الفقراء، وحالياً تدرس بالسنة الثانية شبعة الأدب الفرنسي بالكلية.

أرد بحركة من رأسي وأنفاسي تكاد تنقطع :

- صحيح .. صحيح

أضاف وهو يهرب بنظره بعيداً :

- أتعرف سبب وجودك هنا؟

وبعد شيء من الصمت، استأنف كلامه قائلا :

- تعرف طبعاً

- لا .. لا أعرف

رد بإستغراب وهو يهز رأسه إلى الأعلى :

- لا تعرف

لمْ ينتظر طويلاً وكأنه كان يتحين فرصة رد فعلي، أضاف بصوت هادئ بعد أن أشعل سيجارة :

- أنت هنا قيد التحقيق في مجموعة من التهم الموجهة إليك

قاطعته مصدوماً أو حاولت أن أرسم على ملامح وجهي تقاسيم الصدمة :

- تهم

رد بتثاقل متعمد :

- يا مهدي، أنت متهم ...

ثم راح يتلو علي مسامعي تهماً من مختلف الأحجام والأشكال، تهماً كبيرة بحجم مقصلة، وأخرى صغيرة بمقاس رصاصة.

نظرنا إلى بعضنا في نفس اللحظة وبعدها قال :

- أنت متهم بالتحريض على الخروج إلى الشارع في مظاهرات غير مرخصة، التحريض على افتعال الشغب وتخريب الممتلكات العامة والخاصة، الإنتماء إلى تنظيم ماركسي لينيني، والمس بسلامة الدولة الداخلية، والمؤامرة بقصد قلب النظام الملكي إلى نظام إشتراكي، والإنتماء إلى منظمة إلى الأمام. والتخابر ضد الدولة لفائدة قوى أجنبية.

ثم أردف وهو يبتسم بسخرية :

- ولك تهمة أخيرة، عرقلة السير العادي للتحقيق، وتعنيف رجل أمن أثناء قيامه بعمله.

تأملت وجهه، ملامحه، وحركة عينيه، لإدرك ما يختفي وراء كل كلمة يقولها، كان بيننا مسافة خطوة لا أكثر حين قال :

- هذه التهم كافية يا مهدي لتأخذك إلى حبل المشنقة اليوم قبل الغد.

إرتجف جسدي بعد الكلام الذي سمعته منه، التفت نحو الكوة الصغيرة التي كان يتسلل منها القليل من الضوء، ثم قلت بعد أن سحبت نفساً عميقاً :

- لاشيْء مما قلتَ صحيح أيها المحقق، لا شيء.. لا شيء مُطلقاً

أجابني بصوت لم يستطع إخفاء نبرته الغاضبة :

- ماذا تقول عن هذه الكتب الحمراء التى وجدناها صباح اليوم في شقتك؟ وهذه المنشورات السرية، وصورة ماركس، والشعارات المكتوبة بخط اليد، إنها نفس الشعارات التي كنتم تستعملونها في المظاهرات أليس كذلك؟ والمقالات المنشورة باسمك في جريدة العلم، والرأي، والأوراق التي كانت معك حينما تم اعتقالك..

تحسس وجهه بكف اليد ثم واصل :

- إعترف، تعاون معنا وسنساعدك بدورنا، ببساطة لا أريد تعذيبك وإرهاق نفسي، لكن كن على يقين أنك سوف تقول كل شيء تعرفه.

جف حلقي وأنا اقول:

- تلك المحجوزات ليست لي، لمْ أَرَهَا من قبل

رد ببرودة مصطنعة :

- أحمر

- وجدناها في بيتك، مع رسمٍ لك بقلم الرصاص، من رسمك على هذه الوضعية، عارياً تماماً؟

حاولت أن أحتفظ بهدوئي ولا أظهر خوفي أمامه وأنا أقول :

- أخبرتك أنها ليست لي، أنا لا أملك أية شقة، أنا أكتري غرفة صغيرة في سطح عمارة البريد، والمفتاح معكم، يمكنكم تفتيشها إن أردتم ذلك.

عند سماعه هذه الجملة توجه إلى الخزانة الخشبية في الركن البعيد، فتح أحد أبوابها وأخذ منها حبلاً طويلاً وأسطوانة معدنية بحجم الكف، كتلك التي تُستعمل في سحب الدلو من البئر، علقها بمشبك صلب على سقف الغرفة، ومرر من خلالها الحبل المفتول، ثم حرر يدي من الأصفاد، وفك الحزام الجلدي من قدمي، وأمرني بالوقوف ونزع ملابسي كلياً. فعلتُ ما أمرني به بإنفعال وتعجب شديدين، لكن دون أي استفسار أو إمتناع. نزعت الحذاء وسروال الجنز والقميص، واحتفظت بالملابس الداخلية، التي جردني منها فيما بعد بالقوة، وبقيت عارياً تماماً.

كانت الغرفة باردة وبها رطوبة متعفنة، أعاد وضع الأصفاد في يدي، وبمساعدة الشرطي الذي اختطفنا من الساحة، قاما بربط نهاية الحبل المفتول بأقدامي مرة أخرى، أحسستُ بانتفاخ في العروق، توقف الدم من الوصول إلى أطراف الأصابع، طلبا مني بعد أن تأكد من ربط الحبل بشكل جيد، أن استلقي على الأرض، كما كنت من قبل، لمْ ينتهِ الأَمر عند هذا الحد بل وضعا على الأرض

سطلاً ممتلئا بالماء بشكل مُتَعَامِد مع الأسطوانة المعدنية المعلقة بالسقف، عدت إلى وضعيتي السابقة لكن هذه المرة عارياً، كنت هادئاً وفارغاً أيضاً من كل شيء.

بقيتُ على تلك الحالة، أنتظر متى أُعلق كذبيحة بين السماء والأرض، الكلام يحشو حلقي لكنه لمْ يقفز إلى لساني، تَكَدَسَتْ الأفكار في جمجمتي، وأنا أتأمل الحبل والسطل وما ينتظرني. الآن فقط، بدأت الفصول الأولى من الحكاية ..

يريدون إنتزاع إعترفات، أو إنتزاع روحي، لأول مرة أكتشفُ أن ما كنا نقوم به يخيف النظام إلى هذه الدرجة، أو لربما صار يخيفه، أي إجتماع سري، أو خروج في مظاهرة، أو امتلاك كتاب بغلاف أحمر اللون مرسوم عليه منجل ومطرقة، أو نسخة من جريدة ممنوعة. فبعد إستيقاظه من المحاولتين الإنقلابتين، صار نظام الحكم المغربي شرساً، نعم إنه الخوف من فقدان السلطة ما جعل المخزن يكشر على أنيابه، ويسحق كل منْ جاء في طريقه، كأنه في نوبة جنون مفاجئ، كانوا يعرفون أن أصل التغيرات الكبرى تبدأ بخطوة صغيرة إنهم يحاولون قطع الطريق أمامنا قبل بداية المسير.

نَظَرَ المحقق إلي ملياً وهو يشعل سيجارة أخرى. العين تفضح صاحبها، وتكشف المستور.

كأن في نظرته وعداً بالتصفية إن لمْ أعترف، بماذا أعترف؟ هل أخبره أني كنت المسؤول عن تنظيم التلاميذ داخل النقابة الوطنية

ن.و.ت ما بين سنة 1969 ونهاية 1971، وأنني أكتب مقالات ونشرات في المجلة السرية **المناضل**، وأنني المسوؤل أيضاً عن تجميع الرفاق في تلك الشقة، للاعتكاف طول الليل على رقن المنشورات والشعارات والبرنامج النضالي، على الآلة الكاتبة، وأنني كنتُ أقضي ساعات في محاولة التقاط موجة الإذاعة الليبية، التي كانت تهاجم النظام الملكي، وكتابة كل جديد تبثه البرامج من أجل تزويد الرفاق به كل مساء، وأنني أملك أكثر من عشرة أسماء مستعارة، استعملتها لمدة ثلاث سنوات منذ انتمائي لحركة إلى الأمام سنة 1970، وبداية نشاطي في صفوف النضال الجماهيري والتنظيمي، أسماء كانت تمكنني من التنقل بين المدن بكل أريحية، وكانت تمنحني فرصة أكبر كي أقوم بدوري كما يجب، هل أخبره أن المحجوزات التي معه هي ملك لي وتلك الرسمة تخصني؟ وأنهي المعركة قبل بدايتها، قطعاً لا، لن أعترف بشيء، سأترك اللعبة تسير كما تشاء. وفجأة قاطع تفكيري بسؤال مفاجئ، أو لعلها كانت مجموعة أسئلة بصيغة المفرد:

- هل لك علاقة بأحداث مولاي بوعزة[3]؟ هل لك علاقة بالمتمردين؟ هل تمتلك أسلحة؟

---

[3] **أحداث مولاي بوعزة:** هي عبارة عن مجموعة أحداث مسلحة وقعت في الأطلس المتوسط في المغرب سنة 1973 بغرض ثوري. كان العقل المدبر لهاته الاأعمال هو التنظيم السري لحزب الاتحاد الوطني للقوات الشعبية.

السياق التاريخي: في حالة السخط الذي كان يعيشها مغرب السبعينات، وبعد فشل محاولتين انقلابيتين، كان الخيار الثوري والنضال المسلح من بين الخيارات المتبناة عند بعض الفئات اليسارية المغربية. التي قررت مواجهة نظام الحسن الثاني بالسلاح. وسميت الأحداث بأحداث مولاي بوعزة نظراً لكون الهجوم وقع في منطقة مولاي بوعزة.

أجبت مندهشاً :

- مولاي بوعزة، المتمردين، والأسلحة هذه أشياء لا علاقة لي بها

لمْ يعجبه ردي، فأفرج عن ابتسامة صفراء لمْ تخف غضبه، ثم قال بِصَرَامةٍ :

- " ارفع، ارفع، ارفع ولد القحبة "

بهذه الكلمات أعطى الأوامر لزمليه كي يسحب الحبل من الطرف الثاني، لأجدني في لحظة خاطفة معلقاً في الهواء، ورأسي باتجاه الأسفل وتحته دلو من الماء العكر، وأقدامي تكاد تلمس السقف. أحسست بدوار شديد وحالة من الغثيان إنتابتني حينها.

رأيت العمر يمضي مقلوباً على حقيقته، وجميع الأشياء أخذت صورة معكوسة، وفي غفلة من كل حواسي، عادت وجوه من رحلوا، ترتسم باهتة على الجدران، وحدها عيونهم لمْ تفقد ألقها، ولمْ تفقد بريقها.

بعد ما كنت أظن أنني نسيتهم وانطفأت ملامحهم نهائياً. أصادف الآن أنني أخفقت في نسيانهم كما كان ينبغي أن يحدث، إنه هول السقوط في فخ الذاكرة، ذاكرة الوجوه.

إنتابتني لحظة سهو غريبة أخذتني خارج حدود المكان. سَبَحَتْ في صدى الكلمات التى أغفلتها، لأنني لمْ أكن أتوقع أن الحياة أعقد مما كنت أتصوره.

" اطلق .. اطلق الزامل بوه "

قالها المحقق الضجر بنبرة صوت مجلجة، ثم نظر إلي بعينين تتقاطع فيهما كل الأحقاد الدفينة، آه يا للكارثة ما كان قبل أسبوع مزحة ثقيلة يطلقها الرفاق بينهم، تحول اليوم إلى حقيقة قاسية، حقيقة أنني معلق من أطراف قَدَمَيَّ عارياً، حقيقة أن زمن الأحلام الصغيرة إنتهي، والأفكار المجنونة أودت بي دون أن أحقق شيئاً للوطن الذي يرفض أن يتغير أو يتحرر من يد ضباط و جنرلات الدم، ومن يد الأحزاب الكاذبة، الزاحفة على بطنها، المتاجرة بدمنا وعرضنا وتاريخنا.

في هذه الغرفة المتخمة بالذل، بدأت أول عمليات التعذيب والقهر، فكلما أفلت المحقق الحبل قليلاً من قبضتة انغمس رأسي كلياً في الماء، وإنقطعت أنفاسي وأحلت بي رجفة سَرَتْ في كل أطرافي، و ملأ الماء الحار فمي وأنفي حتى وصل إلى الرئة، أبقى على تلك الحالة لثوانٍ، رأسي مغمور إلى آخره، وجسدي ينتفض كديك عالق في مصيدة، محاولاً الخلاص إلى أن يستسلم في الأخير.

ثم يجر المحقق إبن الكلب. الحبل من جديد فيرتفع رأسي من على الدلو قليلاً، فترجع الحياة تنبض بداخلي، أحاول التنفس

وإستنشاق ما يكفي من الأكسجين، في الدقيقة التي يمنحني قبل أن يعيد الفعل مرة اخرى.

يفلتُ ثم يسحب، يفلت ثم يسحب ...

تكرر الأمر لأربع مرات متتالية، وفي كل مرة كنت أقترب خطوة من الموت اختناقاً، في كل مرة كان يختبر قدرتي على التحمل والصبر، وفي كل مرة كنت أزداد إصراراً على الصمت.

حتماً لمْ أكن أُقدر تبعات ذلك الصمت، كنت بدوري أراهن على إرْهَاقهم، فتماديتُ في حماقتي وصمتي ومكابرتي.

لست أنا الذي يتكلم ويفشي أسرار الرفاق، منذ أول احتكاك مع الموت، لست أنا من يعطي معلومات بمقابل. حتى وإن كان مقابل هذه المعلومات الحفاظ على حياتي، صرتُ أدرك حينها أن خيار الحرية لمْ يعد مطروحاً في هذه الظروف، إمَّا الإعتراف أو الموت. الإعتراف أو الموت و لا شيء آخر.

كان السؤال الأول بعد سلسلة الاختناق والتنفس، والإفلات والسحب، سؤالاً بسيطاً يخفي خلفه مكر محقق من الإستعلامات العامة، يحاول عبثاً استدراجي إلى اعتراف أحمق بطريقة غبية ومضحكة.

- متى انتميت إلى منظمة إلى الأمام؟

فهو لما سألني هل أنتمي للمنظمة؟ استنتجت انطلاقاً من سؤاله أنه يعرف قطعاً، أنني أنتمي ويعرف أيضاً تاريخ الإنضمام إليها، كان سؤاله مدخلاً لأسئلة أكثر أهمية وأكثر خطورة جاءت في بالي لحظتها، ومن المفترض أن يطرحها علي، إذا كان جوابي كالذي ينتظره ويشتهيه.

لكن حاولتُ قدر المستطاع الإستمرار في نفي كل التهم وإبعاد نفسي عن المنظمة لأكبر مسافة آمان ممكنة، حتى أمنح الرفاق في الخارج فرصة لإعادة بناء الهياكل والخلايا كي لا نفقد المزيد من المناضلين ونضعف.

- ربما تقصد هل أنتمي للمنظمة، وإذا كان هذا سؤالك المقصود، فجوابي هو "لا" .. لا أنتمي لها.

إستشاط غضباً من كلامي، وقد احمرّ احمراراً رهيباً على حين فجأة وقلص يده اليمنى تقليصاً قوياً، ثم مسح العرق من على جبينه بمنديل كان يحتفظ به في جيب سرواله، وقد إبتلع بعض غضبه، وهو يقول بنبرة تهديد هادئة وهو واثق تماماً من كلامه.

- لا تناور أكثر وإلا قتلتك

ثم أضاف وهو مُنْحَنٍ عَلَيَّ، وممسكاً شعري بين أصابعه بقوة:

- استرح قليلاً قبل الجولة الثانية

أعلم تماماً حجم بؤس هذه اللحظة، لكن ثمة شيء ما يدفعني إلى خوض غمار التجربة، تجربة الوقوف الأخير، والعنفوان الأخير، تجربة التصدي لحالة العبث اليومي والنفاق المعمم الذي يغطي كل جزء من تراب هذه الأرض المكدسة بالمستحيلات، على الأقل مادام هناك شيء يستحق التضحية والتجربة.

يحدث في الوقت الذي ينتظر الجميع سقوطك المدوي من أعلى نقطة، إخترت أنت الوقوف في تلك النقطة العالية جداً عن قناعة لا مرغماً، وتواصل طريقك الأطول حتى نهايتها، فقط لأنك لمْ تحسن التصرف في لحظة ما، وشعورك بندم على ما فعلت وعلى ما لمْ تفعل، على المرايا التي لمْ تكسر لحظة غضبك وعلى الأخرى التي إنكسرت دون أن تشعر بها.

يحدث أن تكون أنت في قمة زهوك وبهجتك، فقط لأنك لمْ تخن قناعاتك، ولمْ تخلف وعداً قطعته على نفسك، لأنك تدرك قساوة الوعود التي لمْ تتحقق، والوعود التي ساقتك مغمض العينين والقلب إلى التهلكة.

يحدث في الوقت الذي يشتهي الكلُّ بُكَاءَكَ، ترقص أنت وتضحك ملء ثغرك، لأنه ليس من حقك أن تبكي، ولأنك في المقدمة، لأنك عودت دمعك على الصبر والصمت والمكابرة.

دوماً شيء ما فينا يقودنا حيث لا نريد، ربما هو القدر الذي أُلصقَ بظهرنا حد الموت،

يا الله، متى تنتهي هذه الحكاية التي تَذْبَح كل يوم رجلاً من شرفاء هذا الوطن؟ نحن لا نهرب من أقدارنا بل نتوجه صوبها بكل عنفوان.

يا للجنون ...

انكسار عميق أصابني، ثمة شيء ما تحطم كلياً، حتى صار كشظايا مزهرية، ودفعة واحدة أعادني هذا المشهد الترجيدي إلى مهاوي نفسي. كم هي كبيرة هذه الرهانات الخاسرة؟ وكم نحن صغار صغار جداً؟

في الحقيقة أصبح الجميع يعرف أن زمن الموت المفاجئ والاعتقالات القسرية والزنازن السرية والعلنية قد حان، وأنه قد لا يتوقف أبدا وأن القادم أكثر بشاعة من الماضي والحاضر.

على غير العادة غطى صمت مخيف المكان، بقيت وحيداً في غرفة التعذيب، توقف الضرب والصراخ، والشتائم والبكاء الذي كان يأتي من بعيد، فلم أكن الشخص الوحيد المعلق بين الصمت والكلام، بين الموت والإعتراف، كانت هناك أصوات كثيرة تتسرب من تحت الباب كالأنين، أصوات معتقلين نساءً ورجالاً. كان كل ذنبهم أنهم حاولوا فك الأقفال والأغلال المغلقة عليهم.

كما المتفرج على لوحة فنية مرسومة بخيوط الذاكرة، تسرقني التفاصيل الغريبة من نفسي وتضعني وجهاً لوجه مع ذكريات الطفولة

البشعة، العالقة في ذهني، أتذكر الصور القليلة المتبقية، أتذكرها بحزن.

* * *

لا حركة في البيت لا دفء، فقط صوت دعسة أقدام أبي على الحصير كانت تقطع سكون المكان من حين لآخر، أو صوت الرياح المنسابة من شقوق الشباك الخشبي المطل على شارع الحرية. البيت كان يعني لي المعتقل والسجن والمرض، وإكتئاب سكنني مبكراً، حتى الجدران كانت باردة وقاسية، كنتُ أحس البيت ضيقاً لا يتحمل حماقات الطفولة وشغبها الجميل، لمْ يكن يسمح لي باللعب والجري وإفتعال الأخطاء كباقي الأطفال في سني، لمْ أكن يوماً طفلاً في عمر الورد، ولمْ يكن لدي إخوة، كنتُ وحيداً. لا أذكر أنني فعلتُ شيئاً آخر في صغري سوى مراقبة أبي وتأمل خطواته المتعثرة وهو في حالة سكر طافح.

كنت أحاول تقليد مشيته أحياناً، وطريقة نطقه للكلمات وهو يسب ويشتم المارة دون سبب، وأحياناً أخرى كنت أحمل زجاجات الخمر الفارغة والوقوف أمام صورة جدي، كما يفعل هو دائماً، كلما إجتاحته نوبة بكاء وحنين مفاجئين، عَلَقَ كل هزائمه في الحياة على أَبيه الذي طرده من تحت جناحه في السادسة عشر من عمره، بعد أن أكتشف حقيقة إدمانه على القمار والمخدرات.

وكان كلما إشتد بكاؤه جلس على جانب السرير محتضناً رأسه بين ذراعيه كمن يبحث عن سند ضائع، إلى أن يتمكن منه النعاس على تلك الوضعية، فيغرق في نومه ودموعه غير مبال بما يحصل حوله.

تارة كانت تتملكه نوبة غضب، فينقلب ضعفه وهشاشته إلى هيجان كثور يرفس كل شيء في طريقه، يكسر الصحون والمرايا وزجاج الطاولة، يرمي بأغراض البيت من النافذة، يمزق ثيابه أو يحرقها في مغطس الحمام، يَلْعَنُ قدرهُ ومن قدِم به إلى هذه الدنيا، ومن سبب له كل هذه التعاسة.

في تلك السنة كان قد فُصل من عمله في الجيش بعد أن توالت الشكايات ضده من زملائه في فرقة المشاة، وتكرر غيابُه غيرُ المبرر، وازدادت أخطاؤه الفادحة، التي طالما أدخلته السجن العسكري لأسابيع، فلم يدرك أنه سيطرد من عمله دون تعويض، فقرر أن يتظاهر بالمرض النفسي، حتى يحصل على معاش نسبي يستمر معه طول حياته، لكن ذلك لمْ ينفع، ثم الزج به في السجن لمدة ثلاثة أشهر، وبعدها وجد نفسه دون عمل، متنقلاً بين الحانات البائسة المنتشرة بكثرة في حي اليهود والمدينة القديمة، حتى أصدقاء الكأس والليالي الملاح تخلوا عنه، لمْ يعد قادراً على تسديد ثمن سكره وسهره. أفلس خلال سنة أو أقل، وزع تعويض سنوات عمله كجندي على الأمسيات الحمراء التي لا تنتهي.

وهكذا أصبح على خلاف دائم مع أمي، كل يوم سجال وضرب وتهديد، كل يوم كانت الحياة تضيق أكثر وأكثر، حتى باتت لا تُستحمل، كل يوم كانت ملامح أمي تفقد ألوانها وشبابها، مما إضطرها للخروج إلى العمل، وتركهُ في البيت يجر خيباته خلفه، وينتحر مع كل كأس ومع كل رشفة.

كانت تقضي النهار كله، في العمل كخادمة بيت عند أحد السياسيين الكبار في المدينة، أما أنا فكنت أنزوي في ركن قصي من البيت، أرتقب في وجم تام عودتها كل مساء، وفي تلك الساعة التي أرجع فيها من المدرسة قبلها، تكون أبشع اللحظات التي أختلي بها مع أبي رغم أنه كان يمضي معظم بعد العصر نائماً، إلا أنني كنت أعيش في روع متواتر، لمْ أشعر يوماً بطمأنينة معه، كان عنيفاً وقاساً جدّاً، لا يفوت فرصة إلا وأهانني بكل المفردات التي تسحق الخاطر وتدمي الفؤاد حد الموت.

كان يضربني أيضاً، يصفع، يركل، يرفس، وحينما تتعب يده ورجله من شدة الضرب كان يعض كالكلب المسعور، حتى يخلف أثر الأسنان منحوتاً على جسدي.

كنت أتساءل على الدوام لماذا لا يتدخل الله في علاقتي مع أبي، ويضع حداً لما يقع؟ أكان لابد أن أخبره بصوت مسموع لكي يصل إليه؟ حتماً كان يبغي أن أصهل في وجه السماء لا أن أغرد من على وسادة نومي.

مأساتي الكبيرة تلك جعلتني أيقن أن الله لا يهتم لنا، وسرعان ما صرفت النظر عن طلب المساعدة منه، وأخذت قراراً بأن أنهي حياته، حتى لا أخسر حياتي، لمْ يعد في مقدوري مواصلة كتمان وجعي بين أضلعي الصغيرة.

كنتُ في العاشرة من عمري، يوم تَحَيَنْتُ فرصة تسلل عشيقته من البيت، تلك المرأة التي تزوره كل يوم خميس بعد الظهر مباشرة، وتبقى بصحبته ساعتيْن أو ثلاث.

بعد مغادرة عشيقته القبيحة يأخذ حماماً سريعاً، ثم يخفي بقايا عشيقته، يرتب غرفة النوم، ينظف الحمام والمطبخ، يفتح جميع النوافذ، يرش بعضاً من رذاذ المسك فوق الفراش وعلى الستائر والأبواب والجدران، خوفاً من أن تشم أمي رائحة امرأة أخرى على سريرها وفوق مخدة نومها.

لكن ما كان يجهله وهو يطمس أمارة غدره، أن أمي كانت تربط رائحة المسك بالخيانة، لكنها لا تقوى على مواجهته بما ينقل إليها من كلام وقصص طالما تهامست به نساء الحي، عن علاقاته المتعددة، أو بما يستشعر قلبها الذي يصارع الوقت اللئيم وَهَمُهَا الوحيد أن لا أكبر بعيداً عن الأب.

كانت تخشى تربيتي وحدها، وأن تخوض تحديات العمر وحدها، وأن تجدّف بيد واحدة بلا ظهر تسند إليه ضعفها، كل يوم كانت تدفن

القهر في صدرها وتنام محتضنة صمتها وحزنها وخوفها الكبير الذي يمزق قلبها ببطء.

متنقلاً على رؤوس أصابعي، وأن أقطع المسافة بين غرفتي وغرفة أبي، أتلمس خطوتي وكلي ارتعاب من أن أرتطم بشيء ما فأوقظه، وتفشل محاولتي الأولى في التخلص منه إلى الأبد، أقف عند الباب للحظات، أفكر في التراجع عما أطمح إليه، لكن ثمة حقداً غائراً كالجرح في دواخلي يحثني على قتله، أنزل على مهل، أضع عيني على ثقب القفل أتفحص المكان بهدوء وتَأَنٍّ ورهبة.

لمحته مضطجعاً على بطنه، كانت الغرفة مظلمة قليلاً، إستنشقت الكثير من الهواء، حبسته في صدري، وأدرت المقبض مغمض العينين.

فُتح الباب مع صوت أزيز خفيض، تسللت إلى الداخل كالقط دون أن أصدر أي صوت، دنوت منه، مددت أصابعي ببطء شديد، بطء جعلني أشعر بالشلل والعجز، وغدت كل حواسي على رؤوس أصابعي، أحسست بحرارة أنفاسه تتصاعد إلى مسامعي، قلت في قرارة روحي إنها آخر أنفاسه، آخر جرعة من الحياة، آخر الثواني له على هذا الفراش الذي لوثه بجنونه ومرضه، لمْ تكن تعنيني العواقب، بقدر ما كان يعنيني أن أخلص أمي من شره وجبروته.

كنت أخال أنه وراء كل مآسي العالم، وسبب كل الدموع التي ذرفت أمي منذ ولادتها إلى تلك اللحظة، كنت أمقته ولا شيء غير ذلك.

أمسكتُ سكيناً، كنت قد جلبتها من المطبخ بين قبضة يدي، رفعتها إلى الأعلى وأنا أحدد مكان الطعنة التي إخترت لها الجانب الأيسر موضع الكلية، أغمضتُ عيني بعد أن تأكدت من الجزء المرغوب تمزيقه، أضحى الأمر مسألة تركيز لا أكثر بدأت أعد حتى العشرة،

السكين مرفوعة فوق جسده، قلبي يخفق بقوة ويدي ترتعش كأوراق الشجر الميت.

وأخيراً سأتحرر من قيد كبل طفولتي، وأحلامي الصغيرة، لم أكن أحلم بأكثر من حَيّزٍ لِلّعِبِ والمزاح والضحك، ولفرط قسوته حولني في سن باكرة إلى مجرم، يخطط ويحسب، ويرسم تفاصيل جريمة أكبر منه.

لبعد المسافة التي كانت بيننا لمْ أنتبه قَطُّ إلى أنه أبي، أحمل اِسمه وبعض ملامحه وصفاته ولون عيونه الأزرق الفاتح، كل ما كان بيننا لا يتعدى ثلة أسئلة تهيم في دماغي لا جواب لها، أسئلة رمتني في ركن متناء عن العالم وعن نفسي، أسئلة تَغَلْغَلَتْ عميقاً في وجداني، حتى دمرتْ كياني، وشكلتْ منى طفلاً على مقاس التذمر والإستياء.

لا أدري هل سيأتي وقت أندم على ما أنوي فعله؟ هل سأكون حراً بعد موته؟

هل سأمسك العصافير الهاربة بعد رحيله؟ كيف ستكون الحياة بدونه؟ أكيد ستكون جميلة ...

هكذا أسعى إلى إقناع نفسي بلزوم قتله دون تحير أو خوف، لا وقت للإرتباك، شيء ما ينخرني من الداخل أكبر من فرضية الإمتناع عن غرز هذه السكين في ظهره لأكبر عدد ممكن من المرات، عداء كبير أكنه لهذا الرجل الذي وضعه القدر في طريقي أو لعله وضعني في طريقه، لا أستطيع أمام هذا البغض إلا أن أتلذذ بموته وأنتشي برحيله.

سأقتله بدم بارد، نعم سأقتله بدم بارد ..

طردتُ كل تلك الأسئلة من بالي، ورفعت يدي مرة أخرى فوق جانبه الأيسر، دون إهتزاز أو تلجلج بدأت العد من جديد، واحد .. اثنان .. ثلاثة ....

وفجأة سمعتُ صوت خطوات على الدرج، كان الصوت يقترب أكثر فأكثر من باب الشقة، داهمني سيل من القلق، فقلت في نفسي، ليس من عادة أمي أن تأتي في هذا الوقت، مايزال أمامها ساعتان من العمل.

حاولتُ عبثاً أن أغلق سمعي وأوجه كل حواسي بإتجاه ما أنا مقدم على القيام به، لكن دون جدوى كان صوت الخطوات قد توقف عند باب شقتنا تماماً، وحل محله صوت المفاتيح وهي تدير القفل، خرجتُ من الغرفة مسرعاً، مشيتُ بخفة صوب المطبخ، أرجعت السكين إلى مكانها، وتظاهرت بشرب كوب من الماء، فعلاً كان حلقي قد جف من هول الأحاسيس المتضاربة التي غمرتني في دقيقة

واحدة، لمْ أكن أعي أن قتل شخص صعب لهذه الدرجة، إكتشفت تواً أنني أضعف من أن أنهي حياة أبي بطعنة مباغتة، ربما أحتاج خطة بديلة.

دلفتْ أمي إلى البيت مرتبكة، وكأنها لا تراني على الإطْلاق قربها، تجولت في كل الفضاءات، الحمام، غرفة الجلوس، وغرفتي أيضاً، وكأنها تبحت عن شيء ما، لمْ تتفوه بكلمة، تبحث في كل الزوايا، عساها تعثر على شيء وحدها تعرف ماهيته، لكنها تعثرت برائحة المسك التي تغطي الأفرشة والجدران وحتى المناشف، جرتْ بحركات متلاحقة متسارعة نحو غرفة أبي وكأن ناراً تشب بها، كان الباب مفتوحاً كما تركته أنا قبل دقائق، شرعت في الصراخ كالمجنونة، والبكاء كامرأة على هامش الحياة، وهامش رجل تزوجته رغما عن أسرتها التى رفضت زواجها منه، وقاطعتها لسنوات طويلة، لأنها هربت معه وتركت العائلة تتخبط في ويلات العار وكلام الناس الذي ينخر العظام.

كانت تراهنُ على حب سرعان ما مات وإضمحل بعد السنوات الأولى من الزواج، وعلى رجل تغير ولمْ تعد تعرفه، فهو لمْ يعد يشبه نفسه حتى، كل البدايات الشاهقة قد تحطمت.

موجوعة كلماتها فيها شيء من العتاب، كانت تستفسره بحرقة عن سبب الخيانة، تنتظر منه كلمة تخمد النيران المتأججة بصدرها. أما هو فكان ساهياً في تعبير وجهها ودموعها التى تتساقط بغزارة المطر، مذعوراً من الموقف ككل، وفي غمرة إنهيارها أمامه صفعته

على وجهه، وحفرت أظافرها على خده وعنقه، لمْ أَرَهَا مِنْ قبْلُ مهزوزة هكذا، مهزومة؛ لا لأنها لم تحسن الاختيار بالمرة، بل لأن الزمن قادر على تبديل الأشخاص كما يبدل الملامح، ربما كان مناسباً لها في فترة ما، لكنه تغير هو وهي إستمرت على حالها منذ عرفته لمْ تتغير ولو قليلاً.

على الرغم من ذلك فقد تشبثت به، بعد أن تخلى عنها الجميع، فكيف سمح لنفسه بخذلانها وخيانتها؟ مر عليها عمر طويل من الصمت، اليوم فقط قررت أن تبوح، أن تفتح كوة صغيرة في جدار الكتمان الذي كان يكبر كل يوم بينهما، لِمَ اليوم؟ والآن؟ لِمَ لَمْ تُفْصِحُ عَنْ معرفتها بخيانته وعلاقاته النسائية المقرفة منذ علمت بها أول مرة، ربما كانت أَعْفَتْنِي مِنَ الشعور بالحقد اتجاهه، وجنبتني ثقل عداوة لا أقدر على حملها.

ليس من الضروري أن نخفي ما يوجعنا حتى نبدو للآخرين أقوياء، من حقنا أن نظهر ضعفنا ولو للحظة، من حقنا أن نعرف موضع الألم فينا، ونضع الأصبع عليه غير آبهين بما سيُحدثُ.

بعض الهزائم الصغيرة، التي تكبر كلما حاولنا طمرها، تكبر حتى تصير أقوى منا، فتسحقنا على غفلة من مكابرتنا وعلى مرأى ومسمع الجميع. قاتل هو الشعور بالندم، وخصوصاً حينما يكون عن شيء ذَهبْنا إليه بملء أشواقنا.

في عز اشتعالها وغيظها، كان هو راكد كبركة ماء، كل ما كان يفعل، النظر إليها بعيون جافة بكماء، عيون تقول أكثر من شيء بلغة الصمت، الصمت الذي زاد من حدة الوضع، بل وكأنه أضاف الزيت إلى النار بتجاهله لها ولشكواها ودموعها، خاب أملها فيه.

لمْ تكن تنتظر منه ردة فعل باردة، ربما كانت تتوقع منه طلب المغفرة، لمْ تكن تشتهي منه أكثر من كلمة " آسف " لكنها دقتْ القلب الخطأ والباب الخطأ في الوقت الخطأ، وبات لزاماً عليها أن تحمل ما تبقى من كرامتها وتكفكف دمعها وتطلب الطلاق، لكن هي اختارت طريقاً آخر، بعد أن نبأها بأنه لمْ يعد يحبها، ويعزم نية الزواج من عشيقته، جن جنونها، أيقظ فيها الجروح البعيدة، توغر صدرها للحظات لمْ تصدق ما سمعته، وكأنه تلفظ بلغة لا تفقهها بَتَاتاً.

في لحظة خاطفة تحولتْ من امرأة إلى اللا شيء، ثم عادت تتشكل من جديد على هيئة كائن محروق متفحم. أما هو تمادى في برودته غير آبه بحرائقها الداخلية، ولا بحجم الدمار الذي سيترك بعده، فقد كان آخر الرجال بحياتها، لأجله تنازلت عن حضن أهلها، وخاضت حرْباً ضروساً للبقاء معه. بذريعة الحب تخلت عن الكل وتبعته، وبذريعة الحب أيضاً سيتخلى عنها ويتبع امرأة أخرى.

لماذا لا نستطيع غفران الخيانة؟

لأنها لمْ تتقبل فكرة أن يكون لغيرها أو تشاركها امرأة أخرى فيه، قد تفضل الموت على أن تحيا على ضفاف ما كانت تخاله لوقت

طويل وطناً، وأرض الولادة والموت، لمْ تكن مستعدة لفقدان شيء في تلك الفترة، فقد توالت عليها أعوام من الفقد المتعاقب، خسرت أمها وأباها في حادثة سير قبل سنتين، ومنعت من حضور الجنازة لأنها على قطيعة دموية قاسية مع إخوتها الثلاثة.

الآن قد تحرق العالم إذا تجرأ أحد على سرقة شيئ منها، أو تحرق نفسها وتهرب من العالم الحقير، الذي جردها من كل شيء تحبه، كثيراً ما أحسست أنني خارج حساباتها العاطفية، لا أعرف إن كان إحساسي في محله أو كنت أتوهم لا أقل ولا أكثر.

بطعنة قوية من الخلف أنهت القصة، قصتها معه وبدأت قصتي أنا مع الحياة.

بنفس السكين وفي نفس الموضع بالضبط، أنهت حياته، لمْ تمنحه الوقت لارتكاب حماقته، لمْ تمنحه الوقت حتى لقول كلمته الأخيرة، تهاوى فور إن اخترقت السكين جسده ثلاثَ مَرّاتٍ متوالية، مزقت الجلد وسحقت الكلية سحقاً.

جرى كل ذلك في رمشة عين، لمْ أستوعب لحظتها ما وقع، تخشبتُ قرب الخزانة واقفاً دون حراك، هي أيضاً لمْ تكن تعي حينها ما حدث، جلستْ بمحادثه تتلمسُ الجرح الشاسع في خصره، كان الدم يفور كالنبع الساخن من جسده، عيناها مفتوحتان على اتساعهما، ويدها ترجف وتقطر دماً أَحْمَرَ، هو ممدد كالخشبة فاتحاً ذراعيه وساقيه، غارقاً في دمه.

انتهى كل شيء فجأة، اقتنعتْ بعد أن حركته وتحسست نبضه وأنفاسه أنه مات، ثم صاحت بكل ما تملك من جهد وحرقة، سمع الجيران العويل والبكاء الذي ملأ المكان، جاءت الشرطة بعد مرور نصف ساعة، وضعوا الجثة في كيس أبيض والأصفاد في يدي أمي، كنتُ ما أزال أنا تحت وقع الصدمة غير مصدق ما حدث فعلاً، انطفأ مصباح الغرفة، أُغلق الباب ورحل الجميع، انتهت القصة بكارثة، أخيراً مات أبي.

صِرْتُ يتيم الأبوين دفعة واحدة.

مات أبي مقتولاً بطعنة سكين، كانت أمي هي القاتلة، وكنت أنا الشاهد الوحيد على الجريمة.

لمْ أَبْكِ، لا أعلم لماذا؟ لكن لمْ أَبْكِ بِأَيَّةِ حال، لَمْ أحزن لموته، حتى ذلك الأسى البسيط لمْ أحسه. كان موته حدثاً عابراً، وشأناً عادياً لا يستحق مني دموع الفاجعة ولا يستدعي الحزن.

لا أدري بصدق لِمَ اجْتَاحَنِي الشعور بالارتياح كلما تذكرتُ أنه مات أخيراً، حقد كبير كان يعشعش في دمي اتجاهه، حقد أحبط كل محاولاتي للبكاء، حتى وإن كان قد رحل نهائياً، ولنْ أَرَهَ مرة أخرى، حتى هذه الجملة لم تشفع له بداخلي، فسدت عواطفي كلياً، ضميري تجمد وخشن وكبُرت فجأة.

لم تقهرني فكرة أنني اصبحتُ يتيماً، كنت على اعتياد تام بالعزلة والوحدة، حتى خبر الحكم بالسجن على أمي خمسة وعشرين

سنةً، لَمْ يحرك الدمع الراكد في عروقي، عيوني جفتْ من الماء وأصبح قلبي قاسياً كحجر الوديان، نعم قسوة على أمي لأنها لم تفكر بي حين كانت تلهث وراء الرجل الذي أحبته، ونسيتْ أن طفلاً صغيراً يحبها وكان على تأهب كي يفعل الكثير من أجلها.

أنانيتها أفرغتني من عصارة روحي وأنا طفل في العاشرة. أفرغتني من براءتي، أفرغتني من كل شيء، ولمْ يَتَبَقَّ سوى الوجع الدقيق ينهشني من حين لآخر دون رحمة.

رفض تربيتي كل أفراد العائلة، عمي، أخوالي، وجدي أيضاً رفضَ الأمر بحجة أنه لا يريد أن يري إبن المجرمة التي حرمته من ابنه، هكذا أخبرني قاضي الأسرة وهو يسلمني ورقة مختومة تمكنني من العيش في دار الأيتام ومتابعة دراستي، هو لا يعرف أن يتمي قديم قِدم سنواتي على هذه الحياة، عرفتُ اليتم باكراً قبل أن أحمل اللقب بشكل رسمي، كنتُ يتيم العطف والحب والحضن، كنت يتيم الدفء، دفء الأم وأمان الأب، كنتُ يتيماً من الداخل، فكيف أغفر لهما؟ كيف أسامحهما، بصراحة لا أعرف كيف؟

أوقدت النار في الذكريات التي جمعتْني بِهِمَا، حرقت صورهُمَا. وبعض الأشياء التي كانت معي تذكرني بِهِمَا، نسيت أمرهُمَا تماماً، حملتُ الرقم خمسة، اثنان، ثلاثة، هكذا كنت أحب نطقه، أو خمس مائة و ثلاثة وعشرون كما كان يناديني المُرَبُّون في الدار الكبيرة، طَرحتُ فكرة تغيير اِسمي مراراً على إدارة الميتم لكنها رَفَضَتْ، بسبب أنني أمتلك وثائق تعريف رسمية، لكنني لمْ أستسلم لرَفْضِهَا، بقيتُ مصراً

على الأمر وبشدة. حتى اخترتُ اسم ليناديني به الأصدقاء، " الثعلب "، كان هذا اِسمي الجديد، صرت أمتلك اسمين، أحد على الورق والآخر أُعرف به في الدار الكبيرة.

هكذا كنتُ أرغب في قطع أي صلة بالماضي، كنت أشتهي أن أولد من جديد، باسم جديد، وذاكرة جديدة، وأحلام جديدة، وقدر جديد، كنت أطمح إلى امتلاك نظرة أكثر اتساعاً للحياة، وأعانق عمري وأنسى جرح البدايات المضطربة. واصبح مثل الثعلب، ماكر.

كنتُ على الدوام بعيداً عن أقراني، كانت بيننا مسافة مرح وبحر من الأسئلة. لا أشبههم في شيء، كنتُ الاستثناء القبيح، عالمي كان بارداً ومظلماً كقبو.

في الأسابيع الأولى من تواجدي بالدار الكبيرة، كنتُ أجد صعوبة في اقتحام عالمهم البسيط و السهل، كنت أتوهم أنني أكبرهم بعشرين سنة، وعالم الأطفال ليس لي، أو بشكل أدق ليس من حقي، أنا الذي كبُرت في غفلة من الحياة، تَنَبَّهْتُ بعد وقت مديد أنني مازال في سنتي العاشرة، واحتجت وقتاً طويلاً حتى أتخلص من بعض الكآبة التي عاشرتني لفترة شاهقة، عزمتُ على أن أعود إلى طفولتي المسروقة، إلى اللعب والشغب والاستمتاع بكل لحظة وسط الأطفال، الَّذِينَ كانت تجمعني بهم عقدة اليتم والتخلي، منهم من كان لا يعرف أبويه، وقد تخلوا عنه لسبب ما، ومنهم من وجد نفسه داخل الدار بلا ذاكرة و بلا اِسم، ومنهم من اختار الدار هرباً من بطش أبوين حقيرين، كل واحد

له قصة مختلفة عن الآخر، الشيء الوحيد المشترك هو أننا نحمل نفس النعت "أولاد الخيرية".

لا تفارقني تفاصيل ذلك اليوم الشتوي البارد، كان يصادفُ يوم الاثنين من شهر تشرين الثاني 1963، كان أول يوم مدرسي لي بالدار الكبيرة، مع تلاميذ الصف الرابع ابتدائي، كنا سبعة ذكور وثمانية إناث، بطبيعة الحال لمْ أكن أعرفهم لأني التحقتُ متأخراً عن بداية الموسم الدراسي، ولمْ يكن يعنيني بشكل كبير أسماؤهم، وحتى عددهم عرفته لفرط تكراره أمامي، حتى اِسم المربي الذي كان يدرسنا الرياضيات والفرنسية، حفظت اِسمه بعد مدة طويلة. لمْ يكن يعنيني أحد منهم سوى فتاة واحدة كانت هادئة، خجولة. أو لربما أنا فقط من أحسستها كذلك.

كانت مختلفة عنهم، ارتياح ما جذبني إليها، إلى محاولة الاقتراب منها وبناء صداقة معها، كان فيها شيء ما أعرفه، شيء ما يجمعنا، كنت بحاجة إلى أن أجلس بجوراها على الطاولة، لمْ أفوت فرصة التعرف إليها منذ أول مرة لمحتها تجلس في آخر الصف منفردة كطير مهاجر، نجمة الصبية التي غيرت تاريخي وكانت وراء ارتباطي بالمكان وبالحياة.

كانت يتيمة مثلي لكن ليس بنفس الحدة، فهي لمْ يسبق أن رأت عيناها أحداً من أبويها، فقد تخلتْ عنها أمها في المستشفى بعد ولادتها مباشرة، تربت في دار الأيتام منذ اليوم الأول الذي لامس الضوء

جسدها، لمْ يسبق لها أن نطقت يوماً كلمة أمي .. أبي، عمي، خالي. لمْ تكن هذه المفردات داخل قاموسها اللغوي.

عمر علاقتي بها ثلاثة عشر سنة وستة أشهر إلى حدود تلك اللحظة التي اعتقلنا فيها معاً، علاقتنا تطورت يوماً بعد آخر، ساعة بعد أخرى. أحببتها وكبُر الحب بيننا ومعنا. كانتْ الأم التي طالما اشتهيتُ، وكنتُ كل العالم في عينيها، استمرت العلاقة بيننا طيلة فترة عيشنا في الدار الكبيرة، درسنا في نفس الثانوية وفي نفس القسم، التحقنا بالحركة التلاميذية معاً، ودخلنا الجامعة جنباً إلى جنب، انتسبنا إلى منظمة إلى الأمام قبل ثلاثِ سنواتٍ، وانخرطنا في النضال بشكل متحمس، كنا على وعد بالزواج بعد أن ننهي دراستنا الجامعية.

خَذَلَنَا يَقِيننَا بأن الوطن سيتغير، وخَذَلْنَا أَنْفُسَنَا، لمْ نكن نُدرك حينها أن الوطن يعيش حالة حزن جماعي.

نجمة، المرأة التي يتوقفُ عندها كل شيء، رغباتي، هفواتي، حماقاتي، يقينياتي، أعود في حضنها إلى طفولتي، فكيف أقاوم دفء حب بدأ بشراسة اليتم والفقدان؟ امرأة أيقظتْ في روحي كل الأحاسيس الجميلة، أذاقتني حلاوة التورط لحظة انهار بادخ، أغرقتني حد الانتشاء في صدرها. كان جسدها وطني الجميل، نسيتُ عقدة يتمي معها، ونسيتُ نفسي، ونسيتُ العالم.

انفصلتُ عن الواقع وضيعتها وسط زخم الشعارات والمنشورات، والنضالات الخاسرة. أقحمتها في شيء لمْ تكن لتقوم به لو لا حبها

الكبير لي، لمْ تكن تعنيها الأوضاع السياسية الساخنة التي تعيشها البلاد بشكل كبير، كنت أعنيها أنا فقط، ورطتها في قضية أكبر منها، أدخلتها المسالك الأكثر حزناً وخسارة.

ها هي اليوم معتقلة بتهم كبيرة، قد تأخذها إلى حبل المشنقة، أو ترمى بها في ظلمات المعتقل لما تبقى من عمرها، لقد انتهى كل شيء، وأنا السبب. دوماً ما كانت تُنَبِهُنِي إلى مدى حماقة ما نقوم به، بملامح هادئة مبتسمة لكن داخلها كان معذباً، ومهزوزاً، وخائفاً.

أَتَسَاءَلُ الآن، لماذا لمْ أبعدها عن شيء كنتُ أعرف نهايته البائسة، وأدرك تماماً صعوبة المضي فيه؟ إنني أخطأت في حقها حينما حاولتُ عبثاً، أن أصنع منها امرأة على مقاسي، أجرمتُ في حق المرأة الوحيدة التي أحبتني بصدق، تواطأت مع الحياة القاسية ضدها، لأنني كنتُ غارقاً في فائض الوطنية.

نناضل لأجل من؟ طالما طرحتْ هذا السؤال على مسامعي كلما تربص بنا الجلاد، وحام فوق رؤوسنا سرب من الصقور الجارحة، كلما اختُطِفَ أحد من رفاقنا أو قتل، كانتْ تردد ذلك السؤال دون ملل، لكنني لمْ أكن أملك له إجابة كبيرة بمقاسه.

ها هي اليوم تُعذب، وتُستنطق عن ذنب لمْ تقترفه، غارقة في الأبجديات الغامضة، تدفع ثمن فكري الأبله وقضيتي الغريبة، لِمَ لَمْ أَتْرُكْ لها حرية اختيار قضيتها في الحياة؟ هل كان ضرورياً أن أَصُوغَ منها مناضلة الصفوف الأولى حتى أحبها أكثر؟ لِمَ لَمْ أَكْتَفِ بها مجرد

امرأة فقط؟ لِمَ تماديتُ في استسهال ما كنا نقوم به؟ ولِمَ واصلت هي الحياة معي وأنا على حافة الاعتقال أو القتل في أي لحظة؟ لِمَ لَمْ تَكبح رغبتي اللعينة منذ البداية؟ قبل أن يسرقني الوطن المتخيل والمشتهى، كل ما كانتْ تفعله هو محاولة إقناعي بالهجرة إلى أروبا لمواصلة الدراسة هناك، كي تجنبني ضريبة النضال وتبعدني عن المستنقع، كي نجد حيزاً للحب والحرية والحياة، كي لا نفقد بعضاً. لكنني ركبت العناد، وتجاهلت تَنْبِيهَهَا المتواصل، ومشيتُ نحو الهلاك وأنا أسحبها خلفي، حافية القدمين إلى الخراب، لا لشيء فقط لأنها احبتني، فقط لأني احببتها، فقط لأننا لا نملك غير بعضنا.

يا الله، أي حب هذا الذي يجرنا إلى الجحيم؟

عاجز عن فعل شيء، عاجز تماماً، لا أقوى على تحريك أصابعي حتى، لا أقوى على التفكير بشكل سوي، الأحداث والخيوط والأصوات تتداخل في دماغي، وتتقاطع الوجوه مع بعضها البعض في منأى عن مرايا الذاكرة، التي تزداد وضوحاً وصفاء، كلما اشتعل القلب بالأسئلة المقلقة والمستعصية، فلمْ يصبح في وسعي أن أغير شيئاً مما سيحدث، تأخر الوقت كثيراً، كان يجب أن أستفيق من الوهم المنساب في يقظتي ونومي، وأدرك أن ما كنتُ أهتف به من شعارات رنانة وأناشيد ثورية، كان فقط كلاماً صغيراً وسخيفاً للغاية، لا يصلح لاقتلاع نظام فاسد من جذوره، نظام يتقوى من خوفنا المتوارث، نظام ربى فينا تقديس الكراسي والأوسمة، والتغني بتاريخنا المزور وبطولاتنا الوهمية، ها هنا

نحن الآن في أقبية ذلك النظام السفاح، ننتظر حتفنا القادم بروح تالفة.

يا للغباء.. كيف جعلناهم علينا ملوكاً وسلاطين وطغاة؟

عاد إلي المحقق، ومعه محول كهربائي صغير بحجم الكف، يتدلى منه سلكان من النحاس الأصفر، وفي طرف كل سلك ملقط معدني، أوصل المحول بالتيار الكهربائي،ثم جاء إثنان من مساعديه بكرسيٍّ خشبي كبير ذي جوانب وبه الكثير من الأحزمة الجلدية التي تصلح لربط وتثبيت الجسم عليه، قام أحدهم بفك الحبل المربوط بقدمي بعد أن أبعد برجله اليسرى سطل الماء من تحتي.

سقطتُ على الأرض بكل ثقلي، جسدي لمْ يعد يطاوعني، انهارت قواي وأنا معلق لأكثر من ساعة رأساً على عقب، أحسستُ برغبة في التقيئ، صعد المرار إلى فمي، وحجبت غشاوة طفت على بصري الرؤية قليلاً، عجزتُ عن تحريك يدي باتجاه عيني كي أزيح الضباب الذي نزل فجأة أمامي، كل عضلات جسمي كانت مرتخية ومنهكة، من مكاني كنتُ ألمح أحذيتهم الخشنة وهي تتحرك في المكان. كانوا منشغلين في تجهيز الكرسي الخشبي لاستقبالي فيه، كرسي وجد خصيصاً للأشخاص الذين يزعجون السلطة، إنه الكرسي الوحيد الذي لا زحام عليه في هذا الوطن الذي يشيع قتلاه كل يوم سراً.

اقترب مني المحقق قليلاً، ثم تسمر لوهلة بجانبي وهو يشعل سجارته قائلاً بسخرية مفضوحة :

- أربعون فولت من التيار الكهربائي لا تقتل، فَلاَ تَخَفْ.

ازدردت ريقي دون أن أقول شيئاً، حاولتُ أن أضمر الخوف بصدري، وقد سرتْ في قلبي رعشة مكهربة، زممت فمي بشدة حتى لا تفضحني الكلمات المتلعثمة، لمْ أكن خائفاً لكن ثمة شيء ما لمْ أحسب له حساباً، طفا على السطح، وقفز إلى الذاكرة، شيء أكبر من أن أمارس الصمت أمامه، شيء عصي على الادراك.

وضعوني على الكرسي مكبل اليدين والساقين وعيوني معصوبة، بقطعة من ثوب أسود اللون، فبالكاد فاتتني حالة الدوار التي كنتُ أحسها، حتى اجتاحتني ظلمة دامسة.

- متى انتسبت إلى المنظمة؟

باغتني سؤاله جاء من عمق السواد والخواء المحيط بي.

- لا انتسب إلى أحد غير هذا الوطن.

رد بنبرة مكفهرة :

- تتحداني. لَمْ يمر معتقل في درب مولاي الشريف إلا واعترف.

ثم أشعل المحول، لتخترق جسمي شحنة كهربائية، هزت كل أعضائي بقوة عنيفة، صرختُ حد الاختناق، ارتفعتْ حرارة رأسي، تعرق كامل جسدي، وعج طنين مرتفع في أذني. لمْ أكن أتوقع أن

التعذيب بالكهرباء مؤلم لهذا الحد، سمعتُ به كثيراً، لكن في تجريبه خبرة أخرى مختلفة عما يقال عنه.

بدأ التحقيق يأخد منحى جديداً، إما الاعتراف أو الموت، لا حل وسط بينهُمَا، الآن يمكن أن أقول إنَّ اللعبة صارتْ خطرة جداً، فليكن ما دام لا أحد ينتظر خروجي من هذا الجحيم، سأُواصِلُ الصمت حتى أجد شيئاً يستحق مني الكلام والاعتراف، حفاظاً على روحي. الشخص الوحيد الذي يهمني أمره، معتقل هو أيضاً، يقاسمني نفس القدر.

وبينما أنا غارق في الألم والتفكير، كرر المحقق سؤاله لكن بصيغة أخرى:

- نفترض أنكَ لا تنتسب لأحد، ولا لأي جهة، ولكن ألا تعرف أشخاصاً من المنظمة، ألا تربطك أي علاقة بهم؟ أريد أسماء، عناوين، معلومات عنهم. وسأضمن لك الخروج من هنا. قل شيئاً.

صمت للحظة ثم واصل :

- الصمت لن ينفعك.

بالفعل كما توقعت، ها هو الآن يحاول أن يسلك معي طريقاً آخر، من أجل أخذ معلومات تخص التنظيم، بأسلوب أقل حدة ظناً منه أنني أرتدي الصمت حتى أجنب نفسي ثقل التهم. يحاول أن يستدرجني إلى منطقته. أدركتُ حينها أنه بدأ يبتلع الطعم، وأن اللعبة

ستنقلب لصالحي. فقد أربكت بشكل من الأشكال المعادلة التي تعتمد مع المعتقلين السياسيّين.

التعذيب يعطي في النهاية اعترافات وأسماء وأسرار حتى ولو لمْ تكن حقيقية. وبعد أن جعلته يفقد الأمل في أن أبوح له بما يشتهي تحت سطوة العنف، والتخويف. صار لابد من أن أواصل الصمت، وأدفعه إلى تجريب شيء أكثر وحشية من شحنة كهربائية، حتى يتأكد بما لا شك فيه أنني مُسْتَغْنٍ عنْ روُحي وجسدي، لمْ يَتَبَقَّ الكثير أمامي حتى أصل إلى مبتغاي، يكفي أن يقاوم جسدي قليلاً، وتسعفني تلك الفكرة المجنونة التي خطرت على بالي وأنا معلق بين السماء والأرض. بعض الأفكار الغريبة لا تأتي إلا لحظة نرفع أقدامنا عن الأرض. هو لا يرُيدني ميتاً، هو يريدني حياً، لأنني بداية الطريق إلى كبار المخططين في منظمة إلى الأمام، وموتي لن يفيده في شيء، حتى صمتي المتواصل ليس في صالح التحقيق. المطلوب مني أسماء الرفاق وعنواينهم، وليس الاعتراف بالتُهم الكبيرة الموجهة لي، لأنه سواء اعترفت بها أم لمْ أعترف فهي لصيقة بي كالوشم.

إن النظام الفاشي يريد الاطاحة بأكبر عدد ممكن من المنتسبين إلى المنظمة، وخصوصاً الأسماء الكبرى، وأغلب الظن أن معلوماتهم الاستخباراتية تقول إن تلك الأسماء معي، صرتُ مقتنعاً تماماً أنني حققتُ نسبة مهمة من الخطة، وتبعدني خطوة واحدة عن التحرك من مربع الاعتراف أو الموت إلى مربع المساومة وبالشروط التي ترضيني. بات الأمر أقرب مما كنتُ أظن،

كان يمكن أن أساوم قبل أن أتعرض للتعذيب على يد هؤلاء القتلة؛ إلا أنني فضلتُ أن أبتلع لساني حتى يحين الوقت، الذي يلجأ فيه الجلاد إلى منحي عُروضاً مُغْرِيةً، حتى أمنحه معلومة كبيرة، وحتى يؤمن في عمقه أن التعذيب لا يجدي معي، لحظتها فقط أستطيع أن ألعب بأوراق مكشوفة، دون تخوف أو حرج، مطلبي كبير وأيضاً الأسماء التي أعرف كبيرة.

بعد صمت طويل، أرد بشيء من السخرية، بنية استفزازه :

- بربك هل تتوقع أن أعطيك معلومات وأسماء بِهَذِهِ البساطة، التعذيب الكهربائي لن ينفع جَرِّبْ شَيْئاً آخر أيها المحقق.

ما إن أنهيت كلامي، حتى قرر أن يفرغ غيظه بي، رفع من شدة التوتر الكهرباء إلى الضعف، وقد وضع الملاقط المعدنية على عضوي الذكري، تفاقم خوفي بوتيرة متسارعة، كاد الهلعُ غَيْرُ المعلن أن يشل حركتي.

يا للحماقة.. كيف لم يخطر ببالي شيء كهذا؟

في الواقع ارتباكي كان وراءه شيء سخيف، لا يرقى إلى مستوى القضية التي أنا بسببها هنا، ولا حتى لمستوى ما أفكر بفعله، خِفْتُ أن أخرج من هذا القبو العفن بعاهة مستديمة، بنقص ذكورة، أنا الذي كنتُ أحلم ببيت وأبناء يحملون اِسمي وبعض ملامحي، ها أنا على بُعد ضغطة زر من الخسارة الأولى. وعلى بعد كلمة مني قد تنهي كل شيء، فهل يعقل أن تنتهي المواجهة عند هذه النقطة، بعد ما راهنت على

الصبر الذي ربتني عليه الحياة. فمن الجبن والعار أن استسلم بهذه الكيفية.

تسللت ضحكة مدوية من أعماقي، في تلك اللحظة ذاتها التي فَطِنْتُ فيها إلى أننا نعيش زمن الخنوع، صار الخيار بين يدي كما قال، وهبني بسخاء وافر بضع دقائق للتفكير. تَرَاءَى لي وَجْهُ نجمة المتعب، منغمساً في وجعه وحزنه، ما عدت أدري أي الوجوه أتبع، ولا في أي الأماكن أقف، ولا لأي فئة أنتمي، على مدى عمر من النضال، لمْ أُفْشِ يوماً سر الرفاق. ولم أخن الوعد ولا العهد، ولمْ أبع القضية،

ثمة أشياء لفرط ندرتها، تستحق أن تَخْسَرَ لك شيئاً لأجل الظفر بها، بهذه العبارة الهاربة، حسمتُ النقاش مع هواجسي، ما جدوى ذكورة مكتملة أمام رجولة ناقصة وعزة مشوهة. مجرد صعقة كهربائية خفيفة لا تستحق مني كل هذا التفكير والخوف.

قلت له ضاحكاً بنبرة استهزاء :

- احذر أن تصعق نفسك.

هذه المرة لمْ يمنحني الوقت حتى أنهي جملتي، وكأنه كان يتوقع مني رداً كهذا. مرت الصعقة سريعاً، لكنها كانت أقوى من سابقتها، كان الوجع أكبر بكثير من أن أتجاوزه بصرخة مكتومة، لمْ يتحمل جسمي قوة الكهرباء الذي انتقل فيه من عضو لآخر.

شعرتُ بدم يقطر من أنفي ساخناً، وتبولتُ لا شعورياً، واغرورقت عيناي بالدمع المالح، وقد أصابني اعوجاج مؤقت في الفك السفلي واليدين، وارتجاف هز مكامن نبضي، ولا أعرف حقيقة من أين جاءني الإحساس بالجوع والعطش، اضطربت كل وظائف جسدي.

رغم الألم الذي أرهق كل مفاصل جسمي، كنت ما أزال على إصراري المجنون، تحديت ضعفي برباطة جأش، وبنبرة تتقطعها آهات المقاومة قلت :

-لمْ يَتَبَقَّ أمامَكَ إلا تجريب المقصلة عساها تنفع

رد بإيجاز :

- قبل المقصلة يوجد المقص.

- فلتبتر ما تشاء، لن أتكلم.

صَمَتْتُ قليلاً، ثم رفعتُ رأسي نحو السقف مباشرة وقلت:

- أو جرب الرصاص هو أسرع في القتل.

- لا نُرِيدُكَ ميتاً

إحساس ما داهمني ساعتها، استنتجت من رده الخاطف، أن حياتي مهمة لهم وفرضية أن أقتل في هذا الوقت بالضبط غيرُ وارِدَةٍ تماماً في حساباتهم.

" لا نريدك ميتاً " واضح من كلامه أنني المعتقل الأكثر أهمية بالنسبة لهم حتى الآن، كبر تعلقي بالصمت حينها، بل وأصبح وسيلة نافعة لأحقق غايتي الأخيرة في هذه القضية.

فأنا لمْ يحدث يوماً أن تورطت في شيء قلب موازين حياتي، وحول قناعاتي من جهة إلى أخرى، لطالما كنتُ صاحب الكلمة القاطعة في كل المواقف الصعبة التى تعثرت بها سهواً، فهل أخون اليوم الفكرة التي عشت لسنوات أنادي بها وأدافع عنها، فقط لأن قدري تقاطع صدفة مع قدر إنسان آخر، وكلانا سيلقى نفس المصير إذا لمْ يُضَحِ أحدْنا، إذن من يضحي بعمره أولاً فداء للآخر، الأكثر حباً أم الأقل تعلقاً بالحياة؟ أكره أن أكون وراء تعاسة شخص دوماً كان وراء أفراحي الجميلة.

ككل القضايا الكبيرة التى تستنزف الجهد و العمر، ككل الأسماء الصغيرة التى اخترعوا لنا في غمرة حرب طويلة النفس، أيكون من واجبنا نحن الصغار أن نتصرف بحماقة لا متناهية، حتى نقهر المستحيل الساكن فينا، بعض المستحيلات يستسلم أمامها العقل، ولكن القلب يُصر على ملاحقتها بتهور.

فات الآن وقت التخاذل، لا مفر من موت بطيء ينتظرني على عتبات المحكمة، أو موت سريع فوق هذا الكرسي الخشبي، قدري صار محكوماً بمدى قدرتي على الصمت لأطول وقت ممكن، وفي جميع الحالات ستكون النهاية مُتَشَابهةً وللموت وجه واحد.

لقد أخطأت كثيراً في الفترة الأخيرة، خطواتي لمْ تكن محروسة ومضبوطة كما ينبغي، كنت أعرف أنني الاسم الأول في قائمة المغضوب عليهم، والمسؤول الأول عن الدائرة المحيطة بي من مناضلين، وبرغم ذلك اقترحت على الرفاق أن نلتقي في ساحة الجامعة، تجاهلتُ أوامر المنظمة بعدم التجمع في الأماكن المفتوحة والاكتفاء باللقاءات المسائية السرية، بعيداً عن عيون الجواسيس والقوادة وكلاب المخزن المنتشرة كالوباء في أحياء المدينة وأزقتها، لو لَمْ أفعل ذلك، لكان الأمر مغايراً الآن، على الأقل كنتُ سأَعْفِينِي من التخبط في رصد الاحتمالات الموشية بالفواجع والمآسي الزاحفة إلينا، وتفادي حالة الهذيان الذي لا يتوقف أبداً،

في هذا الوطن الذي يرصد حركاتنا ويتربص بأفراحنا البسيطة، كان يجب أن أكون أكثر يقظة وحذراً، كي لا أسقط في يد النظام الدكتاتوري الهمجي، وتسقط كل مبادئي وأحلامي في قبضة القتلة.

يبدو أن هذا الدمار الذي سأخلفه بعدي، سيمحو كل سنوات نضالي ضد سياسة الملك، والجنرال، والضابط، والسجان، والقائد، والباشا، و ضد الأحزاب الانتهازية، ضد كل من سرق جيوبنا، وبيوتنا، وحقولنا، وبحارنا، سينسى كل شيء، وسيتحول اسمي إلى كومة عار تتبعني أينما ذهبت.

عندما نبلغ هذا الحد من الفوضى، نكون قد أشرفنا على النهاية، هذا حالنا الآن، تنظيمات يسارية متشتتة، حركات نضالية ضعيفة لا تملك نظرة واقعية للوضع، شعب منبطح متقلص يعيش

جحيمه على الأرض، ويحلم بجنة السماء البعيدة، شباب محكوم بهراوة الشرطي وبسبحة الفقيه، وقصور الحاكم تتراقص صباح مساء على إيقاعات الطرب والغناء، والمساجد تدعو في كل خطبة جمعة إلى طاعة السلطان ومبايعته وتقديسه.

رجال صغار بمناصب كبيرة، ورجال كبار في زنازن صغيرة، إنها العبارة الأكثر توافقاً مع المهزلة التي تغمر البلاد. وتجرها إلى ويلات الزمن القادم، أو دعني أقول الزمن القاتم.

واهبو الآمان المزيف، مستعدون لفعل أي شيء مقابل أن يظل الشارع فارغاً من الاحتجاجات والمظاهرات الشعبية، كل شيء مباح قتل، حرق، إخصاء، شنق، وسجن مدى الحياة، لِكُل من فكر في رفع لافتة أو شعار مناهض لهم ولمصالحهم.

لا أدري متى يخلص هذا الكابوس المؤرق، وأستيقظ من وهم يحمل معه شظايا لهب حارق، متى ينتهي هذا الخوف البارد الذي يجرح القلب المنهار كوخز الإبر.

أَتَسَاءَلُ لماذا نخاف ونحن لا نملك شيئاً نخسره؟ حتى أعمارنا ليست لنا ولمْ تكن لنا يوماً، نحن لم نعرف الحرية لم نتذوق طعمها بعد، حتى نخشى خسارتها. فكرة أن ترعبنا الخسارة جاءت وليدة اعتيادنا على الذل والإهانة، وعيشنا المفروض جنبا إلى جنب مع البؤس والعوز، حتى صرنا وجهاً من أوجه الحزن العميق. لماذا يسكننا الخوف إذن؟ وعلى ماذا نخاف؟

و ممن نخاف؟

لا شيء .. لا شيء قَطْعِياًّ سوى أننا حلمنا بالتغيير في الوقت الذي كان يحلم فيه الجميع باستقرارٍ رديف للخنوع والمشي بانحناء السجود، ولأننا فكرنا خارج السياق، كان لابد أن ندفع ثمن الفكرة من أرواحنا، لأننا لا نملك غيرها، وليس لنا من شيء نقايض به.

دمنا مستباح، عرضنا مستباح، فكيف نقاوم السيوف التي ترتطم فوق أجسادنا من حين لآخر، من دون أن تقطع رؤوسنا تماماً، ومن دون أن تتركنا نقف بشكل مستقيم، دورها أن ترغمنا على الانبطاح وأن ترهبنا حتى يسهل حكمنا والتحكم في أفكارنا وأقدارنا،

مهما كان هذا الذي أحسه اليوم إلا أنني مصر على مواصلة الصمت حتى آخره.

خطفني صوت المحقق من غفوتي قائلاً:

- المقص جاهز، و كي أكون ديمقراطياً معك، سأمنحك حق الاختيار، أو ليست هذه هي الديموقراطية التي أزكمتم أُنوفَنَا بِهَا. الحق في الاختيار.

ثم أردف ضاحكاً:

أحمر -

- اختر أي الأصابع أبتر أولاً، بصراحة من سبقوك إلى هنا لم أصل معهم إلى مرحلة المقص، قالوا كل شيء منذ الصفعة الأولى.

أجبتُ متمادياً في المراوغة:

- شرف لك أن تحقق مع رجل من طينتي.

أمسك وجهي بين يديه، أظن أنه تأمله ببطء ثم قال:

- طبعاً، لا أنكر أنكَ عنيد وصلب، وهذا ما فتح شهيتي لتجريب هذا المقص معك.

لم تصدمني كلماته، كنتُ اتوقع منه كلاماً كهذا، أطلقت زفرة حارة ثم قلت:

- دعني أخبركَ شيئاً عن عنادي الذي لا تعرف، ربيت في دار الأيتام، وكان سريري يجاور نافذة تطل على حديقة صغيرة، كنت أستمتع بالنظر إليها كل صباح، لكن وفجأة قرر المربي تَغْييرَ موضع السرير من مكانه إلى زاوية أخرى، قدم لي كل الأسباب التي جعلته يفعل ذلك، لكن لم أقتنع بما قال، ركبني العناد وخيل لي أنني أمام دكتاتور صغير، خرج لتوه من سرداب السلطة الأبوية التي تفوح منها رائحة الغضب والضجيج، في كل مرة كنت أعيد السرير قرب النافذة، كان يضربني ويسبني ويحرمني من وجبة الطعام، يعاقبني أحياناً بكنس الدرج، استمر الوضع لأكثر من أسبوعين، دون أن يتعب أو يمل أحدنا

كان يشبهني عنيد مثلي، وفي أحد الأيام أدخلت معي حجراً كبيراً، كنت قد أحضرته من الحديقة نفسها التي حرمت من مشاهدتها صباحاً، جاء هو كعادته يحاول أن يزيح السرير، ضربته من الخلف بذلك الحجر الثقيل على رأسه، فقد وعيه ليوم كامل كاد أن يموت.

ثم استرسلت :

- أتدري لماذا ضربته؟ ليس لأنه حرمني من النظر إلى تلك الحديقة، بل لأنه لم يسألني أي الأماكن أفضل غير الزاوية القريبة من النافذة، لمْ يمنحني حق الاختيار، أن أختار بنفسي مكان نومي، منذ طفولتي أرفض الأشياء المفروضة، تزعجني فكرة أن أقوم بشيء مرغم عليه، إذن لا تحاول أن تفرض علي الكلام.

ضحك طويلاً، ثم رد ببرودة :

- الأمر مختلف هنا، إما أن تتكلم وتعترف بكل شيء أو نتناوب نحن الثلاثة على نكحك من الخلف كعاهرات الشوارع. وها أنا أمنحك حق الاختيار مرة أخرى.

أجبته بسخرية محاولاً استفزازه أكثر :

- أكاد أجزم سيدي المحقق أنك عاجز حتى على مضاجعة امرأة،

أجاب بغضب، وعرفت حينها أنني أصبت هدفي :

- أنت مجرد حشرة زاحفة على بطنها تحلم بالطيران، جميعكم حشرات، سنسحقكم تحت أحذيتنا دون أن ننتبه.

تمنيتُ لو أنني رأيت ملامحه وهو ينطق هذه الجملة، لكن على الأقل تخيلت شكل وجهه وهو يتفوه بكلمة ح. ش. ر. ة. تمنيت أيضاً أن أخبره أنني على الأقل حشرة تتمع ببعض الحرية تزعج البعض وتقلق راحتهم، وتخيف البعض الآخر، حشرة خير من كلب يحرس قصر النظام مقابل عظمة، وحين يهرم ويشيخ يرميه خارج السور. ليعود إلى أصله ح.ش.ر.ة، احتفظت برد في سري، وابتسمت.

سمعتُ صوت خطواته وهي تتقدم، في خط مستقيم نحوي، أَزَفَ بمحاذاة أذني اليمنى ثم قال بنبرة هادئة وباردة ومليئة بالثقة :

- هل تتوقع أنكم قادرون على التآمر ضد القصر؟.حتماً لا، دعني ألخص لك الوضع. أنتم مجموعة صغيرة ونكرة من الشعب، كتلة ضعيفة ونتنة، خدعتكم الكتب الحمراء الكاذبة والتجارب الخارجية الوهمية وسرقكم الحماس الطفولي من رشدكم و رزانتكم، وقَرَرْتُم فجأة قَلْبَ النظام الملكي إلى نظام جمهوري، هكذا وبكل بساطة تنتظرون منا أن نرحب بالفكرة ونستقبلكم بالعناق والقبل وعلب والشوكولاطة السويسرية.

اختفى صوته للحظات، ثم عاد هذه المرة من جهة اليسار، يهمس في أذني بنبرة تهديد :

- سنستأصلكم، وكأنكم ورم خبيث.

تنهدتُ في صمت، ثم أجبته بكلام لمْ يكن في مصلحتي ولا في مصلحة ما أصبو إليه:

- كي لا يفوتني، أن أصحح لك بعض المفاهيم، المغلوطة لديك، هدف الأحزاب والتنظيمات اليسارية ليس قلب النظام كما تدعون، بل تطمح إلى تمثيل الطبقة الشعبية في الحكومة، وتناضل من أجل مصالحها الآنية، وتحسين أوضاعها المادية والمعنوية، وإن اليسار نوعان، وكل نوع ينقسم إلى عدة منظمات وتيارات، فعن أي مجموعة تتكلم؟ وأي كتب حمراء تقصد؟

توقفت عند هذه النقطة، تعمدت أن أصيغ جوابي بهذه السطحية والبلادة، بعد أن انتبهت أني أقترف خطأً فادحاً في مجريات التحقيق، ليس هذا ما كنت أرغب به إطلاقاً، و لحسن الحظ هو لم يستوعب بشكل جيد ما كنت أردد كالأحمق، الشيء الوحيد الذي رغبت في إبلاغه حقاً وبصوت مفاخر وبصدق، لكن لمْ أتمكن من ذلك، هي هذه العبارة التي علقت بحلقي كأشواك الصبار، فقلتها في خاطري،" نعم نطمح إلى تغير النظام، واسقاط الملكية "

أجاب سريعاً وكأنه اكتشف السر أخيراً:

- أي أنكم ضد القصر.

أرد بسخرية لم يستلطفها:

- إذن القصر ضد الشعب.

تكهنت منه رداً عنيفاً على سخريتي، لكن إكتفى بكلمة واحدة وصفت كل شيء.

- هراء

بعد هذه الكلمة انساب مبتعداً عني أصغيت إلى صوت خطواته وهي تتوارى في زحمة السواد المحيط بي من كل الجوانب.

فعلا هراء، كل ما يقع الآن هراء في هراء

قمة الحمق أن نسمح لهذا الرهط من الأغبياء بتسيير شؤون حياتنا، وترتيب أحلامنا حسب مزاجهم وأهوائهم المريضة، قمة العار أن نجعل هؤلاء السُذَّج على كراسي الحكم، ونمنحهم حق العبث بنا، وبأقدارنا، وبمستقبل الوطن الجريح.

قمة السخافة أيضاً أن نتصور الأمر سهلاً، إذا فكرنا في إبعادهم عن مناصبهم، وعن مكاسبهم الثمينة، لن يكون الأمر سهلاً بالمرة. لأننا في مواجهة حفنة من السفاحين تبرع في تزوير الحقائق وترويج الأكاذيب المكشوفة، وتتفنن في إخفاء أدوات جرائمها المقرفة، وتقيدها ضد مجهول، في حق شعب يعبد جلاده، ويرفع الدعاء أثناء صلاته بالصحة والعمر الوفير لظالمه، ويتوسل صدقة من سارقه.

فكيف يحدث التغيير في هذا الوطن الحابل بالوهن والانطفاء والخمول ؟ آه ما أبشع ما يحدث في هذه الرقعة القاحلة من الأرض.

فجأة، صاح المحقق من بعيد :

- لم تخبرني، بأي الأصابع أبدأ السبابة، الإبهام، الوسطى.

أجبت متهكماً :

- أيهما تفضل أنت

رد بصوت مخيف :

- أنا أفضل أن تتكلم، تعطيني أسماء، عناوين، أي شيء له علاقة بك وبالمنظمة.

- هراء وحماقة أن تتوقع مني تقديم قوائم الأصدقاء بهذه السهولة.

ثم أضفت وأنا أوجه كلامي إلى الزاوية التي جاء منها صوته:

- لن أتكلم حتى لو كان عقاب الصمت موتي برصاصة من مسدسك، لا أحد ينتظرني في الخارج، ليس لدي ما أخشى عليه، وحتى لو لمْ تفعل أنت أنا سأفعل، سأشنق نفسي هنا في هذا المكان، قبل أن أسلمك رقبة رفيق واحد من رفاقي.

أجاب بعد ضحكة طويلة :

- هكذا ستكون أنت الخاسر الوحيد في هذه القضية.

صمتت قليلاً ثم قلت بلهجة حازمة :

- لا يهم

جانبني و هو يقول :

- أعلم تماماً أنك من الرموز الوازنة في منظمة إلى الأمام، ومن الأوائل المنتسبين إليها، وأنك أيضاً من المخططين لكل البرامج التخريبية التي تمس أمن وسلامة الوطن، وأنك تملك أسماء المتآمرين الكبار، وعناوينهم، وبرغم كل هذا، لدي عرض كبير لك مقابل شيء بسيط، تقدمه للوطن الذي ينتظر منك رد الجميل على الأقل.

ثم أضاف بلهجة مرتبكة :

- حريتك.. حريتك بالإضافة إلى مبلغ كبير، يُمَكِنُكَ من مواصلة دراستك الجامعية بارتياح. مقابل أن تكون عيننا على المنظمة، تخبرنا بكل جديد يخصها، تقدم لنا تقارير عن أنشطتها السرية، وأماكن إجتماعاتها وطبيعة أفكارها السياسية والنضالية، وتفاصيل عن الجهات الخارجية والداخلية التي تقدم لها المساعدة، وتعطينا كذلك عشرة أسماء فقط لا أكثر، من كبار الرؤوس في التنظيم مع عناوينهم طبعاً .

صمت، ثم واصل بنبرة هادئة :

- فكر بهدوء، لا تتمادى في رجولتك ومبادئك السخيفة، ولا تكن مثالياً أكثر من اللازم، فكر بشبابك الذي سيحترق تحت رحمة سنوات السجن الطويلة، فكر بمستقبلك الذي سينتهي بسبب طيش مرحلة عابرة من حياتك، فكر بنفسك أولاً وقبل كل شيء.

تزامن كلامه مع ضجيج كثير لم أعرف سببه، صَمَتَ للحظات طويلة، ثم أضاف بنبرة مشفقة هذه المرة :

- حين تصل إلى قرار أخبرني أنا هنا، حتى لا أنسى، هاأنذا أمنحك للمرة الأخيرة حق الاختيار بين صمتك و حريتك، وعليك أن تدرك جيدا أن الحياة تمنحنا فرصة واحدة فقط فلا تضيعها بغبائك.

ظل كلامه يتلقفني من كل الجهات، فاجَأني عرضه الباكر، لمْ أكن أظن بتاتاً أن تسير الأمور بهذه الغرابة، كيف سبقني؟ كيف أخذ المبادرة في هذا التوقيت المشحون بالصمت والشك،

هل أعتبر عرضه بداية لحكاية جديدة، بداية لعهد جديد، بات شبه مؤكد أن الدولة تتجه إلى صناعة مخبرين وجواسيس داخل هياكل التنظيمات السياسية والحقوقية؟ حتى يتسنى لها معرفة ما يدور في الكواليس وما يُمرر خفية تحت الطاولات، وما يحدث خلف الأبواب المغلقة، الكل صار موضع ارتياب، الأحزاب اليسارية واليمينية وحتى المخزنية التي صنعتها بيدها كي تسطير على المشهد السياسي في فترة سابقة، ولابد من أن المنظمات السرية هي المقصودة الأولى من حملة شراء الذمم.

الدولة سَتُقَدِّمُ عُرُوضاً مغرية لكل فئة من شأنها أن تشكل إزعاجا لها، في إجتهاد بَيِن منها لإسكات أكبر عدد ممكن من الأصوات المعارضة.

الكل الآن يجب أن يكون على مرمى عين السلطة والقصر، فهل أكون واحداً من هؤلاء العملاء، بعدما قضيتُ سنوات أفتش عن قضية عادلة وكبيرة أتبناها وأدافع عنها.

اليوم أنا مطالب بأن أكون قواد النظام وأحد كلابه الأوفياء، وأن أتخابر ضد مصلحة شعب جف قلبه من كثرة المآسي والفقر. كيف أتنكر لما أحمل من مبادئ بهذه البساطة؟

يبدو أن الحاكم بأمر الله لمْ يعد يؤمن لأي جهة كانت، بعد محاولة اغتياله على يد أقرب رجاله تسلل الغدر إلى صفوف الجيش والشرطة والقضاء، وعلى النظام أن يعيد بناء الثقة في محيطه عبر تصفية كل من اشتمتْ فيه رائحة العصيان والتمرد، والخروج عن الإطار الحديدي الذي وضعه فيه على مدى أجيال متعاقبة، كان الإنسان المغربي الخادم الطائع لسيده، فكيف يتمرد الخادم على سيده فجأة؟

يبدو أننا جميعاً سندفع ثمن خطأ اقترفه أجدادنا، يوم كان القمر مكتملاً كوجه سلطان مقدس،

جرم أن نقول الآن أن القمر كوكب صغير يدور حول الأرض ولا يمكن أن يعكس وجوه البشر، نحن من أوهم الطغاة بقدسيتهم،

سيكون دمنا المهدور على أعتاب السجون، آخر شيء نقدمه في طرق بحثنا عن حقيقة القمر والسلطان.

بِكثير مِنَ اللبس كنتُ أسترجع عرضه الأخير، وتفاصيل المساومة من بيع و شراء، شعرتُ للحظة أن شيئاً ما إنكسر بداخلي بعد أن سقط من علو شاهق، لكن لم أنكسر أنا بعد لم أرتطم بالأرض حتى الآن، مازلت أسقط شيئاً فشيئاً، لكنني لمْ أتحطم بعد.

كنتُ في صراع مع دواخلي التي كانتْ ماتزال حتى تلك اللحظة بريئة ونقية، وعلى صفاء لونها الأول، كنتُ في حوار مع النفس الهزيلة الخائفة من إنهيار المكان والزمان والأحاسيس والأشخاص والأفكار.

تئن في أحشائي رواسب الطفولة المبتورة التى حاولتُ مراراً قطع الصلة بها، ونسيان الماضي المكموم الذي يطاردني كشبح قبيح يدعي انتمائي له، وإنه جزء مني، وأحياناً يقول إنني لَسْتُ سوى ذلك الشبح المتخفي في هيئة رجل من دخان ونار ورماد.

وحده الطفل الصغير الذي كان دوماً يختبئ في الزوايا المظلمة كلما اشتد وجعه، لا يعرف وجه الشبح وفضاعة قبحه التي لا تحتمل والتي لن تموت أبداً.

أصبحت في أمس الحاجة إلى الكلام أكثر من الحاجة إلى الصمت. اسْتَجْمَعْتُ ما تبقى لي من قوة ثم قلت :

- أرفض عرضك المغري أيها المحقق، حزين لأني سأحرم التحول من حشرة زاحفة إلى كلب حراسة، لكن أفضل أن أقضي بقية حياتي حشرة. ح،ش،ر،ة

لم يُمْهِلْنِي حتى أنهي كلامي قاطعني بتثاقل مستفز:

- أتسمع صوت المقص الذي بين يدي، إنه فرنسي الصنع يستعمل بالأساس لتقليم الأشجار يقطع الأغصان والفروع اليابسة وغَيْرَ النافعة، نحن نستعمله لنفس الغرض أيضاً نقطع به الأصابع الطويلة والألسنة الثرثارة والمزعجة.

ضَحِكْتُ وأنا أستجمع أنفاسي الهاربة، ثم قلت:

- و هل فرنسا تعلم بذلك؟

أجاب وهو يضع كفه على كتفي الأيمن أو ربما كان كتفي الأيسر:

- لآخر مرة سأوجه لك هذا السؤال، لماذا رفضت العرض الذي قدمت لك؟ أي شخص آخر في مكانك كان ليقبل، وهبتك فرصة للحياة فكيف ترفضها؟ أنت في ورطة، التهم ستأخذك إلى السجن مدى الحياة، هذا إن لمْ تأخذك إلى الإعدام.

صرختُ بكل ما أتيت من قوة:

- يمكن أن أصبح في أي لحظة، حقيراً ونذلاً وقاتلاً أيضاً، لكن لا أقدر أن أكون قواد النظام أبدا.

أجاب ببرود :

- ستواجه مصيراً قاسياً صنعته بغبائك.

- أعرف

- لنفترض أنكَ ستحكم بعشرينَ سنة فقط، ستغادر السجن وأنت في منتصف الأربعين، لا مستقبل، لا أسرة، لا عمل، ماذا ستفعل حينها.

تسارعتْ دقات قلبي، وعجزتُ عن بلع ريقي الجاف، فكرتُ قليلاً ثم قلتُ بنفس الثتاقل المستفز الذي قاطعني به :

- لا أعتقد إن الإنطلاقة عند الأربعين صعبة

هتف، وهو يهز كفه من على كتفي :

- هذا إذا كان القاضي رحيماً بك، وسجنت لِعِشْرينَ سنة فقط.

أضاف وهو يحط شيئاً معدنياً بارداً على أصابع يدي، ربما كان المقص الفرنسي :

- ماذا لو كان الحكم مؤبداً

- سانتحر، حين أكتفي من هذه الحياة

رد مستغرباً :

- الانتحار

- نعم

رد بصوت هادئ هذه المرة، و بشيء من الخبث :

أنا اخترت أن أبدأ بقطع إبهام يدك اليسرى، وبعدها نتمم الحوار، ربما تتغير نظرتك. رجل مثلك أكيد سيشتغل عقله لحظة يشعر بالخطر الحقيقي.

- والله يبدو أنك لمْ تَعِ حتى الآن، إنني لا أتكلم لحظة الألم بل ازدادُ ارتباطاً بصمت، تعلمت منذ صغري أن أواجه الألم بالصمت.

أجاب وهو يمسك إبهامي بين قواطع المقص :

- وأنا سأعلمك في كبرك، كيف تواجه الألم بالصراخ .

- ربما تقصد أن تفرغ شرك الدفين، لأنك لم تَعُد قادراً على استعابه أكثر، وتمارس سلطتك الخيرة.

رد ببطء شديد، وكان يتوقف عند كل حرف لحظة من الزمان :

- الخير والشر

ثم استرسل في الحكي :

- ما تراه أنت شراً هو ليس كذلك، لأن مفهومك للخير ضيق ومحكوم بنظرتك الذاتية للأشياء، مثلا أنت ترى أن ما أقوم به كواجب مهني هو شر مطلق بالنسبة لك، وأنا أرى أن ما تقوم به أنت كوفاء لما تؤمن به من نضال هو شر مطلق بالنسبة لي، و هنا كان يجب أن تضع أمام بصرك مفاهيم الحق، الفضيلة، والضمير.

أجبت ضاحكا :

- أنت إنسان سادي، يقوم بأفعال وحشية من أجل الترقي في وظيفته، وليس من أجل مصلحة الوطن ككل، بل من أجل مصلحته الذاتية.

- وهذا ليس شراً

- إنه الشر العميق

- أنت أيضاً إنسان أناني يطمح إلى تحسين حياته على حساب دمار الآخر.

قلت في محاولة مني لإنهاء الحديث :

- الشر في نفوس السلطة متأصل وشيطاني، أفرغ شرك كما تشاء

هَمْهَمَ في ارهاق لمْ أعرف سببه :

- أنا أقوم بواجبي فقط، وواجبي أن أجعلك تعترف وتتكلم، كيف ما كانت الطريقة.

- وأنا متشبث بالصمت مهما كانت النتيجة.

قال بعد أن ضغط على يدي بقوة حتى لا أتحرك وينفلت أصبعي من قواطع المقص:

- استعد

ثم وبكل قوته ضغط ...

لم أقل شيئاً، عدا تلك الصرخة الباردة التي خرجت من صدري المسحوق، حينما قطع إبهام يدي اليسرى، قطعه وكأنه يقطع غصن شجرة جاف، أحسستُ بدم يتدفق من مكان البتر كشلال ساخن، ما بين النبض والنبض كانت تزحف بدواخلي جيوش من الأوجاع المختلفة، كانت الرماح الحادة تخترق جسدي من كل الجوانب، والخناجر تمزق الجلد السميك في ظهري وأكتافي، ألم مرير أصاب أعمق نقطة في قلبي، ألم كبير ومتواصل، أكبر بكثير من الصعق الكهربائي بدرجات، تخللتني قشعريرة وشعرت بالبرد يحتل أطرافي جميعهاً، دوار ودوخة ورغبة في التقيّؤ، ورغبة في البكاء، صرخت حتى تعبت احبال صوتي، وانهارت عضلات فكي، لمْ أكن أملك غير الصراخ وبشدة، حتى أخفف هجمة العتمة التي غطت المكان.

بعدها لف حول يدي ثَوْباً رَطْبَ الملمس، ربما كان من القطن مبلل بالخل، شممتُ رائحة الخل تفوح منه، لم أعرف الجدوى من الخل لحظتها، ربما كان يصلح لتوقيف نزيف الدم.

قال بينما كان يمسح الدم من على فَخِذِي و ركبتي :

- والآن ما رأيك؟

لمْ أرد، اكتفيتُ بالاستماع إلى صوت قطرات الدم وهي ترتطم بالأرض، قطرة بعد أخرى، طوقتني حالة تعب، وكتمتُ أنفاسي، غزاني هدير من الأفكار المعطوبة، وجدتني وسط عبث كاسح، أنزف، أصرخ في صمت، أبكي في صمت، أفكر في المصائر والمالات الضبابية التي تنساب إلى شراييني مكان الدم النازف، أفكر في خبث الزمن المتقلب، تماماً كحال الشمس في فصل الخريف الغادر.

الطريق معتم وساخن وغائر كالوجع، يكسوه الرماد الأسود الذي يعمي العين ويفقد البصر ويخنق الأنفاس، طريق المشقات والمنافي طويل لا يكاد ينتهي، امتداده يتكرر كلما أوشك على النهاية.

أسب، وأشتم، وألعن أبناء العاهرات كلاب المخزن في العلن، وبنبرة مرتفعة وصل صداها إلى أقصى زاوية في ذلك الجحيم الأسود المترامي الأطراف.

غرقتُ في ترداد الأحاسيس التي تأكل الروح من القعر وتنهش الجسد كدود الأرض. غرقتْ يدي في الفراغ والظلمة والحيرة الكبيرة وأسئلة تقهر الروح والقلب، والذاكرة بكل شجنها وأسرارها وأثقالها. غرقتُ في فاجعة الغياب ومكر الصور الأليمة وبقايا الملامح والوجوه. أغرق، أترحل في أعطابي، أمشي نحو جحيمي الآتي.

أعاد سؤاله مرة أخرى، وكأنه يريد أن يتأكد أما زلت أملك القدرة على النطق :

- ما رأيك ؟

صحت في وجهه :

- في ماذا؟

همس بصوت منخفض :

- في الذي حدث للتو

قلت بلهجة مكبلة بالحذر:

- ولو فكرتَ في قطع اليد بكاملها، لن أتفوه بكلمة واحدة، لنْ تسمع الكلام الذي تشتهي.

صمتُ لأنهي معه الحوار، فقال:

- أريد أسماء وعناوين

اقشعر جلدي وتنحنحت وحاولت أن أضبط أوتار حنجرتي ثم قلت:

- لا تنتظر مني شيئاً وخصوصاً بهذه الطريقة، فكلما زاد عنفك وتعذيبك، كلما زاد صمتي وعنادي

رفع صوته بنبرة شريرة:

- لا تجعلني أتهور وأطلق رصاصة صوب رأسك الصلب

قفز قلبي إلى حنجرتي، وأطلقت ضحكة طويلة قلت بعدها:

- إفعل

تَصنّع البلاهة، أو أنه أبله حقيقي. رد على الفور:

- ماذا تريد ؟

قبل أن أصرخ في وجهه، قبل أن أقوم بأي رد فعل غير منتظر، أضاف بصوت أقرب إلى الهمس:

- أحس أنَّ لك طلباً مقابل ما ستقدم لنا.

أجبت بعد تفكير وتردد وارتباك :

- لدي عرض لك

أجابني ببساطة لمْ أكن أتوقعها :

- تفضل، أنا في الاستماع

تمنيتُ في سري لحظتها أن يوافق على طلبي، ثم قلت :

- ثلاثة أسماء من كبار الرؤوس في منظمة إلى الأمام مع العناوين ...

لمْ يترك لي فرصة إنهاء كلامي، فرد مدهوشاً :

- والمقابل ؟

وتابع في حنو مفاجئ :

- حريتك طبعاً

أجبت بلهجة قاطعة :

- لا

- إذن ما المطلوب؟

- حرية نجمة

أجاب كمن سمع كلاماً لا يتوقعه :

- ماذا؟

- أعطيك أسماء وعناوين، وفي المقابل تُطْلِقُ سراح نجمة.

أحسستُ أنَّ سَيْل المفاجآت التي انهالتْ عليه في زمن قياسي لمْ تترك له فرصة أن ينطق بأي حرف أو يُعقب بأي كلمة. صمت لفترة طويلة، حتى ظننتُ أنه لنْ يرد على ما قلت، وبعد برهة من الزمن استعدتُ خلالها أنفاسي، لمْ أشعر بأن لدي من الخوف ما يمنعني من مواجهة ما سيقول لي بعد هذه الفترة الطويلة من الصمت والتفكير، وقبل أن أسمع جوابه كان على أن أتسلح بكم هائل من الأكاذيب، للإجابة عن كل الأسئلة التي يمكن أن يطرحها علي، لمْ أكن أملك حينها سوى الانتظار وقلبي يزداد خوفاً وأنا أتصور ذلك الرد، كان الحزن يطوقني ويضغط على روحي بقسوة. يعتصرني ألم لا يمكن أن أصفه أو حتى أنساه. فهل كنت فعلاً أدرك حقيقة ما أقوم به؟

بصورة مفاجئة وبسرعة رد :

- ظننتكَ ستطلب حريتك أنت.

أرد بقلب واجف وحلق جاف :

- أنا مُستغْنٍ عن حياتي، لا يهم أن أكون حراً أو سجيناً.

-لِمَ اخترتَها هي بالضبط؟

وجهتُ بصري نحو الجهة التي يأتي منها صوته ثم قلت :

- لأنني ورطتها في قضية لا تعنيها بتاتاً، أنا من أقحمها في صفوف حزب التحرر والإشتراكية قبل ثلاثِ سنواتٍ، لمْ تكن مهتمة بالسياسة والنضال والأحزاب والإنتخابات والمظاهرات، كانت شغوفة بالموسيقى والرسم والفن والجمال والفلسفة وقراءة تاريخ الأديان، وجدت نفسها داخل تيار سياسي ينحاز إلى الإتحاد السوفياتي، هكذا دون رغبة منها، فقط لتكون بجانبي أينما كنت، وبعد إن انفصلت المنظمة عن الحزب بشكل علني قبل سنة تقريبا، لم تكن متحمسة لفكرة مواصلة النضال داخل التنظيم، هي لا تفقه شيئا في السياسة، لمْ تكن تدرك مدى خطورة ما نقوم به، كانت ضحية أفكاري المجنونة وحماسي الثوري السادج، اقترفت خطأ ويجب أن أصلحه، هذا كل شيء.

خاطبني قائلاً :

-أتوقع أن امرأة تهمك لهذه الدرجة تستحق منك تضحية أكثر، ثلاثة أسماء فقط غير كافية لحرية سجينة سياسية كانت تتآمر ضد القصر، وتهدد أمن وسلامة الوطن.

أجبت ضاحكاً رغم أن خوفي كان يتضاعف كلما تَشَعَبَ الحوار بيننا أكثر، لقد استمددت من وجود نجمة في أعماقي شجاعة لمْ أكن أتخيلها في:

- كل إِسم أقدمه لك، تقابله خدمة تقدمها لي، الاسم الأول، مقابل أن أرها الآن ولو من بعيد، الاسم الثاني أن تعطيني ورقة وقلم أريد أن أكتب لها شيئاً، الاسم الثالث أن تطلق سراحها وتسلمها الورقة التي كتبت.

لم أكد أكمل كلامي حتى قاطعني قائلاً بسخرية :

- هل تتوقع الأمر بهذه البساطة؟

زفرت، واحتبست الكلمات في حلقي قبل أن أقول :

- من كان باستطاعته أن يطلق سراحي، باستطاعته أن يطلق سراحها أيضاً وبسهولة أكبر

صمت لمدة طويلة كعادته، قبل أن يوجه سؤاله لي :

- وما ضمانة أنك ستعطيني أسماء حقيقية ؟

ابتسمت في سخرية قبل ان أرد :

- أكيد هي ستكون تحت نظركم، وإذا كانت الأسماء وهمية يمكنكم اعتقالها مرة أخرى.

قاطعني :

- لا.. لا هذا كلام فارغ انا أريد ضمانة أكبر وأكثر منطقية

قاطعته بدوري :

- وأنا لا أملك أية ضمانة غير ما قلت

- حسناً

قالها بصوت خافِتٍ، كأنما يخاطب نفسه، ثم وجَّه كلامه إلي :

- لنْ نطلق سراحها حتى نقبض على الأسماء الثلاثة، ونتأكد أنهم الرؤوس المطلوبة.

فهمتُ قصده، لكنني لمْ اسْتَسلم لكلامه، كنتُ مُسْتَسلِماً فقط للحمى التي اجتاحتْ كل ذرَّةٍ في جسدي، ثم قلت معترضاً :

- وأنا لن أعطيك أسماءهم وعناوينهم حتى تنفذ الطلبات كلها وتكون هي خارج هذا الجحيم، وكي أتاكد أنها خارج المعتقل، لابد أن تأتني بورقة مكتوبة بخط يدها تقول فيها إنها حرة.

صَمَتَ المحقق للحظاتٍ طويلة كالعادة، وتناهى إلى مسامعي صوت خطوات تقترب من الغرفة، ثم سَمِعْتُ بعدها صوت طرقات خفيفة على الباب، ولمْ أَعُد أسمع بعد ذلك أي شيء سوى ذلك السؤال الذي وجهه إلي المحقق بصوته العميق :

- أَلمْ يكن من الأفضل لك أن تقبل عرضي؟

أجبته بنبرة قاطعة، رغم صعوبة الموقف ورغم أن يدي كانتْ ترتجف من شدّة الألم، لكنني حاولتُ التماسك وأنا اقول :

- والآن صار من الأفضل لك أن تقبل عرضي أنا، لأني لن أقول شيئاً إلا في حدوده، لا تنسى أنني الوحيد حتى اللحظة من يمكنه تزويدك بأسماء مهمة للغاية ستجعلك تتقدم درجات في سلم الترقية والتحقيق، فكر على مهلك.

لم يرد على كلامي حينها، أمر مساعديه بفك الأحزمة عني، وأخذني إلى زنزانة منفردة، أخذوني إلى هناك مغمض العينين، أجر خطواتي المرهقة، أدركتُ وأنا في الطريق إلى تلك الزنزانة أن النضال أكذوبة كبيرة، ووهم جميل نسكنه حينما تضيق بنا الحياة ونفطن إلى واقعنا المرير.

كنت ماأزال أحس بالألم في يدي اليسرى، رغم أن النزيف توقف نسبياً، نزعوا من على عيني ذلك الغطاء الأسود، كانت زنزانة ضيقة لا تتعدي ثلاثة أمتار مربعة، تكفي لسجين واحد، كان به حصير متآكل قديم، وسطل من القصدير بقرب بابها الحديدي السميك، وقنينة ماء صغيرة، وخبزة من الشعير بحجم الكف، وفي السقف مصباح باهت الإضاءة يكاد ينطفئ في أية لحظة، الحشرات تملأ المكان، ورائحة كريهة تفوح من المكان، مزيج بين رائحة البول ورائحة الغائط، ورائحة الجدران الباردة وبقايا براز الفئران، أعطوني سروالاً وقميصاً، ولفافة من القطن وزجاجة من الخل أنظف به الجرح كلما نزف.

فقدتُ واحداً من أصابعي الخمسة، كي لا أفقد امرأة. خسرتُ احترامي لذاتي تحت سطوة الحب، وفي لحظة مكبلة بالحسرة والندم، تحولت من مناضل بطل إلى خائن نذل.

في لمحة خذلت الرفاق والأصدقاء والإخوة لأجل امرأة واحدة. تركت الكل خلفي دون أن التفت إليهم ولو بنظرة اعتذار. خذلت القضية لأن امرأة من بين نساء الأرض جميعاً كانت قضيتي الأكبر وأكبر أوجاعي.

اخترتها قبل كل شيء، كان يجب أن أفعل هذا، كان يجب أن أخرجها من حفرة أنا من أوقعها فيها بتهوري وعنادي، كان لابد من أن أساوم لأجلها هي فقط. من حيث لا أدري جاءت فكرة أن أحاول إبعادها عن القضية وأسقط عنها التهم السخيفة، خفت عليها من بؤس الاعتقال، من سنوات الجمر والرصاص التي تنتظرنا. خفت عليها من خسارات تتناسل دون توقف كالعفن، من قبح القادم من الأيام. خشيتُ عليها من الأفق المسدود الذي تنذر به الأقفال المنتشرة هنا وهناك، ومن أن تتوقف عن الحلم وعن الحياة وعن الرسم.

كان لابد أنْ أَفِي بِوَعْدٍ قطعته على نفسي وأنا بين أحضانها حين قلت لها ممازحاً ذات مساء :

- سأحرق العالم إن حاول إبْكَاءَكِ.

ها أنا اليوم يا نجمة، أحرق نفسي قبل العالم لأنني أبكيتكِ. ها أنا اليوم أحاول أن أستعيدك، رغم كثرة المستحيلات المحيطة بنا، ورغم أن المسافات بعيدة وستكون بعيدة أكثر كلما سرقتك السماوات مني.

- مجنون أنتَ، عبثي ومتمرد، عاشق أنت، شهواني ومتوحش.

هكذا تمتمت قبل يوم واحد من اعتقالنا، كانت تحتضنني من الخلف، كما لو أنني سحابة هاربة، كما لو أنني لحظة انتشاء أبدي، تطوقني بذراعيها بلطف كالماء الدافئ، تغرقني في أمواج صدرها الهائج كالشاطئ البعيد، تهمس في أذني برقة كأوتار تشيللو حزين، تغرد منفردة، تغني أحلى المواويل.

تجتاحني الحمى، فأرتمي في حضنها الملتهب، تمرر يدها على تفاصيلي ببطء، تلتصق بي، فتفقد الأشياء منطقها وأشكالها، تبقى ملامحها هادئة منتبهة ومتيقظة، ألملم جسدي وأنتفي في نارها المتأججة، أتلهف الغرق فيها ومعها، تتحسس عنقي في تمهل، تقبل شفتي بتلذذ، تغمر رأسها في صدرى تتنفس حرارة نبضي، أداعب خصلات شعرها برؤوس أصابعي كما لو أنني أداعب مفاتيح بيانو، اتشمم رائحة جسدها، أتنفسها ملء صدري، أصاب بالحيرة، من أين ابدأ رحلة موتي الجميل ؟

أتحين اللحظة التي تقرر فيها أجسادنا بداية المسير صوب الأنين المشتهى. تشهق في أول الطريق، ترتبك خطواتها، تَتَعَثرُ شَفَتَاهَا في فمي، تمص ريقي. وتسافر في مساحاتي المجهولة، تمشي في خطوط يدي خطوة، خطوة. تتجول في زوايا ضعفي، تشعل الحرائق بكل مسامي. وتفتح خارجي المغلق بمفاتيحها السرية، تستدرجني إلى جحيمها الفاتن، تسحبني نحوها بعنف، ألتصق بها أكثر فأكثر، تمتزج أنفاسنا عند العتبات، تدفعني صوب حمرة لسانها، أتذوق طعم البدايات من عمق فمها، أغوص في بياض عنقها حد الاكتفاء. أدفن أنفي في سواد شعرها، أمرغه خلف أذنها. تقترب أكثر من جمري، أضمها بين ذراعي كحفنة حنين في سرير ساخن، أطبع قبلة

خفيفة على عنقها، وأخرى على شَفَتَاهَا. أمهد للجنون الآتي بموجة من القبل السريعة. تبدأ أجزائي بالغليان، أراقبُ عينيْها المغمضتين على شوقهما في تَشَهٍّ وتَشَظٍّ، أتابع حركات يديها على جسدي، وهي تفتش عن مركز لذتي.

يتوقفُ الزمان عند تلك اللحظة، وتستيقظ كل حواسي دفعة واحدة، يهزني زلزال صغير، كلما ضغطتْ بأنملها على الحلمات، يجري الدم في عروقي، كلما احمرت وتلوث تحتي، كلما تعجلتُ في تجازو حدود البداية الخجولة، انفجرتْ بداخلي ينابيع ماء النشوة والانشطار، وتفتحتْ هي شيئاً فشيئاً كزهرة أوركيد صباحي على مهل.

أسرح بفكرى في اختيار الوضعية المناسبة، على الجانب، فوقها أو تحتها، على ركبتها أو خلفها، أمامها، أو على جانب السرير، نقف بمحاذاة الخزانة أو نجلس على الأريكة، نتمدد على الأرض دون فراش، نحتفظُ بالوسادة أو نزيحها، نطفئ ضوء المصباح أو نتركه.

ينزلق لساني صعوداً ونزولاً، ذهاباً وإياباً بين نهديها، أحفر بشفاهي عميقاً في ذلك الممر الضيق بين جنتين على شكل فاكهة تين بري، وأعود إلى عنقها من جديد ودون أن أقبله تماماً، أكتفي بملامسته بطرف لساني، كان لعنقها طعم خاص، وقانونه الخاص، أفقد تركيزي كلما مرت أصابعها تحت إبطي، تشعلني، تحرقني، تهز مكامن اشتهائي.

أصابعها الآن على حافة بوحي الثائر، تحركها بانتظام في أسفل ظهري، تحفر بأظافرها مسارات التيه على جسدي العاري، أغادر وادي

الجنة باتجاه نهدها الساخن كدمي، اعض الحلمة، أحركها بشفتي إلى الأعلى وإلى الأسفل، أستنشق رائحة الأمومة المفقودة، أسبح على مهل في صدرها، أُبقي عيني مفتوحة حتى أراها وهي تعض على شفتيها وتتعذب من اللذة.

أنزل إلى بطنها ببطء محتال، ترتجف تحتي كقطة مبللة، تشدني أكثر إليها، تلتصق بي أكثر، أمْتَّلِئُ بِهَا أكثر فأكثر، تحاول أن تكتم أنينها وهي تشدني من شعري بقوة، وتدفعني إلى النزول أكثر، حينها ننسى كل القواعد والأعراف ونتبع رغبتنا فقط.

أهيم في تعرجات خصرها المائل، يقودني البلل المتسرب من عمقها، أغمر رأسي بين فخديها، أتوغل عميقاً فيها، تفتح ساقيها أكثر.

اختزلنا المسافة بيننا، توحدنا في لحظة دهشة، احترقنا في لحظة جنون، انصهرنا، امتزجنا، ثم تشكلنا في جسد واحد.

أنظر إليها، أسترجع تلك اللحظات الحمييمة بذهني، تختلط أحاسيسي وألواني، تفتح عينيها تتأملني، تبتسم، تعانقني وتهمس في أذني: يا منقذي من التلف والعزلة، كيف تفعل بي كل هذا؟ كيف لك تجعل من كل مرة نلتقي فيها على الفراش وكأنها أول مرة، وكأنها أول قبلة، وأول حضن، وأول لمسة؟

حواسي لا تقاوم إغراءك المستتر، حممي لا تبرد إلا وأنا معك، جسدي يتمرد على عقلي ويجري نحو جسدك، فضولي الجنسي لا يشبع إلا بك،

كيف تجعلني في حالة جوع دائم إلى صدرك، إلى شفاهك، إلى دِفْءِ الماء المتدفق من أضلعك؟ كيف لهذا القلب الصغير أن يتحمل غيابك عنه؟

لو تدري كمْ أحلم أن نعيش في بيت واحد، ونشرب من نفس فنجان القهوة كل صباح، ونستحم في نفس المغطس كل مساء، نرقص ونغني كل يوم معاً، نمارس الحب متى أردنا، وفي أي الزوايا نريد، أمشي عاريةً أمامكَ إن شئت، أزعج نومكَ، أخفف من ضجرك الصباحي، أرتب ثيابك، أكتب المنشورات على الألة الكاتبة بدلاً عنك، أبتكر الشعارات، ونخرج إلى المظاهرات من نفس البيت.

تواصل كلامها وشوقها وحنينها، إلى أن تغفو بين ذراعي مخترقة المسافات والإستحالات.

كان العد التنازلي لشيء مبهم وغامض يتقدم ثانية ثانية، ملامحه ترتسم في قلبي المرتبك، كنتُ أحس أن تلك الليلة التي جمعتنا، قد لا تتكرر بيننا، كان عقلي المتعب يدرك أننا على حافة الإعتقال، الوطن مشتعل، النظام في قمة جنونه وبطشه. ونحن من الأسماء المطلوبة أكيد، وجودنا في ساحة النضال مع الجماهير يجعلنا من أعداء المخزن الهمجي.

رفعتْ بصرها إلى وجهي وقالت بحزن خفي :

- حبيبي أشعر بثقل خوفك، مما قد يحدث في قادم الأيام، تبدو متعباً هذا المساء.

صمتت للحظات قبل أن أقول بحزم :

- يا قلبي الهش، كل خوفي عليك أنتِ فقط، خوفي أن يكسركِ القتلة في غفلة مني. أنتِ قضية أرفض الشراكة فيها.

ردت مازحة :

- بطلي الجميل، من يفكر بالاقتراب وأنت هنا

التقطت أنفاسي ثم قلت :

- آه يا نجمة، ماذا لو كانت أقدارنا هي تلك الهزائم التي لا تنتهي،

ردت وهي تتوجه إلى المطبخ حافية القدمين ممتلئة القلب عاريةً تماماً:

- قدرنا أن نكون معاً، لا يهمني أين وكيف، المهم أن نكون معاً و إلى الأبد.

أومأتُ برأسي كعلامة على الفهم، وقلت :

- أخاف أن أرهق قلبكِ بحضوري

مالت على أذني همساً :

- غيابك فقط ما يرهقني ويبعثر حياتي

سرت قشعريرة في جسدي، وحاولت المحافظة على تماسكي وأنا أقول بصوت خافت :

- موجع إصراركِ على أن نكون معاً في كل شيء، دعيني أواجه مصيري بمفردي، ابتعدي عن التنظيم، لا أريد أن أخسركِ،

اعتقدتُ بأن كلامي لنْ يعجبها، لكنها صَدَمَتْنِي بردّة فعلها الباردة والهادئة جداً :

- ولا أنا أريد أن أخسرك صدقني، كلما ضاق بي الحال تذكرت أنك جزء من عمري، بل عمري كله. لا أحد يفهمني غيرك، لا أحد يحبني مثلك. إن كان مصيرك أسود كما تقول، فأنا مستعدة لأن أشاركك هذا المصير، أحبك يا مهدي، وهذا كل شيء.

صمتت قليلاً بينما كانت تبحث بين الأوراق المكدسة فوق المكتب، أخذت قلم رصاص، وممحاة، وورقة بيضاء، ثم جلست في الطرف البعيد من السرير، تتطلع إلى جسدي بتمعن، تتفحص تفاصيل حركاتي بدقة، تترصد ملامح وجهي ، وفجأة حكت على رأسها وقالت بلا اكتراث :

- سأرسمك عارياً، أزح الغطاء عنك، هكذا تبدو أجمل.

أطلقتُ ضحكة قلت بعدها :

- مهبولة

لمْ تعلق على وصفي لها بالمهبولة، كانت منشغلة كلياً بتحضير نفسها للرسم، أشعلتْ جهاز المسجلة، رفعت صوته قليلاً، وكما كانت تقول دائماً، إنها لا ترسم إلا وصوت الموسيقى في أذنها. تمنحها أغاني ستيفن تايلور نوعاً

من الحرية، وحيزاً كبيراً من الإبداع، وتفتح لها أفاقاً جديدة تساعدها في ابتكار عوالم جديدة.

ترفع نظرها كل حين إلي، تسترق مني أسرار جسدي وتضعها على الورق، كان فيها شيء من جنون المبدعين، جنون غريزي لا يملكه غيرها، لوعة خفية بتفاصيل الوجوه والأشكال والألوان، أحاسيسها مرتبطة بالأشياء التي تستطيع رسمها، والأشياء التي تتمنى رسمها.

جاءني همسها بعد أن أنهت الرسم، وكنت أنتظر منها كلمة :

- عليك أن تحافظ على هذه الرسمة دائماً، لأنني نادراً ما أشتهي أن أرسم جسداً عارياً، اتعبتني تفاصيل جسدك، هي لا تصلح للرسم، هي تصلح للشم، للمص والتقبيل.

ثم تابعت بنبرة مثيرة :

- العروق البارزة في يدك أشعلت ناري، وسخنت دمي، ومنعتني من التركيز، هذا أقصى ما يمكن أن أقدمه لك وأنت عارٍ.

وضعت الورقة جانباً، وارتمت فوقي بكل ثقلها واشتعالها، أغرقتني في وابل من القبلات. مصت عنقي ولساني والحلمة التي في صدري، أيقظت ما نام من جسدي، أحيت ما مات من روحي، أدخلتني معها في دوار مدهش، نسيت فيه الأرض ومن عليها.

تركتني صريع النشوة، وانسحبت بخطوات متسارعة إلى الحمام وهي تسأل :

- أين سيكون إجتماع أعضاء المنظمة غدا؟

ورغم أن اللذة غطت كل حواسي أجبتها قائلاً :

- لنْ نجتمع في الشقة، الوضع لا يسمح، العيون مفتوحة علينا هذه الفترة، أقترح ساحة الجامعة، على الأقل سنكون في مكان عام وله حرمته، وأقل شبهة من الشقق السرية.

أجابتني ببراءة :

- أنت أدرى عزيزي

شردتُ بصري بعيداً وأنا أقول :

- أتدرين يا نجمة، أفكر أحياناً في ترك كل شيء والسفر معاً إلى أي بلد، يتضاعف خوفي كلما اعتقل أحد الرفاق، أحس أن الدور علينا،

ردت بمزاح غائب :

- أتخاف الإعتقال يا مناضل؟

تبعتها إلى الحمام حتى نتمكن من سماع بعضنا بعضاً بشكل جيد، كانت تحت زخات الماء الساخن، مبللة شهية وشهوانية، وقفت بجانبها تحت الرشاش، طوقتها بقوة من يخاف أن يفقد شيئاً من بين يديه، وقلت :

- أخاف أن أقتلك بعنادي وهوسي، أخاف أن تكون قضيتي هاته سبب فراقنا، أخاف أن أوجعك لا غير

ردت بحماس :

- إذن لنسافر

لم أكن مقتنعاً في قرارة نفسي بفكرتها. شردتُ قليلاً ثم قلت:

- إلى أين؟ وكيف؟

أجبت بعد أن وضعت قبلة خفيفة على حلمة صدري :

- إلى فرنسا، أو إسبانيا أو ليبيا حتى، أي مكان نحس فيه بالأمان والحرية والحب

رفعتُ يدي إلى شفتيها، وكأنني كنت أحاول اسكاتها بتلك الحركة، ثم رميت سؤالي وسط بخار الماء الساخن :

- والوطن يا نجمة

أَشاحتْ بِوجْهِهَا صوب الفراغ ثم قالت :

- الوطن هو المكان الذي يشعرنا بقيمتنا، وحريتنا وكرامتنا، الوطن حيث نكون معاً في حب لا تغرب شمسه، الوطن هو صدرك إن ضاقت بنا الأرض والسماء، هي ملامحك إن رفضتنا عيون البشر، هو قلبك حين تمطر

سماء الاغتراب حزناً وحنيناً، هو أنت لأنك أول الرجال في حياتي وآخرهم، لأنك مسكني وأنا لاجئة إليك من دمار الخيبة.

تركت كلماتها صدى مدوياً بصدري، وصارت تنز أسئلة بعقلي، رغم أنني لم أكن أملك لها أجوبة، قلت لها كي أطمئن قلبها الذي كان ينهشه القلق والخوف:

- أعدكِ أن أبحث عن طريقة للخروج من هذا الوطن البائس، في أقرب وقت ممكن

طوقتني بين ذراعيها ثم أجابت:

- بإمكاني أن أوفر المبلغ اللازم للسفر، فقط جد لنا مخرجاً من هنا، ليس المهم إلى أين، المهم أن نغادر، كل الأماكن تصلح للعيش إن كنت فيها يا غرامي، كل المدن تصبح جميلة إن سكنتها أنت، كل الحدائق تصير ملكاً للعشاق وحدهم إن جلسنا فيها معاً. دعنا نسافر أرجوك، متعبة أنا من خوفي، متعبة من كل شيء.

كلامها يومها أدهشني وأخافني، أدهشني لأنه يحمل في تناياه رغبة كبيرة في أن نظل سوياً، وأخافني لأنه خرج من روح متعبة، أهلكها الخوف من القتلة المتربصين، ويمكن في أي لحظة أن ترحل وحدها، بعيداً عني وعن هذه الأرض القاحلة. لأن الحياة لا تستقيم مع الشعور بالخوف، أن نعيش يعني أن لا نخاف من شيء. كان هذا أخر حوار بيننا قبل أن نعتقل في ذلك الصباح المشؤوم.

* * *

اليوم ..

نحن هنا حيث لاشيء غير التوحش الأول، حيث سطوة السلطة التى خربت كل شيء، ودمرت توازننا، وعلينا أن ننقذ ما تبقى منا ولو قليلاً.. ولو قليلاً.

نحن هنا في معتقل درب مولاي الشريف اللعين، وقد مر تقريباً يوم ونصف على تواجدنا وسط السواد الدامس، الجسد متعب، تتوزع عليه كدمات زرقاء، وكثير من الدم، القلب صار أعمى ومدمر إنه ينزف ويعيش على انتظار دائم ومجروح في الصميم، والعقل مشوش وحائر، أصابه البكم، التبس عليه كل شيء، ماعاد يميز بين الحقيقة والوهم، بين الحلم واليقظة.

أسمع صوت خطوات قادمة باتجاه الزنزانة، قلت في خاطري حينها، مستحيل أن يكون قد قبل العرض بهذه السرعة، فتح الحارس الباب، وضع العصابة على عيني، مشى خلفي بخطوة، على مسافة تقارب العشرة أمتار على الأكثر، أدخلني إلى مكان آخر، دون أن ينزع عن عيني العصابة.

استمرت حالة الانتظار معي طويلاً، قبل أن أسمع صوت المحقق داخل تلك الغرفة، اقترب مني ثم أبعد عن عيني العصابة، لمْ يكن وحده، كان معه ثلاثة آخرين لمْ أَرَهُمْ من قبل،

وجه كلامه لي قائلاً :

- نحن هنا لنعرف منك تفاصيل أكثر

- مثل ماذا؟

صمت قليلاً وكأنه لم يسمع و لا كلمة مما قلته، توجه الى أحد أولائك الثلاثة وشوش في أذنه بصوت خافت جداً، ثم عاد أدراجه إلي، أمدني بورقة وقلم ثم قال :

-أكتب ما تريد منا أن نوصله إلى نجمة

بقيت صامتاً للحظات أفكر فيما سأكتب. طبعاً في البداية لم أصدق أنه وافق على طلباتي كلها، كان ثمة انتصار ما على القتلة، كان يلوح في الأفق. أحسست برغبة في القفز والصراخ لأنني أخيراً سأمنحها شيئاً صغيراً، من شأنه أن يفتح أمامَها أبْوَابَ الحياة التي أُغلقت سهواً في وجهها، رغم أنه سيكلفني أشياء كبيرة، لكن لا يهم.

سرحتُ في خيالي أفتش عما يمكن أن أقول لها، أبحث عن كلمات لا يفهمها أحد سوى أنا وهي، مسكت القلم بيدي، دون أن أنقل بصري المشوش إليهم وضعت الورقة على فخدي، وكتبت

قصيدة شعرية كل أسطرها مشفرة، حتى لا يفهم أحد منهم ما أود إبلاغه لها. لم تكن قصيدة كانت رسالة مستعجلة.

لا شيء في سماء اليوم
غير التيه والتشتث
سيموت جوعاً .. الطير الحزين
ستموت حزناً .. قلوب الجياع
فر الحمام من ساحات المدينة
بعض الكلام معلق
حيث كان
الطريق طويل .. طويل
لا يدركه الزمان
والحمام يهرب
عندما تختفي اضواء المدينة

كتبت هذه السطور سريعاً، سلمته الورقة والقلم، قرأها بصوت مسموع بعد أن اتكأ على الحائط وهو ينظر إلى زملائه، ثم استدار نحوي ببطء، بعد أن وضعها في جيب سترته، فتحتُ عيني على كل إتساعهما، لمْ أشعر بالخوف، لمْ أشعر بشيء مُطْلَقاً، فقد كنتُ في عمق اللامبالاة، لهذا كان شعوري جامداً، لا يكاد يتحرك بَتَاتاً، اقترب منى قليلاً، أعطاني سيجارة و عود ثقاب، ثم قذف سؤاله في وجهي :

- ما معنى هذا الذي كتبت ؟

أجبت سريعاً كي لا أثير شكوكه أكثر :

- مجرد قصيدة، لا معنى لها

رمقني بنظرة حادة، لمستُ الشك يلف كل ملامح وجهه. اقترب مني خطوة أخرى ثم همس بنبرة مستفزة :

- إحساسي يقول إنها رسالة سرية

لحظتها صارت الأفكار تتدافعُ في رأسي. وخفت أن أقترف زلة صغيرة، فأهدم كل ما بنيته، قلت بنبرة قوية لأخفف وطأة الوقت الذي توقف فجاة، شعرت بالكلمات خارجة من حلقي جافة. حاولتُ ترطيبها بابتسامة كاذبة :

- إنها قصيدة للشاعر الأرجنتيني أرماندو دي نادا

قهقه بصوتٍ عالٍ ثم رد في سخرية :

- لِمَ كتبتها لها إذن ؟

- لأنه شاعرها المفضل هذا كل شيء

لم يجبني، ولم أحاول إضافة كلمة واحدة،اكتفى بابتسامة مردداً بصره بيني وبين زملائه، اندهشت من ابتسامة لم تكن منتظرة منه، لا أكاد أعي ما يقصد من خلال تبسمه الصامت، أو بالأحرى لمْ أستوعب ما يدور في تلك الغرفة بعد، كانت تفاصيل اللعبة الجديدة

متشابكة يعمها الصمت والحذر والشك، وأنا لم أكن مهيئاً كما يجب لمثل هذه الدوائر المبهمة والمخيفة.

أخذ المحقق يخطو صوب النافذة المشرعة، رمى بصره إلى الأفق البعيد، ثم أغلقها بمهل، ربت على كتفي وقال:

- سأمنحك دقيقة كي تراها لكن من دون أن تتفوه بكلمة، إذا قلت أي شيء عليك أن تعرف أن هذا الاتفاق الذي بيننا سيكون مُلْغَى نهائياً.

أجبته بإشارة الموافقة على شرطه، ولم أسأله لماذا، مد يده مرة أخرى إلى العصابة السوداء المعقودة على مستوى عنقي، وضعها على عيني، سحبني سحباً وهو يشد بقوة على معصم يدي، باتجاه مكان تواجدها، وعلى طول المسافة التي مشينا فيها، كان الصمت هو السائد، صمت يشبه الموت تماماً. فطنت لحظتها أن نجمة كانت ماتزال تتواجد معي في نفس المعتقل وكانت تفصل بيننا غرف تحقيق وتعذيب والكثير من الظلام. قلتُ في أعماقي أكيد أنهم عذبوها أيضاً، وحاولوا أخذ اعترافاتٍ منها، وجربوا أن يجعلوا منها عميلة عندهم مقابل حريتها، وربما قدموا لها نفس العرض الذي قُدم لي. أتكون قبلت به أم رفضته؟

هي لا تعرف أسماء كبار المنظمة لم يسبق لها أن التقت بهم، كل من تعرفهم هي، يعرفهم الجميع، الشارع، الجماهير، السلطة المخزنية

الرسمية، والأنوف والأذان المندسة بين المناضلين، وكلاب النظام السريين، وحتماً صاروا هنا معاً في نفس المكان.

كنتُ أتبع خطواته المتسارعة، وفي داخلي أرخبيل من التساؤلات والأحاسيس المتناقضة. كنت مرتبكاً مع ما تبقى من خوف في ضلوعي، أقاومه، أرفض الانصياع له، أحاول تجاوزه ببعض الخيارات التي أصبحت متاحة الآن، وأن شيئاً ما في هذه الدنيا صار يستحق أن استمر من أجله، وأقاتل كي أحرره من قبضة القتلة، وحتى أغفر لنفسي ذلك الذنب الذي اقترفته عبثاً.

ربما كنت في حاجة إلى شيء يقذف بي بعيداً، حتى أنسى الحزن والجرح العميقين، وكي أهرب من ذاكرتي البشعة، كما لو أنني نسمة هواء تتسلل خلسة من شقوق الحيطان والأبواب القديمة، لكن شيئاً ما كانت له رائحة البارود، كان يرجعني إلى دواليب الذاكرة كلما حاولت الابتعاد عنها.

لا أعرف ما إذا كان علي أن أخلق بعض الألفة البسيطة مع الأشياء ومع الحاضر بتقلباته المفاجئة، أو أعلن حرباً كبيرة على كل شيء، حتى على الماضي الذي مايزال مستمراً في رغم أنه مر وإنتهى منذ زمن ليس بقليل. أما كان ممكنا ألا يعود؟

لا أدري من كان وراء كل هذه الخسارت التي أصابت القلب والخاطر، واثثت عمري بكل تلك الأحلام المبعثرة القبيحة.

خسارات كلما حاولت نسيانها، إلا ووجدت نفسي وجهاً لوجه معها.

فجاة سمعتُ صوت الأقفال وهي تُفتح، تخطينا العتبة، أزال المحقق العصابة من على بصرى، أشار بحركة من يده يأمرني بأن لا أتكلم ولا أصدر أي حركة.

كانت نجمة معصوبة العينين، مكبلة اليدين شبه عارية، تحمل على ذراعها أثار التعذيب، تجلس على كرسي يقبع في زاوية الزنزانة، شعرتْ بدخولنا، لكنها لم تُبْدِ أي حركة، أو رد فعل، كانت منطفئة كلياً، ساكنة شبه ميتة، أغمضت عيني قليلاً، ثم فتحتها. لمحتها على مرمى يدي وقلبي، داخلي المكسور أخذ يركض صوبها حافياً، تركته ينساب كما يشتهي في عمق ملامحها التي اضمحلت وذبلت سريعاً وفقدت إشراقها ونورها. سكنت الأوجاع خطوط جسمها العاري، لمْ تكن ترتدي شيئاً من فوق سوى ذلك التبان الأحمر الذي لبسته خصيصاً لآخر ليلة كانت بيننا، بذريعة أن اللون الأحمر يصلح لممارسة الحب ويترك الغريزة البشرية على جنونها الأول.

كانت بعيدة عني جداً، تفصلنا مسافات قاسية ومستحيلات كثيرة، وجهها المتعب هزم دمعي، ودمر كل الأشياء التي بنيناها معاً، تمنيت أن أعتذر منها من جرحها وحزنها وصمتها، لكن لم أفعل. تمنيت أن أنفض الرماد من على صدرها، وأقبل جبينها المتعرق، تمنيتُ أن ألمس شَفَتَاهَا بأطراف أصابعي حتى تشعر بوجودي قربها على بعد نفس، وأعتذر من دمعها المكابر، لأنني هدمت أجمل أحلامنا بغباء.

على مرمى عناق لم يحدث بيننا، تمنيت أن أهمس في عمق حضنها " في كل الوجوه أنتِ "

منحتك قدراً ملكنا سرّه معاً، ثم مشينا فيه بلا عقل، منحتك مصيراً أدركنا نهايته باكراً لكننا واصلنا المسير فيه بتهور. أنا في حاجة إليك أكثر من أي وقت مضى يا وطني الصغير.

على مرمى قبلة اغتالها صمتنا، ولمْ تُسْعِفُهَا عتمة المكان ووحشِيَتُه، كنتُ أريد أن أسألها، لماذا يا عمري كلما أقبلنا على الحياة بشهية أكبر، أدارت هي ظهرها لنا فجأة، لا لشيء فقط نكاية بنا؟ لماذا كُتِبَ علينا كل هذا الشقاء؟ لستُ أدري كيف خاننا من كنا نتوقع أنه لنْ يخون؟

شعرتُ بالفرحة والحزن في آن واحد، شيء ما كان يقفُ في حلقي، غصة كبيرة أصابتْ جسمي بالشلل، دمعة عصية علقتْ برموشي وأنا أتأمل تلك الصورة، صورة حزنها، صورة الشقاء الدائم والأبدي.

تغير عالمها الفسيح إلى جهنم ضيقة جداً، أضيق من الأصفاد التي تربط يديها وقلبها، كانت تبدو مثل عصفورة مكسورة الجناحين، لمْ تعرف كيف تخبئ كسورها ولا كيف ترَمِمُهَا، نعم كنت ذلك العالم البهي الذي تحبه، ومستعدة لأن تخسر كل شيء لتفوز به، كنتُ الشيء الوحيد الذي يشبهها وكلما أحست الخوف غطت وجهها به ونامت.

من الصعب على الإنسان أن يدرك متأخراً، أن الفرح الذي سرقه من عبثية الحياة، لمْ يكن سوى وَهْمٍ جميلٍ صدقه، وأن ما كان يلهث خلفه ليل نهار، كان مجرد سراب تبعه فأضاع طريق العودة، وخسر سنوات طويلة في الجرى لأجل شيء لا يستحق.

لمْ يكن أمامي حينها إلا أن أسكن أعطابها السرية زاوية، وألتزم الصمت، كما طلب مني. كان فرحي الوحيد، أنها ماتزال على قيد الحياة، رغم قسوة الجلاد وبرودة زنازينه.

كان عزائي الوحيد أن قلبها الهش الذي يشبه غيمة خفيفة، لازال يواصل نبضه وسط العواصف العاتية التي ضربت الوطن، واقتلعت الشجر والحجر، وسد غبارها الثقيل كل منافذ النجاة، وكسرت كل أحلامنا دفعة واحدة، لحظة كنا نخالها نسمة هواء وليست عاصفة مدمرة.

ليس في هذا الفضاء الضيق سوى المعابر الخطرة، و الكثير من الموت، ورائحة الجُثثِ المتحللة.

ها هي المرأة التي تلفني بدفئها من حين لآخر، هنا أمامي، حيث لا حدود بين أنفاسنا غير الصمت، تجلس على مقعد خشبي في ركن قصي من زنزانة سوداء.

منهزمة، و اِنهزامها واضح، تفاصيل ملامحها الشاحبة، أحرقتني كما تُحرق الأشجار الكثيفة حينما يرتفع الحر وتقسو الطبيعة على بعضها،

لو تدري فقط كم أحمل لها من الشغف والشوق، وكم أشتهي أن أسرقها من صمتها القاتل، وأضعها في عمق عيني، وأحجب عنها الضوء المنبعث من الكوة التي تعلو الباب، حتى تتوحد ظلالنا مع بعضها، كي نقترف جنوننا الأجمل، ونتخطى هذه الأحاسيس البشعة التي تعذبنا.

بقبلة أو عناق، وأرحل مهبولاً وعاشقاً داخل قلبها المتعب، عساني أستريح من هذا الحادث العرضي الذي عطل كل شيء في طريقه، ولم يترك وراءه غير الرماد الذي ليس له أي معنى، لمسة القدر اللعين هي التي أوصلتنا إلى هنا، إلى الأسئلة المعلقة والمغلقة.

صرتُ أعرفها وأعرف أعطابها كلها، وحتى من كان سبباً فيها، ومن قتل في رأسها الأزمنة والأمكنة، وحرمها من فرشاة الرسم، وأحرق كل لوحاتها القديمة. وجعل من حياتها لوحة واحدة بلون الدم والدموع.

كانت الأسئلة تدور في ذهني، تتقاطع مع بعضها، تتداخل، تتزاحم، ثم تتطاير خارج حدود عقلي، تظل تتناوب بين حالة الطيران وحالة الدوران، إلى أن يتعب فكري من كثرة التركيز و الانتباه.

كنت مشدوهاً إليها، إلى أقصى نقطة فيها، وكأنني لا أصدق ما أراه، ربما كانت تحكي أشياء كثيرة بصوت غير مسموع، ربما لو أنني سمعت ما كانت تقول دائماً، لكان مصيرنا التراجيدي قد تغير، وما كنا الآن وجهاً لوجه، وكل منا يحمل بين أصابعه لحظة موت الآخر.

كان رهاني الوحيد هو أن أخرجها من هنا، والباقي لست مهتما له، مرت الدقائق بسرعة البرق، انتهت مدة الزيارة، هذا ما قاله المحقق، وضع العصابة على عيني كالعادة، وسحبني من يدي خارج الزنزانة.

أعادني إلى المكتب حيث يوجد زملاؤه الثلاثة، أزاح العصابة عنْ عيني، جلستُ على كرسي بالقرب من مكتب خشبي. أمدني أحدهم بسيجارة ملفوفة، لمْ تكن عادية كان بها كمية من الحشيش، كانو يدخنون أيضاً من نفس السجائر، ويضحكون بأصوات عالية، على مواقف حصلت لهم مع بعض المعتقلين أثناء التحقيق، حيث قال أحدهم إن معتقلاً تغوط على نفسه بمجرد ما أن عُلق من قدميه في السقف، وآخر حاول الانتحار بقطع شرايين يده، لكنه لفرط ارتباكه قطع شريان اليد اليمنى، وقصص أخرى كلها تحكي عن المعتقلين السياسين.

كنت أستمع إليهم، وفي داخلي حقد كبير اتجاههم، إنهم حثالة، أبناء عاهرات.

قال الشخص الذي أعطاني السيجارة موجهاً كلامه إلي :

- الآن نفدنا لك طلبين، وغداً سنطلق سراحها في الخامسة صباحاً، على أساس أنها بريئة من التهم.

ثم أضاف بعد أن أشعل السيجارة التي كانت بين أصابعه:

- بعد ذلك بساعة أي عند الساعة السادسة سنعود إليك لأخذ الأسماء الثلاثة والعناوين

تابع بنبرة تهديد واضحة :

- لا تنسى وأنت تكتب الأسماء والعناوين، أننا نستطيع إعادتها إلينا متى أردنا فلا تحاول اللعب معنا، وإلا كبر حزنك أكثر

أجبته بنفس النبرة :

-عليك أن تحضر معك نسخة من محضر الإفراج موقع من طرف قاضي التحقيق، حتى أتاكد أنكم لم تخدعوني وبالمناسبة حينما تسلمها الورقة التي كتبتها لها، هي في المقابل ستكتب لي رداً، وعليكم أن تحضروا معكم ما ستكتب لي.

أضفت وأنا أجر نفساً عميقاً وطويلاً من سيجارة الحشيش الذي اشتقت تدخينه :

- هكذا سيكون الاتفاق بيننا مر على أكمل وجه، أليس كذلك؟

أصغى في اهتمام كبير لما قلت، ثم نفث دخان سيجارته عاليا وأجاب :

- اتفقنا إذن

مع هذه العبارة، وبهذا الرد، لم يعد صدري كافياً لاحتضان شعور الانتشاء الذي فاض في جوارحي كلها كالماء العذب، كل شيء أصبح مغطى بغشاء رقيق وشفاف، انتهت معضلة الصمت والانتظار التي عشتها على مدار يومين، مرا وكأنهما سنة أو أكثر. انتهى الحزن الشقي.

المهم أنني خلصتها من الاشباح الممتلئة بالكره، لا شيء يسع ما أحس به الآن، وكأنني منحتها بعض الحياة من جديد، أو هكذا يبدو لي.

غلفتني رائحة الحشيش ودخانه الكثيف، بدفء كبير، تملكتني دوخة جميلة شبيهة باللا مُبالاة، وتحاكي إلى حد بعيد التحليق عالياً في السماء، وكأنني طائر حر لا قيود تكبل جناحيه الصغيرين، يحلق كما يحلو له يحط حيث يشاء، يغرد، ويغرد ويغرد كما يشاء.

لم أشعر بهذا التماهي الغريب منذ زمن، أسحب نفساً بعد الآخر من تلك السيجارة البنية، أخرج الدخان الأبيض من فمي وأنفي، وأراقبه وهو يتصاعد شيئاً فشيئاً أمام عيني .

رغم ذلك كله شيء واحد فقط، ظل معلقاً في الهواء لا يغطيه ذلك الغشاء الرقيق، ولا تلك الدوخة الجميلة تَمَكَّنَتْ منه، كان أثقل من أن يحلق معي في الأفق المترامي هناك حيث اللاشيء، شيء لا أعرف ماهيته، كل ما أعرف عنه أنه ثقيل، بثقل السنين التي مضت.

شيء واحد كان عالقاً بين الموت والحياة، موازياً للحيرة والندم، وشظايا الانكسار.

تساءلتُ في داخلي وأنا أرشق عيني في السقف، هل ستفهم نجمة ما حاولت إيصاله لها بين سطور تلك القصيدة؟ هل ستدرك المعنى السري لتلك الكلمات الهاربة من شاعر مات منتحراً بين قصائده ؟ أم أنها ستعتبرها مجرد إشارة سخيفة مني، لأذكرها بشاعر تحبه وأغار منه بحرقة عاشق.

كنا قد اتفقنا ذات مساء، أنني كلما كتبت لها قصيدة، ستجد في المقابل هدية لها في خزانة الكتب، هل ستفعلها هذه المرة وتفتش عن الهدية ككل مرة.

فقد تركت لها بين أوراقي ديوان المرايا لشاعرها الأرجنتيني المبجل، ورقة دَوَنْتُ عليها عناوين بعض الأصدقاء من الجهة الشرقية للبلاد، من شأنهم أن يقدموا لها يد المساعدة، بالإضافةإلى مبلغ صغير من المال يمكنها من السفر والعيش ولو لمدة قصيرة، وأوراق هوية مزورة تمنحها فرصة الخروج من المغرب باتجاه الجزائر عن طريق الحدود البرية، وشرحت لها كيفية الوصول إلى هناك بتفصيل، يكفي فقط أن تتبع الخطوات كما هي، دون أي تغيير، وأكيد ستكون خارج حدود العبث اللامتناهي، وبعيداً عن القتلة والمتربصين في أقل من يومين.

لا أعرف لمَ فَكَّرْتُ مسبقاً في تحضير خطة للهرب، ورتبْت تفاصيلها بتلك الدقة اللامتناهية؟

ثمة إحساس ما كان يحثني على فعل ذلك، ربما استشعرت يومها أنني سوف أصل إلى هذه المرحلة، وسيكون كل همي حينها، كيف أبعدها عن أرض الموت والاغتيالات.

اليوم، هو أول يوم أفقد فيه علاقتي بنفسي بشكل كلي، وأكون قد تنكرت فعلاً للقضية التي طالما حملتها على صدري، وخنت الرفاق الذين بهم كانت الحياة تبدو أكثر اتساعاً وجمالاً وشموخاً، معهم فقط كانت الحياة تستحق بعض الجنون.

لا أدري كيف سمحت لنفسي بفعل هذا ؟ ولا كيف نسيت سبب التحاقي بالمنظمة، يوم كنت أبحث عن قضية تكون محور حياتي، حتماً كنت أجهل حينها أن محور حياتي امرأة وليس قضية. وأنا قضيتي الأكبر هي الحب.

أي جنون هذا الذي اقترفته؟

أحببتها، كما لم أحب شيئاً من قبل، مثقلة ذاكرتي بها، مزدحم بملامحها وتفاصيلها.

التفاصيل هي التي توقد شعلة الحب، وتمنحه ذالك الضوء الجميل، الحب يتغذى على التفاصيل الصغيرة جداً يتشكل من خلالها، حب كبير يحتاج دائماً إلى تفاصيل كبيرة وكثيرة. والتفاصيل

أيضاً هي التي تصنع ذاكرتنا الأكثر وجعاً، التفاصيل تلك الأجزاء الصغيرة جداً جداً، التي تتمازج مع بعضها فتعطي في الأخير ذاكرة وذكرى، وذكريات لا نستطيع نسيانها لأنها مشكلة من جزيئات دقيقة، مشتتة في كل دواخلنا كقطرات الماء.

أحبها، لأنها مستمرة في كما المطر، وأنا مصاب بها حتى العظم، لأنني كبرت بين رموش عينيها.

صعب عَلَيَ كثيراً أن أندهش من عيون أي امرأة سواها مهما كانت جميلة، اكتشفت نفسي معها، اكتشفت جسدي حينما لامس جسدها، شفيت من عقدي وأمراضي النفسية، تلك التي ألمت بي ذات طفولة مضطربة، حين عرفتها وحين أحببتها، تحولت من امرأة عادية إلى المرأة الوطن، المرأة الأم، والمرأة المقدسة.

أحببتها لأنها لا تشبهني إطلاقاً، لكل منا اهتماماته، هي تحب الموسيقى الهادئة، أنا عكسها تماماً أحب الصخب في كل شيء، هي تقدس الألوان والأشكال، أنا أميل أكثر إلى الأبيض أو الأسود، أحب النقيضين فقط، هي تميل أكثر إلى دراسة التاريخ والفلسفة، والبحث في أصل الأديان، أنا يجذبني الأدب والشعر، هي مؤمنة بطريقة ما، أما أنا فأنكر وجود الله، والجنة والنار، أعتبر أن الأديان صناعة بشرية، وهي سبب كل الشرور، هي عكسي تماماً تؤمن بوجود خالق لهذا الكون، وتجزم أن هناك قوة ما في يوم ما ستأتي لنصرة البؤساء والجياع والمقهورين فوق تراب هذه الأرض، وأن الشر موجود على الأرض ولم يأْتِ من السماء، رغم كل هذا الاختلاف إلا أننا كنا نحب

بعضنا حد التطرف، أحببتها لأنني كنت يتيم الأم، وكانت هي صدر الأمومة الضائعة.

لا أدري حقيقة لمَ هي أحبتني؟ دائماً ما كنت أمازحها قائلاً: إني رجل لا يصلح للحب، لا أعرف كيف أحب، ولا كيف أحافظ على من يحبني. ولدت بتشوه عاطفي.

شيء ما قادني نحو الصمت، رغم أنني كنت معلقاً بين خوفي، وشكي، ومليون كلمة محسورة في حلقي، كل ما حدث مر بي سريعاً.

اعطيتهم الأسماء و العناوين،، صارت هي خارج جدران معتقل درب مولاي شريف، كتبت لي تتمة القصيدة كجواب على ما كتبت لها، مع سؤال موجع في اخر الورقة، كيف أنت؟

هي لم تقل شيئاً اخر غير ذلك السؤال القاطع كيف أنت، ربما الشيء الوحيد الذي كان مهماً بالنسبة لها أن تعرف شيئاً عن حالي.

أنا بخير ما دام قلبك الآن ينبض بارتياح بعيداً عن حدود السجن القاسي، وصدرك يتنفس هواءً نقياً، وبصرك يمتد الى عنان السماء، أنا بخير ما دامتِ بخير. فقط ليخبرني احد ما أنك خارج الوطن كي ارتاح أكثر.

* * *

أخذوني في اواخر شهر آذار من سنة 1973، بعد أن قضيتُ ما يقارب عشرة أيام أو أكثر في الدرب الموحل، في زنزانة انفرادية، إلى

السجن المركزي بالقنيطرة، الذي كان يستقبل أنذاك اغلب المعتقلين السياسين، والمعارضين لنظام وسياسة المخزن الديكتاتوري.

هناك كانت الأمور أقل وحشية، اِنْتَهَتِ في تلك المرحلة الاستنطاقات والتعذيبات. كان السجن يضم مجموعة كبيرة من المحسوبين على اليسار من منظمتي الى الامام، و 23 مارس، و بعض العناصر من الفصائل الطلابية القاعدية، ومجموعة من المنتسبين لحزب الاتحاد الوطني للقوات الشعبية الجناح الثوري المسلح ...

في انتظار تاريخ جلسة المحاكمة، كانت الأيام تمضي ونحن دون محاكمة، نقضي شهوراً من عمرنا دون أن نعرف مصيرنا، كان همنا الأكبر حينها أن نعرف كم ينتظرنا من سنواتٍ سَنَقْضِيهَا في السجن، كان الرفاق على استعداد لِخَوْض إضرابٍ عن الطعام، حتى نضغط على المحكمة في إعطاء تاريخ محدد للنطق بالحكم، وتحقيق بعض الأهداف، كالسماح لنا بمواصلة اجتياز الامتحانات من داخل السجن، وتزويدنا ببعض الكتب وإطالة مدة الفسحة الصباحية.

وذلك ما كان، فخضنا اضراباً طويلاً لمدة اربعين يوماً بالضبط. حصل فيها ما حصل، في الأسبوع الأول و بعد أن بدأت اجسامنا برفض الماء والملح الذي كنا نتناوله بهدف حماية الأمعاء من التعفن، اجتاحتنا حالة من المغص والدوار والرغبة في التقيُؤ.

كانت رائحة الطعام القادمة من المطبخ البعيد جدا، تصل إلينا وكأننا داخله، أصبحت لدينا حاسة شم قوية جداً، رائحة الخبز والفصوليا والسمك المقلي تفوح في زوايا المكان.

و قعت حالات من الإغماء كثيرة، و أحْدى الرفيقات دخلت في حالة غيبوبة، نقلت على إثرها الى المشفى ولا نعرف عنها خبراً. تطور الشعور بالضعف والتعب الشديدين، مع مرور الساعات كل الوظائف الحيوية للجسم تعطلت.

مع بداية الاسبوع الثاني، لمْ نعد قادرين على النهوض من فراشنا، كنا ننام إلى حدود ثمانية عشر ساعة في اليوم، تحولت الزنازن الى ما يشبه غرف الإنعاش، كنا على حافة الموت الجماعي في معتقلات النظام، لأجل انتزاع حقنا في محاكمة عادلة وسريعة دون مماطلة، لكن دون اي استجابة تذكر، كان الوضع يزداد سوءاً يوم بعد آخر، أسبوعاً تلو الآخر.

الادارة السجنية لمْ تهتم لنا في أيِّ حالٍ من الأَحوال، لمْ يُطلب منا تعليق الإضراب حتى، كانوا مستمتعين بمنظرنا، ونحن نموت كل يوم قليلاً، كنا قد دخلنا مرحلة الهلوسات، كدنا نفقد عقولنا، أجسادنا صارت هزيلة وضعيفة وأطرافنا ترتعش.

أَخَذَ بعض الرفاق يكتبون رسائل لأقاربهم، أو لعلها كانت وصايا وداع، أنا مثلهم أيضاً كتبتُ رسالة إلى أمي، رغم أن الرسالة لن تصل

ابداً إليها، لنْ تقرأها، لكنني كنتُ محتاجاً إلى شخص ما، أكتب له شيئاً مَّا.

رسالة، أو وصية، أو مقطع من أغنية، أو قصيدة على الأقل، لا أحد ينتظرني في الخارج، لا أحد. أدرك ذلك تماماً، الكل رحلوا فجأة. أمي توفيت بعد دخولها السجن بخمس سنوات نتيجة مرض الكبد الوبائي القاتل، خبر موتها نزل كصاعقة على رأسي يومها، لكنني لم أَبْكِ، كنت حينها في الميتم، واختارت هي الرحيل وحيدة في زنزانة مغلقة.

كتبتُ لهَا على قصاصة ورق، وأخفيتها بين ثِيابي.

* * *

كبرت يا أمي، في غفلة منك

أتذكرين ذلك اليوم، حين ماتت تلك الفراشة بين أصابعي، وأنا أحاول أن ألون أجنحتها البيضاء، بألوان الربيع. قلتِ لي وأنتِ تجففين دمعي بأطراف ثيابك : إنها فراشة خلقت بلا ألوان، لكنني كنت مصراً على منحها بعض التوهج البسيط، كي تصبح فراشة في كامل ألقها، منذ ذلك اليوم الذي يبدو الآن بعيداً جداً، كل الأشياء التي لمستها، إحترقت في يدي، وتركت خلفها رماداً أَسْوَدَ. لو أنك لم تفعلي ما فَعَلْتِ، لكنت الأن أنا وأنتِ معاً.

أحس بالوهن الشديد، أنني على بعد شبر من محنة الرحيل، جسدي لم يعد يتحمل أكثر، عقلي يفكر بشكل متواصل، تعبت كثيراً يا أمي.

لماذا اخترتِ الجميع إلا أنا؟ نعم أنت سبب مأساتي وأول هزائمي، كيف سمحت لنفسك بفعل كل هذا؟

قد أموت اليوم، أو غداً، أو بعد غد، مر شهر وأنا مضرب عن الطعام في سجون النظام المغربي.

أنا هنا بسبب تهم كبيرة جداً، سأحاكم لأنني خائن ونذل ولا أحب الوطن، وأَتَآمَرُ ضد الملك، لأجل قلب نظام الحكم، والتخابر مع أعداء الوطن.

لا أنفي هذه التهم عني، قد أكون فعلاً مُذْنِباً في حق الجميع. نعم قدمت قائمة الأصدقاء إلى القتلة، مقابل الإفراج عن امرأة، أحببتها أكثر منك، وأحبتني أكثر منك أيضاً. كنت وراء اعتقال ثلاثة من رفاق المنظمة، من المناضلين الكبار، لا أحد يعرف هذه الحقيقة، الكل يتوقع أنني تجاوزت مرحلة التحقيق، والتعذيب دون أن أتفوه بكلمة واحدة، لكن ما حدث عكس ذلك كله، فقدت أحد أصابعي، فقدت مبادئي أيضاً، لا أعرف إن كان ما قمت به يستحق كل هذا الإحساس بالذنب الذي يمزق أعماقي من حين لأخر، أحقد على نفسي، كلما تذكرت أنني تصرفت بحقارة وأنانية.

نسيت أن أخبرك بشيء أخر، حدث ذلك المساء حين طَعَنْتِ أبي من الخلف، كنتُ سافعل نفس الأمر، لكن من سخرية القدر، أنك فَتَحْتِ الباب في اللحظة التي كان مقرراً فيها أن أغرز نفس السكين في ظهره، ليتك تأخَّرْتِ قليلاً يومها، لكان الوضع مختلفاً الآن.

كنتِ تقولين دائماً إنني عنيد، وعنادي سيسحقني في يَوْمٍ مَّا، وسيسحق كل من حولي، لأن الحياة تتطلب ليونة أكثر، حينها لَمْ أكن أستوعب معنى كلامك، كنتُ أراه كلاماً سخيفاً لا أكثر.

كلما كبرت قليلاً، اكتشفت أنك كنتِ على حق، وكم كنتُ أنا غافلاً و ساذجاً.

كبرت في حرمان مستمر، في وجع مستمر، في يتم مستمر. يتم لمْ ولنْ أشفى من عقده بَتَاتاً، عقد تسكن عظامي وتتنقل معي حيث كنت.

كبرت بعيداً عنك، أنا الذي إخترت أن أضحي بنفسي لأجل دموعك، وأنت التي ضحيت بنفسك، لأجل حب مات بين أحضانك فجاة.

صرت بعدك أكره أن يلمس أحد جسدي، وأن يحتضنني أحد، لمْ أسمح لأحد بأن يمسح على رأسي، كرهت كل النساء الذين يشبهونك في شيء ما، كُلَّمَا صادفني اِسمُكِ، تنكرت له.

حكيت قصصاً غريبة عنك، وعن موتك. مرة قلت لأصدقائي أنك مت في حادثة سير، ومرة في حادثة غرق، لم أقل إنَّكِ رحلتِ عني بسبب حادثة حب مباغثة، وأحيانا كنت أقول إنني حين فتحت عيني على هذا الجحيم المترامي، لم يسبق لي أن لمحت وجهك.

لا أدري هل أحقد عليك، أم على نفسي،أم على القدر الذي جمعنأ أنا وأنت في هذه الحياة البائسة، كل ما أعرفه أنني أصبحت فارغاً من الداخل، شبه ميت. حتى المرأة الوحيدة التي كانت تمنحني بعض النبض والقليل مِنَ الدِّفْءِ خسرتها، ولم أعرف كيف أحمي علاقتنا من أمواج الحياة ومنطقها المعاكس. قد تكون هي الآن خارج الوطن في مكان أخر.

أكتبُ لكِ الآن، من مكاني في زنزانة بسجن المركزي بالقنيطرة، الساعة تشير الى الثالثة صباحاً، الجو بارد قليلاً... الخ.

هذه حالة الطقس المعتادة في شهر مارس، مرت تسع سنوات على موتك، لكن الفصول لم تغادر مكانها، بقيت وفية لتقسيم الزمن، الأرض تدور حول الشمس كما كانت قبل تسعة سنوات، الشمس تشرق في وقتها وتغرب في وقتها، لا شيء تغير بسبب رحيلك، حتى أنا لمْ أتغير، ما زلتُ كما كنت.

أعلم تماماً أنكِ رَحَلْتِ حزينة وموجعة، لأنني كنتُ أرفض زيارتك في السجن، لمْ أَزُرْكِ ولو مرة. رفضت أن أرى عيونكِ وملامحكِ. كنتُ أعاقبك على شيء لا تدركينه، على ذنب اقترفه قلبك لحظة غيرة.

حتى قبرك لم أقف أمامه باكياً، لا أعرف حتى مكانه، لمْ أحاول البحث عن موضع روحك.

لمْ يكن يعْنيني أمر كهذا. ما معنى أن أضع بعض الأزهار فوق ترابك، أو أرش القليل من الماء على عطشك، بصراحة أحسست بأن الفعل سيكون مشحوناً بعواطف كاذبة.

و لا يعنيني أيضاً أن نلتقي في العالم الأخر، هذا اذا كان موجودا فعلاً، لأنني لا أصدق ترهات الكتب، التي قالت بوجود عالم تلتقي فيه الأرواح المتحابة مرة أخرى وتعيش مع بعضها. إذن أين ستلتقي الأرواح المتخاصمة والمكسورة؟ هل ستبقى تحوم بين السماء والأرض؟

أكتب لكِ رسالتي الأخيرة، لا أوصيك بشيءن ولنْ أترك أي وصية لاي كان، إن مت فليكن في علم كل من يعرفني، أنني رحلتُ لا حزيناً ولا سعيداً، رحلت فارغاً من الأحاسيسه.

لمْ يَبْقَّ يَعْنِيني أمر الوطن، وما سيقع في غيابي. فليحترق هذا الوطن بمن فيه و من عليه ...

عند الفجر تماماً، أنهيت كتابتها، بشيء من الحزن الخفي، لم أعرف سببه. ما يقارب العقد من الزمن، لمْ أفكر في أن أكتب لها حرفاً واحداً. كيف جاءتني الفكرة؟ وأنا بين الموت والحياة، أن أكتب إلى أمي التي كرهتها يوم فكرت في نفسها فقط.

* * *

في اليوم الأربعينَ من الإضراب المتواصل، ثم إخبارنا بتاريخ المحاكمة، التي كانت بتاريخ فاتح دجنبر من نفس السنة، كان يفصلنا عن ذلك التاريخ أقل من شهر، ومر ذلك الشهر ببطء قاتل، وجاء يوم النطق بالحكم، كنت أحس بتشتت كبير، وارتباك، وخوف في قاعة المحكمة. قُدمت عند الساعة العاشرة صباحاً، مع اثنين من الرفاق، هما السالمي، والفاسي، وكان قد تطوع أحد المحامين للدفاع عني، أما باقي الرفاق فقد اوكلوا لهم أقاربهم محامين، أنا لمْ أكن أملك اي أحد ليوكل لي محامياً يدافع عني.

القاعةُ كانَتْ مزدحمةً عنْ آخرها بأسر المتهمين، افتتحت الجلسة. نادى القاضي على المتهمين، والمدافعين عنهم. ثم سألَ كل واحدٍ على حدة. الإسم، والسن، ومحل الازدياد، والحرفة، ومقر السكن، وعن السوابق القضائية.

ثم طلب من الجميع الإنصات إلى قرار الإحالة الصادر عن السيد قاضي التحقيق، والذي سيقوم بتلاوته السيد كاتب الضبط. بعد ذلك أُعطيت الكلمة إلى السيد ممثل النيابة العامة في شأن الاظناء المتغيبين، الذي التمس فصل قضيتهم عن قضية باقي المتهمين.

ثم استمعت المحكمة إلى ملتمسات النيابة العامة، الرامية إلى مؤاخذة المتهمين، طبقاً للفصول 2-3-5-35. من الظهير المؤرخ في 15 نونبر 1958 ، والظهير المؤرخ في 26 شتنبر 1969 ، وأسند للمحكمة النظر في تطبيق الفصول.169-1700 من القانون الجنائي.

ثم وجه القاضي سؤاله لي:

- لماذا تتآمَرُ ضد الوطن ؟

أجبته بلهجة، حاولتُ أن أجعلها مرحة قليلاً :

- بل كنت أتآمر ضد اعداء الوطن

رد بنبرة حادة :

- من هم أعداء الوطن، تكلم

اختطلتْ بداخلي ضحكة ساخرة، مع حدة الألم التي شعرت بها لحظتها، لم أعرف بمن أبدأ، هل بالأحزاب السياسية الحقيرة التي تواطأَتْ مع القصر ضد الشعب، حتى صار لا يعرف من يصدق من. الأحزاب التي باعت الشرفاء من مناضيلها لأجل التقرب من السلطة والتودد لها، كي تستفيد من بقايا المكاسب والمناصب التي يجود بها كبار القوم وأسياده، وكي تضمن لها موقعا داخل الخريطة السياسية، ويباركها السلطان. أم أصحاب البدل والاوسمة والشارات والفيلات الفخمة المطلة على سواحل الشمال، الجينرالات وكبار الضباط في

الجيش والشرطة والمخابرات، هذه الفئة التي لا يهمها شيء سوى مصلحتها الشخصية والمحافظة على امتيازاتها الخاصة، فئة ترعبها فكرة التغْيير، لأنها المستفيد الأكبر من الوضع الديكتاتوري الذي تعيشه البلاد، أو لعله القصر هو عدو الوطن الأول.

وددت لو أنني أخبرته أن هؤلاء هم أعداء الوطن، لكنني شَخَصْتُ في عينيه برهة من زمن، ثم أجبته ضاحكاً باكياً في نفس الوقت :

- نحن أعداء الوطن يا سيدي القاضي، نحن الفقراء، سكان الهامش، والحفر السوداء، الجياع، الجهلة، الخائفون من شطط التيه، المثقلون بهم المسافات الفاصلة بيننا وبينكم، نحن أعداء الوطن.

صمت القاضي قليلاً، وكأنه لم يستوعب ما قلت، تأملني بنظرة غريبة، تكسوها الدهشة والارتياب، ربما كان ينتظر مني إضافة شيء ما على ما قلت. لكنني لم ارغب في أن أقول أكثر مما تسلل من بين شفاهي دون نية مسبقة، مسدتُ على شعري بيدي المثقلة بالأصفاد الحديدية، ثم ابتسمت بسخرية واضحة في وجهه الشارد :

رفع نظارته الطبية بأصبع السبابة و قال :

- لا تَنْسَ أنك في المحكمة

نزع نظارته، وفركَ عينيه في تعبير واضح عن الإرهاق، ثم أَرْدَفَ قائلاً بنبرة لا تخفي إنزعاجه من كلامي :

- أحمر

- رد على السؤال بشكل واضح، و إلا ستظلم نفسك كثيراً.

قلت في انبهار حقيقي :

- جوابي واضح سيدي القاضي، المشكل أن داخلك يؤمن ويدرك على أننا لسنا أعداء الوطن، وهذا ما جعلك ترفض ما قلته اليوم، أمام سيادتكم، هذا دليل على أننا أبرياء من كل التهم التي الصقتم بنا، أعداء الوطن ليسوا هنا في هذه القاعة، إنهم في مكاتبهم الفخمة يجلسون على الكراسي المريحة، يدخنون السجائر المستوردة من كوبا. هم أعداء الوطن و ليس نحن.

نظر إلي للحظة، كان في عينيه حقد وغضب صعب تفسيرهما، شعرت بانه يغالب ضحكة ساخرة وهو يضيف :

- أنت متهم بالانتماء إلى حركة 23 مارس

أرد بشيء من الفخر الخفي :

- اعترف بالانتماء للحركة

رمقني بنظرة طويلة واضحة المغزى ثم قال :

- أنت متهم أيضاً، بالتحريض على التظاهر، وافتعال الشغب بين صفوف التلاميذ والطلبة.

قاطعته بنبرة متحمسة، وكأنني أحاول أن أصحح قوله :

- أتوقع أن الخروج في مظاهرات سلمية، حق دستوري، ولم أحرض على افتعال الشغب.

رد بعد صمت دام للحظات:

- طبعاً حق دستوري من قال العكس.

بعد ما قاله لي، كدت أصرخ في وجهه من موقعي. وأقول له تباً لك، ولدستورك، وبلادك، وعلى من نصبك علينا قاضياً. لكن لم أفلح، خانتني قدرتي على الصراخ. ولم أعد بعدها أسمع إلا الضجيج الذي غطى القاعة لحظتها.

ثم صاح القاضي بصوت مرتفع:

- سكووووت، وإلا سأخرج الجميع من القاعة.

صمت الجميع فجأة. ثم عاد القاضي وسألني من جديد بعد أن عاد الهدوء للقاعة:

وهو يطرح سؤاله علي، لاحت صور أولئك القتلة أمامي. عيون المحقق الذي بتر إبهامي، كانت تتأملني من بعيد. تذكرت ملامحه وتجاعيد وجهه القبيح، وسمعت نبرة صوته الخشنة تتردد في أذني.

سألني القاضي مرة أخرى، وهو يرفع أمامي كيساً بلاصتيكياً شفافاً:

- هل هذه المحجوزات ملك لك؟

نظرتُ إلى ذلك الكيس للحظات. ثم ظهر شرطي من باب الحراسة، وقد تقدم نحو القاضي بخطوات متأنية ثقيلة ومستقيمة رافعاً رأسه إلى الأعلى بكبرياء مبتذل. سلمه القاضي الكيس، وطلب منه أن يعرض ما في داخله من أغراض أمام أنظار الموجودين داخل القاعة.

كان بداخل الكيس، رزمة من الأوراق والمذكرات والقصاصات الصحفية، والمنشورات.

عاد القاضي مرة أخرى وقال بهدوء :

- هذه الأوراق تعود لك

حافظت على هدوئي وأجبت بتبات :

- نعم

صمت قليلاً ثم وجه سؤاله الى السالمي قائلاً :

- أنت متهم بالانتماء الى منظمة محضورة وعلى افتعال الشغب والفوضى ومتهم بالتحريض على ...

قاطعه السالمي باكياً بحرقة :

أحمر -

- لقد اغتصبوني يا سيدي القاضي، أربعة من الضباط اغتصبوني بتناوب، جعلوا مني إمراة.

رد القاضي، بعد أن أزال نظاراته إلى الأسفل قليلاً :

- ماذا تقصد

أجاب السالمي بتلعثم، والدموع تنزل من عينيه بغزارة :

- جروني كالكلب على الارض، ثم علقوني عارياً في قضيب أفقي من حديد. وجاء أحدهم من خلفي وضربني بعصى على الرأس حتى كدت أفقد الوعين بعد ذلك تم اغتصابي.

صمت للحظة ثم أردف :

- تبول المحقق على وجهي مراراً، وصعقني بالكهرباء، ومرة ظللت معلقاً من يدي إلى السقف مدة طويلة، حتى فقدت الوعي مرتين. أنظر يا سيدي القاضي أثار الجروح من حبل التعليق لا تزال في يدي إلى الأن. كانوا يربطونني لساعات في وضعيات تسبب ألاماً فظيعة. حيث لا أستطيع بعدها الوقوف. هددوني بالتصفية وبقتل أطفالي واغتصاب زوجتي وأمي.

استوقفه القاضي بحركة من يده. لكنه واصل :

- ضربوني لمدة 15 دقيقة بالمواسير البلاستيكية، ثم ربطوا يدي خلف ظهري وعلقوني منها، حيث بقيت قدماي مرفوعتين من الأرض وقالوا "سنبقيك هكذا حتى ينخلع كتفك".

احمر وجه القاضي، وراتفعت حدة صوته، ولم يهمله حتى يكمل كلامه، ثم أطلق صرخات مجلجلة، حملتْ معها كل غضبه:

-أصمت .. أصمت

ثم أردف، وهو يشير إلى حراس الأمن باخراجه من القاعة :

- نزلوه يبرد شوية لتحت

وفجاة انفجرت القاعة بالبكاء. كانت المشاهد تتزاحم في ذهني بينما كان السالمي يغادر القاعة، انكسر قلبي لمنظره، وهو يمشي بخطوات متعبة. وعلى الفور وجه القاضي السؤال هذه المرة إلى الفاسي قائلاً بلهجة غاضبة:

-أولاً،المطلوب منك الإجابة في حدود السؤال فقط

ثم أضاف :

-أنت متهم بتشكيل منظمة سياسية سرية تهدف إلى قلب النظام وإسقاط الحكم. والمس بسلامة الدولة وتهديد وحدتها وثوابتها. – الفصل 209 من القانون الجنائي.

أجاب الفاسي بشجاعة غريبة، لمْ أعرف من أين جاء بها :

-أطلب يا سيدي القاضي في البداية، وقبل ان أنفي أو أعترف بهذه التهم الموجهة لي. أطلب لحظة صمت ترحمناً على روح أخي الشهيد الذي قتل في مكتب التحقيق على يد رجال الأمن.

ثم واصل في سخرية مريرة :

- أنا أيضاً تعرضت لتعذيب. ومن حقي أن أدافع عن نفسي. فقد ثبت أحد رجال الأمن كتفي، وأمسك أخر ساقي، والثالث الذي كان يرتدي قفازات أمسك مسطرة معدنية صغيرة تم تسخينها على موقد شاي، ووضعها على طول قضيبي. انتفضت من الألم، فحرقني للمرة الثانية على خصيتي. وأحرقوا أخى مرة واحدة على قضيبه، وعلى صدره، وبطنه، وأسفل قدمه. قبل أن يرجعوه مغطى ببطانية مبللة وقد فارق الحياة.

لمْ أكن في موقف يستلزم الصمت، فصرخت بقوة وبنبرة متعاطفة، وأنا أرفع يدي عالياً :

- انظر أيها القاضي إلى يدي، لقد بتروا أصبعي بمقص. أطلب من العدالة، اجراء تحقيق شفاف في ممارسات التعذيب والوفيات في مركز الشرطة في درب مولاي الشريف، ونشر نتائجه علناً، وينبغي معاقبة المتورطين في الانتهاكات.

رد القاضي، وقد ارتسمت على ملامح وجهه موجة غضب:

- أحمر

- من أعطاك الحق في الكلام .. أصمت .. أصمت .. أصمت

صمت للحظة، ومن نظرته المحدقة بي، عرفت أنه لن يمنحني فرصة أخرى لقول المزيد، ثم أضاف بنبرة عدائية:

- أخرجوه من القاعة، حتى يتعلم أداب الحوار، هذه محكمة، وليْسَتْ سُوقاً.

انزلوني حينها إلى القبو المظلم، تنفست عميقاً وأنا أكاد أُجْهِشُ، ومددت بصري من خلف قضبان الباب الحديدي. أرى ولا أرى. كدتُ أقهقه من سذاجتي شعرت فجأة وأنا أمام الظلمة الدامسة، بأن السنوات القادمة سأقضيها هنا بلا حراك. أحسستُ بقبضة تمسك معصمي بقوة، وتعيدني إلى القفص الذي خلتني للحظة سأتحرر منه.

أكيد أنني سأموت هنا بين القلق والخوف والتردد. والأكيد أيضاً أنني لن أشم بعد هذه اللحظة روائح الفصول وهي تتغير وتمدني بكل معاني الحياة، ولن أرى كتل السحاب الكثيفة والمتدافعة، سأموت ببطء، وأضمحل، وأتفتت، ثم اختفي نهائياً من الوجود. لمْ أكن أرغب يوماً بمثل هذه النهاية الغامضة والمنغلقة.

لم يعد هناك من طريقة للخروج من هذه الورطة. التهم الثقيلة ملتصقة بي، ولن ينفع معها شيء.

ما كان قبْل ثوانٍ يجرُّني إلى عتبة البكاء، تحول فجأة إلى قهقهات مدوية. كنتُ أضحك بهستيريا، كما لو أنني فقدت عقلي.

أدركتُ في تلك اللحظة الخاطفة، أنني على أبواب المشنقة. واسترجعتُ بسرعة شريط حياتي دفعة واحدة. اكتشفت أنني لمْ أكن أفهم شيئاً في السياسة ولا في الحياة. فبعد مشي طويل وجدت نفسي مرمياً خلف القضبان. أفكر في الوهم الذي قادني إلى هنا، ولَمْ يعد علي من السهل اقتلاع جسدي، من بين أنياب الكلاب الجائعة.

ليس في هذا المكان الموحش إلا الصمت، والفراغ، ولغة العذاب، والنسيان، والموت. ولغة السجن، والسجان، والمساجين. ولغة الحواس المرتبكة، والأحاسيس اليتيمة، والمريضة التي جعلت من الجسد خراباً، ومن العمر بقايا لحظات مشتتة بين الماضي البعيد والحاضر المبهم.

عند لحظة النطق بالحكم، أعادني الشرطي إلى قاعة المحكمة. نظر إلي القاضي وهو يخبئ تنهيدة ما بين شفتيه، ثم قال بنبرة أحسست بأنها تخفي الكثير من الحزن، والحسرة. وكأن ما سيقوله لا يمثل قناعاته ومنصبه، ولا يمت للعدالة من جهة:

- وحيث صرح المتهم المهدي المباركي، أمام الشرطة أنه انخرط في منظمة ماوية سرية، وأنه كان يحضر الاجتماعات السرية التي كانت تطرح مواضيع تمس بسلامة الدولة، وهو من كان يترأسها، واعترف المتهم أيضاً، بكتابة المنشورات التي تحرض على التظاهر وافتعال الشغب، كما اعترف بنشر مقالات بجريدة المناضل. وطبقاً للقوانين الجاري بها العمل فقد تم الحكم على المتهم المهدي المباركي ب 22 سنة سجناً.

أحمر -

ثم أردف شَارِدَ الذِّهْن:

- وقد تم الحكم على السالمي بِعَشْرِ سنواتٍ وعلى الفاسي بخمسة عشر سنة سجناً... رُفعت الجلسة

الرسالة الثالثة

20 تموز 2015

عزيزتي ريما،

هل يجب أن أكتب أن كل شيء بدأ بقبلة، و اِنتهى بحرقة قاسية جداً؟ أتدرين أنني أمتلك تلك القدرة على توزيع هذا الحزن على أكبر مساحة من عمري.

مرت شهور طويلة دون أن أكتب لك جواباً على رسالتك، كنت منشغلاً قليلاً بكتابة الفصل الأول من الرواية، وقد انهيته للتو، وقررت فجاة أن استريح من تفاصيل الذاكرة المتعبة، أن استريح من الذكريات المعطوبة، و أعانق طيفك في هذا البياض الشاسع، عناق واحد يكفيني لأختصر العالم فيك، وأنام، و أحلم وأكتب، لك لحظة خلوة مع نفسي، باللغة العربية. نعم يا فراشتي الهاربة من دخان القنابل، لا أستطيع أن أحبك بغير هذه اللغة. وحدها العربية تملك إمكانية وصف ما يختلج صدري من أحاسيس اتجاهك، وحدها تقدر على الحفر عميقاً في ما يجمعنا أنا وأنت.

قد يزعجك كثيراً أنني أكتب الرواية باللغة الفرنسية، لأنني أعرف تماماً علاقتك الحميمَة بالعربية، لكن ذاكرة موجعة كهذه التي معي، لا يمكن أن تتدفق دفعة واحدة، على الورق بغير اللغة التي

ضَمدَتْ جراحي بكل عطفها، وصالحتني مع الحياة. أن نكتب يعني أن نعيش ألاماً آخر على الورق. الكتابة وجع ممتد من القلب إلى الذاكرة. الكتابة رصد لأدق الأحاسيس في الذات وتتبع لأدق التفاصيل في الأخر.

سأكتب بلا هوادة إلى أن يجف دمع العين، وتغيب الشمس، وتنزل الظلمة كعادتها قبل الموعد.

وخزني قلبي وتسارعت دقاته حين قرأت رسالتك الأخيرة، قلت إنكِ متعبة من العيش بعيداً عن سوريا، عن تراب وطنك ورائحة أهلك، و أنك تفكرين جدياً في العودة إليها حتى لو كلفك ذلك حياتك. لكن يا صغيرتي فعل كهذا قد يجعل منك فريسة سهلة الاصطياد من طرف الذئاب الملتحية، وكلاب النظام.

دعك بعيدة كل البعد، عن أرض الاغتيالات والاختطافات والموت المنظم. أَتَسَاءَلُ ما الذي غير نظرتك لمدينة جميلة كبيروت. كنت تقولين دائماً إنَّ لُبنان وطنك الثاني، ومسقط قلبك. أهو الشوق لياسمين دمشق، من أشعل فتيل الشوق بروحك؟ لا تغامري صوب الموت الذي يشتهيك، لا تَمْنحِي الريح القاتلة الحق في بعثرةِ رُزْنامَة عمركِ.

أنا أيضاً، اشتقتُ إلى كازابلانكا، وفكرتُ مثلك في وقت سابق، أن اعود للعيش فيها، لكن لمْ أتقبل مَهْمَ يَكُنِ السَّبَب فكرة أن الوطن

غفور رحيم. هذه العبارة كانت تجعلني أغلي من الداخل كبركان، كان يجب أن تكتب على الشكل الثالي "الجلاد غفور رحيم"، و ليس الوطن.

كنتُ قد سألتك في رسالتي عن حال زياد، قلتِ في ردك إن أخبارهُ انقطعت كلياً، لم تسمعي عنه شيئاً منذ ثلاثة أشهر. اشتكَيْتِ من تغيره معك، وأنك عِشْتِ الفترة الأخيرة صعبة جداً معه. وقد كنتما على خلاف دائم بسبب كتاباتك التي تهاجم تنظيم داعش، ولديك شكوك كبيرة في أنه التحق بذلك التنظيم الهمجي القاتل. أتمنى أن لا يكون هذا صحيحاً، وتخسري أخاً جميلاً بمواصفات إياد بهذه الطريقة البشعة. شاب مثله متعلم وناجح في ميدان الطب، لا يستحق أن يدنس يده بدماء الأبرياء، بعد ما كان يقاتل الوقت لإنقاذ حياة إنسان مريض، ليس عليه الآن بعد كل هذا العمر، أن يقتل ذلك الإنسان بنفس اليد التي كانت تعطي الحياة والحب.

آه ما أقسى أن يتحول الإنسان إلى قاتل فجاة.

في اللحظة التي وصل إلي خبر اختفائه، حاولت أن أرسل له بعض الرسائل النصية في حسابه على الفيسبوك وتويتر، اجريت إتصالاً مع رفيقي عمران تذْكرينه، الصُحفي العراقي، على أمل أن أسمع معلومة ما عن إياد، لكن دون جدوى، وكأن الأرض ابتلعته. حتى الأصدقاء المشتركين بيننا ليس لهم أي خبر عنه، احزنني الأمر بشكل كبير، حاولت أن اساعدك بأي طريقة لكن لم أنجح في ذلك.

أما في مايخص مرضي، وحالتي الصحية، لمْ أغادر المشفى بعد، لكن هناك تحسُّن خفيف. صرت أستطيع المشي، أخرج كل صباح للتنزه على شاطئ البحر، ويقول الطبيب المعالج لو إستمر جسدي في الاستجابة للأدوية بهذه الوتيرة، سأتمكن من العودة إلى بيتي في غضون شهر على أكثر تقدير. ويمكنني السفر أينما أردت حينها. اشتهي أن تجمعنا مدينة ما ونرقص كما فعلنا ذلك المساء الذي لم يغادرني إلى الآن. كيف تكون الصدفة بخيلة علينا هكذا، وترفض أن تجود علينا بلقاء آخر أكثر جنوناً ؟ لا أطلب معجزة صعبة ومستحيلة، أطلب لقاءً صغيراً لا أكثر، أطلب رؤيتك، حتى افرغ في كف يدك ما في القلب من حزن و أسرار. حتى أحضنك بين ذِراعي للمرة الاخيرة. ونحن على حافة البحر ستموت الأحزان في صدرنا دفعة واحدة، و نبقى وحيدين على حواف الساحل المهجور، أنا، وأنت، والموج، يتامى على حافة العتمة ورعشة الرغبات المقتولة.

ريما، دعيني أخبرك سراً صغيراً.

أتوقع أن الكتابة بشكل يومي، ساهمت في تغلب جسمي على المرض، يحدث أن تكون فعل مقاومة، يحدث أن تكون الكتابة حيلة دفاعية اتجاه المآسي والأحزان.

اقضي أَرْبَعَ ساعاتٍ متواصلة على طاولة الكتابة، دون ملل أو كلل، رغم أنها لا تشبه مكتبي المريح المطل على النهر، لكن على الأقل وهبتني بعض الدّفْءِ الذي أحتاج، وأنا أحكي قصتي الأغرب والأكثر برودة. ووهبتني الكثير من الصبر على انفعالي وامتعاضي لحظة البوح.

أحس وكأنني أعيش تلك التفاصيل من جديد. تتسرب إلى جوفي كل الأحاسيس التي خبرتها في ذلك الماضي السحيق والبائس.

فهل يمكن أن نكتب، دون أن نتوجع؟

اسابق الزمن بشكل شبه جنوني. خفت أن أموت قبل أن انهي كتابة الرواية، التي لمْ اختر لها عنواناً حتى هاته اللحظة، لا أعرف بصراحة ما أسمي هذا النزف القاسي، هل أُسْميه نَزَفاً، أو ربما أترك لك هذا الأمر، أترك لك حق اختيار عنوان مناسب لما أكتب. فأنت متميزة بعناوينك، وهذا ما فَتَّحَ شهيتي لاطلب منك إسماً يليق بأول نصوصي وأخرها طبعاً. لن أكتب بعده أبداً.

لا أدري لمَ علينا أن نكتب رسائل بخط اليد، في زمن الرسائل السريعة التي تصل إلى وجهتها بكبسة زر، أحياناً كثيرة أفكر في الإخلال بهذا البند المجحف في حق اشواقنا، وأباغتُ غيابك بإتصال هاتفي، أو بجملة خاطفة أبْعَثُهَا دون تفكير، دون خوف، دون تردد على بريدك الإلكتروني. لكن خشيت أن أقطع الإتفاق الذي تم بيننان وعهدنا بعضنا على أن لا نخلفه مهما حدث.

ماذا حدث؟ ألهذا الحد نحن أوفياء للقطيعة والهجران؟

لو تعرفي فقط، كم هو متعب الإمتثال لأمر كهذا في لحظة تأزم ينهار كل شيء بين يدي، في لحظات الألم، يخطر ببالي أن أهاتفك وأقول لك همساً: أحتاجك، أنا مكسور وشظايا قلبي متناثرة هنا وهناك. لا وطن لي إلا وطن الكتابة. لا أرض لي أخطو عليها إلا لغتي.

في الأخير أقول لك يا صغيرتي ..

دعينا نلتقي ونسرق من العمر لحظة، نكون فيها وحدنا أمام البحر الأزرق، دعينا نطفئ نيران الشوق الحارقة بعناق هادئ على شرفات الشارع الطويل.

اكتبي لي رسالة، حينما يوصل إليك ساعي البريد هذه الصبابة والحنين، تَذَكَّرِي دائماً، أنني مشتاق لك، و بي نزف داخلي ثقيل يهدر مثل الوديان.

كتبتُ لكِ من غرفتي بالمستشفى، كالعادة بقرب النافدة المطلة على البحر، البحر الذي يشبهني و أشبهه.

أراهم جميعاً حين أفتح عيني، وأراك وحدك حين أُغمضها. أشعر بك أنت وحدكِ. تفاصيلكِ تسكنني، لغتك، ملامحك، دموعك، لمعة عيونك، نبرة صوتكِ.

كم نحن وحيدان أمام البياض؟ فلم يبق لي إلاّك لأعبر مسافة الجنون الأخير. من يستطيع اليوم أن يوقظني فقط ليقول لي، صباح الخير يا أجمل عمر. اسمعك، إنك هنا بالضبط هنا، حيث لا أحد غيري يحبك. في انتظار ردكِ صغيرتي البائسة.

مهدي.م

من هنا كانت النهاية .. نهاية الحكاية

باريس

كانون الثاني 1994

هنا مطار شارل ديغول ..

بالضبط في الجمعة الأولى من شهر كانون الثاني الماطر. قادماً من جحيم اِسمه الوطن بلا حقائب، أحملُ معي ذاكرتي ومفكرتي الصغيرة وبعض الروايات الرديئة، وألبوم صور قديمة لا ذكرى لها، ولوحة تشكيلية عارية بلا إطار واِسمها " دفء " ، والكثير من الرماد الأسود جئت به هدية لشخص هنا في هذه المدينة. معي أيضاً القليل من الأمل وبعض الحنين الجارف الذي يجرني حيث عبث الغياب، حيث يغرق الهواء في صمت السحاب الداكن. بحوزتي مسودات رواية كنت قد بدأت في كتابتها في السجن.

المطار مزدحم عن أخره بالوجوه. بوابة الخروج الرئيسية تكاد تفيض من كثرة المنتظرين، منهم من يحمل ورقة كتب عليه بخط عريض اِسم شخص ما، ربما لا يعرفه، ولم يسبق أن التقى به أو لربما لفرط غيابه الطويل نَسِيَ ملاحمه، وأخر هناك في أخر الممر، يقف على حواف الشوق واللهفة والانتظار، يحمل باقة ورد وقبلة وعِناقاً ودُموعاً.

هنا وهناك وجوه قادمة متعبة، مرهقة من ساعات السفر الطويلة. عيون تبحث بشغف عَمَّنْ ينتظرها عند العتبات. عَمَّنْ جاء ليقول لها اشتقتك. وأخرى تمشي دون أن تلتفت إلى أحد. لأنها تدرك جيداً أن لا أحد ينتظرها عند البوابة. هنا امرأة تحتضن طفلها الصغير، وقلبها يتلألأ بحزن دفين، وعلى أطراف عينيها تجمع الألم.

وهناك في الجانب الأخر رجل يمشي مسرعاً وبين يديه صندوق خشبي يضع فيه ماضيه، ويجري كمن يهرب من شيء يلحقه.

أنا أيضاً كنتُ أركض نحو الباب هارباً من الماضي الذي اتعب صدري. وخائفاً من أن تسحقني بشاعة الذكريات وتحولني إلى بقايا صور باهتة الملامح والتفاصيل. أنا أيضاً كنتُ أسابق عمري الباقي كي لا يخطفني الموت فجأة، وأنا لمْ أعِشْ بَعْدُ وهم الحياة، أنا أيضاً لمْ يكن ينتظرني أحد، وحده المطر كان ينتظرني في باريس دون أن أطلب منه ذلك.

ها أنذا في فرنسا أخيراً..

تركتُ كازابلانكا صباحاً. هنا تمطر بغزارة، السحاب الرمادي الكثيف يحجب الضوء ويغطي الأفق البعيد. الجو بارد جداً، لكن ثمة نسمة دفء مفاجئة لا اعرف من أين جاءت، اخترقت كياني وملأت صدري ببعض الحرية الطالعة من أوراق الشجر المبلل، بمجرد ما أن تجاوزت البوابة الزجاجية الكبيرة بخطوة واحدة، حتى أحسست أنني غادرت السجن الذي سكنني وسكنته مدة طويلة، تلك الحظة فقط شعرتُ أنني حر مثل قطرات المطر الباردة التي تتساقط على الرصيف كما تشاء. تملكني شعور غريب يشبه إلى حد ما ذلك الارتياح البسيط الذي كنت أنتعشُ بِهِ من حين لأخر، كلما حل وقت الفسحة الصباحية القصيرة التي كنتُ أقضي فيها بعض الدقائق تحت أشعة الشمس التي تطرد الخوف والصمت المعشش في حجرات السجن، وفي أبوابه الحديدية المغلقة. كنتُ استغلُ تلك الثواني الهاربة من الزمن

لأتمشى قليلاً في الساحة التي يبلغ طولها خمسون خطوة وعرضها أقل من ذلك، والتي كان يحيط بسور بعلو السبعة أمتار أو أكثر، وعلى قمته أسلاك شائكة وقضبان مسننة ذات رؤوس حادة، سُور سَميك وصلب عليه حراسة مشددة من كل الزوايا، عيون الحراس تترصد حركة الأقدام والأيادي المثقلة بِاللَّامُبَالاَة وتسمع كلمات الشفاه المغطاة بعتمة الملل والانكسار.

تكررتْ معي الفسحة الصباحية بشكل يومي طيلة العشْرين سنةً التي قضيتها في زنازين النظام المغربي الظالم، كل شيء كان يعيد نفسه بشكل روتيني قاهر، الحراس، الساحة، السور، الشمس، الخمسون خطوة، صفارة الإنذار، أصوات المفاتيح والأقفال.

كنت أتساءل في قرارة نفسي كلما التصق بصري بالجدار، وقطعت الخمسين خطوة ذهاباً وإياباً، كيف تسير الحياة خارج حدود السجن؟ كيف يمر الوقت وتجري السنوات كيف؟

من عند بوابة المطار.. أخذْتُ طاكسي صغير، كان يقف بالقرب مني، أعطيتُ السائق ورقة كتبَ عليها عنوان أحد الفنادق،، نظر إلي قليلاً، تفحصني جيداً، وكأنه كان يحاول أن يفتح معي نقاشاً أو يسألني عن شيء ما، لكنه تراجع في أخر لحظة، إبتلع ريقه وارتدي صمته، ثم رفع من صوت المسجلة وراح يدندن مع أغنية امازيغية مليئة بالشجن المتخفي في ظلال العتمة، صدى النغم يمتزج بنقر المطر على زجاج السيارة، وصوت رياح عاتية تعصف حول شبابيك البيوت.

المشهد يكاد يكون مغرياً بشيء من النوم أو بممارسة الحب بعد جوع عاطفي وجسدي طويل. كنتُ أحكي في سري بكلمات غير متصلة وغير مفهومة، كلمات لا أعرف فك رموزها ومعانيها، اختلطتْ الأحاسيس بداخلي، وارتطمتْ بقلبي حتى اتخذت شكل الجروح القديمة التي لا تنزف ولا تشفى ولا تنسى أيضاً.

لا أعرف كيف خطر ببالي أن أبادر بالحديث مع سائق التاكسي، ربما كي لا أضيع في عتمة الذاكرة وأداري دهشتي من مدينة استقبلتني بالمطر، أو ربما لأنني لمْ أكن أملك حينها سوى خيار وحيد فقط هو مغادرة الصمت الذي أعيشه حتى لا أفقد قدرتي على الكلام مع الأخر، لمْ يكن في حوزتي كلامُ مُحَدَّدُ أقوله له، غير ذلك السؤال الذي أخرجه من خشوعه المستتر مع أنغام أغنية حزينة، وأدخلني معه في حوار طويل:

- يبدو واضحاً أنك مغربي

لا أعرف لماذا سألته بلغة عربية ونحن في عمق باريس، كان الأجدر بي أن استعمل الفرنسية، لكن ثمة شيء ما جعلني أحس أنه مغربي أو عربي على أبعد تقدير ، ربما ملامحه التي تشي بالوهن العربي الذي نعيشه على طول الخريطة العربية، من أقصى بغداد إلى أقصى طنجة، الكل كان يعاني من ويلات الحروب الأهلية والطائفية والسجون والاغتيالات السياسية والدينية. الخوف ممتد في كل زوايا العالم العربي دون استثناء، الكل يشعر باليتم وعدم الانتماء. نحن العرب أيتام الأوطان، ضحايا الجهل والأنظمة الديكتاتورية.

صمتَ للحظات ربما حتى يستوعب فحوى كلامي ثم رد وهو يخفض من صوت المسجلة قليلاً ودون أن ينظر إلي تماماً:

- أنا جزائري

صمتَ مرة أخرى وشرد ببصره بعيداً، ثم استرسل قائلاً بنبرة حنين مفعم بالحسرة :

- أصلي أمازيغي من قسنطينة ولدتُ وكبرتُ فيها، وأعيش هنا منذ خمس سنوات وسبعة أشهر وعشرة أيام.

ثم رفع بصره صوبي، رماني بنظرة سريعة ونحن نقف عند إشارة المرور، قبل أن نواصل الركض على ذلك الشارع الطويل الذي تزينه أشجار التفاح من الجانبين.

قال بصوت هادئ وبسمة مجاملة تعلو وجهه النحيف :

- أكيد أنت مغربي

اضطرب صوتي وأنا أقول :

- بالله عليك كيف عرفت؟

رد بسخرية مستترة وهو ينظر إلى الحقيبة الموضوعة على حجري:

- من حقيبتك

ثم أضاف مستدركاً بجدية أكبر:

- هذا موعد وصول الطائرة القادمة من مطار محمد الخامس إلى باريس. وبشكل شبه يومي يركب معي مغاربة من باب المطار لكي أوصلهم إلى أحد الفنادق التي تقع على هامش المدينة. وأنت تشبههم تماماً مُتْعَب مثلهم. خائف من مدينة غريبة لا تعرف عنها شيئاً، هَارِب من مدينتكَ التي عرفت عنها كل شيء، لا وجهة لك ولا أحد ينتظركَ. لفرط ما عرفت قصصكم، صرت أشم رائحتكم وسط أمواج المسافرين التي تخرج من بوابة المطار كل يوم.

صمت لفترة قصيرة ثم واصل :

- هكذا ببساطة حقائبكم تتشابه صغيرة، خفيفة وحزينة ومنهكة من كثرة السفر.

ضحكتُ طويلاً من كلامه، واحتفظتُ بالغصة في حلقي. ولمْ أخبره أنني لا أحمل شيئاً في حقيبتي سوى مفكرة صغيرة وبعض الرسائل والصور. لم أبُحْ لهُ بسر الهوان الذي تحمله ملامحنا نحن المغاربة الهاربين من قسوة الوطن. وكيف صرنا نتشابه إلى هذا الحد المخيف.

وصلتُ إلى باب الفندق الذي كان يقع في الجهة الشرقية للمدينة، كان فندقاً صغيراً، لكنه جميل وأنيق بهندسته الأوربية التي تعود إلى القرن السادس عشر ميلادي، كما كان مكتوباً على لوحة رخامية كانت معلقة فوق الباب الرئيسي مباشرة.

دَلَفْتُ إلى الداخل بخطوات مثقلة متعبة، توجهت إلى الاستقبالات، كانت هنالك امرأة عجوز تناهز السبعين من عمرها، تقلم أظافرها، ألقيت عليها التحية وقد طلبت منها البحث إذا كان ثمة حجز باسمي، سلمتها جواز سفري، ابتسمت في خجل مصطنع، بحثت في دفتر من الحجم الكبير كان موضوعاً أمامها، اخبرتني بلغة فرنسية سريعة بالكاد فهمتها: رقم غرفتك سيدي 523 محجوزة لمدة يومين، مدفوعة التكاليف وشاملة وجبة الإفطار التي تقدم من الساعة السابعة صباحاً إلى حدود الحادية عشرة. تم سَلمتْنِي مفتاحاً مكتوب علي حاملته رقم الغرفة وبطاقة عليه بعض أرقام الهواتف التي قد احتاج إليها خلال إقامتي القصيرة عندهم، أَشارتْ بيدها إلى زاوية المصعد، وهي تبتسم بغباء، ستجد الغرفة بالطابق الخامس على اليمين وإذا كنت تخشى ركوب المصعد الكهربائي، تُوجَدُ الدُّرَجُ في أخر الردهة أمامك، وعادت إلى تقليم أظافرها.

يا للمصادفة ..

كنتُ اليتيم رقم 523 بالدار الكبيرة،.وبعد أربعة عشر سنة تبعني هذا الرقم عبثاً إلي المعتقل سميت حينها السجين رقم523 بدرب مولاي الشريف، و الآن بعد عِشرينَ سنةً أنا النزيل رقم 523 بفندق رخيص يقع على هامش المدينة، أنا الهارب من الوطن.

يا للسخافة، كيف لهذا الرقم أن يكون في بداية كل مرحلة اطمح فيها إلى انطلاقة صوب حياة أخرى، إنه يلحقني حَيْثُمَا وَضَعْتُ قدمي، ويكون في انتظاري حيث توجهتُ، يسبقني دائماً إلى وجهتي. فهل

قدري أن أعيش بلا اِسم؟ أنا الذي طالما كان لي أكثر من عشرة أسماء في نفس الوقت. كيف إلى الآن لمْ تنصفني الأسماء؟ وحدها الأرقام تتكفل بالإشارة إلى عابر مثلي، أنا السيد 523، صار هذا اِسمي الجديد، أنا ابن الأرقام، أنا النكرة.

كيف يمضي العمر بهذه السرعة ولا شيء يتغير؟ كل المحاولات باتت بالفشل، وكل السباقات التي خضتها للفوز بما تبقى من حياة، أنهيتها في المرتبة الأخيرة. لا أريد لذلك القدر اللعين أن يطاردني في غربتي أيضاً، جئتُ إلى باريس في محاولة مني لصنع حياة جديدة، وعمر جديد، بعيداً عن الأرض التي أحرقت سنواتي الأجمل، ورمتني حفنة رماد في دوامة من التيه الذي لا أعرف متى ينتهي ولا كيف ستكون عواقبه، جئتُ إلى هنا بعد صمت طويل، للبحث عن المرأة التي لمْ يفارق همسها خيالي طول سنوات سجني، المرأة التي كانت سبب إصراري على البقاء حياً طول مدة الحكم التي قضيتها في العتمة، وسط جحيم أدخلني إليه النظام، أنا هنا من أجل امرأة واحدة سكنت عقلي وقلبي و ذاكرتي، أنا هنا لأقول لها الحقيقة التي تجهلها.

قَضَيْتُ في السجن عِشْرينَ سنة، مَرَّتْ مَلْئَى بحكايات المهانة والذل والخوف، مَلْئَى بقصص الموت والاغتصاب والجنون، أنا ألان رجل أبلغ مِنَ العمر أربعينَ سنة، نصف هذا العمر سرق مني سهواً خلف الأبواب الحديدية المغلقة، والنصف الأخر عشته متنقلاً بين غرفة باردة في بيت الطفولة التي شوهتني من الداخل، إلى غرفة أخرى

أكثر برودة في الميتم، غرفة كبرتُ فيها فجأة، وزادت من خوفي ووحدتي وكرهي للعالم. أنا رجل مملوء حد الغرق بالعقد والأمراض النفسية. أنا مثل فراشة بيضاء تأكلها النار على مهل.

الغرفة 523 ..

أنيقة، بسيطة بأثاثها الأوربي الجميل. السرير كبير ومريح يكفي لشخصين أو أكثر، تغطيه أفرشة ناعمة ووسادة محشوة بالقطن الخفيف، الحائط تَمْلأَهُ صور مُبْدِعِي عصر الأنوار من كتاب ورسامين وفلاسفة، وعلى بعد خطوة من السرير توجد طاولة مستديرة تعبق برائحة الخشب الأحمر القديم، تتوسطها منفضة سجائر من النحاس الخالص، وفي الركن القصيَّ يتربع بيانو إيطالي قديم، مُغْلَقُ على مفاتيحه وأشجانه، يرجع تاريخ صناعته إلى القرن السابع ميلادي، يحتل جزءً كبيراً من الغرفة، وفوقه تقف ساعة دائرية الشكل بحجم الكف، وفي الركن المقابل للبيانو توجد خزانة ملابس صغيرة بطول المتر، وبجانبها لوحة للفنان الإيطالي موديليني، لامرأة بعنق طويل جداً وعيون ضيقة. تحسستُ اللوحة برؤوس أصابعي لمْ تكن أصلية كانت نسخة مقلدة بدقة لا متناهية تحمل توقيع رسام فرنسي عرف بتقليده للوحات الفنية العظيمة، كما قرأت عنه في وقت سابق بأحد الجرائد التي إتهمته بسرقة حقوق الملكية، وبتشويه اللوحات الأصلية.

كان المكان يشبه المتحف نوعاً ما، للمكان شرفة أيضاً تطل على نهر كبير يميل لونه إلى زرقة باردة عند المساء، وفي الشرفة

الصغيرة كرسي متأرجح وبعض النباتات الشوْكية والكثير من الهدوء والصفاء.

أشعلتُ أول سجارة في باريس، وأنا أتأرجح على ذلك الكرسي ببطء. الساعة تشير الرابعةَ وخمس وأربعين دقيقة عصراً.

أحسستُ ببعض الإعياء، لكن لمْ تكن لي رغبة في النوم أو الاستلقاء على السرير، فقررتُ أن أخرج في جولة تفقدية للمدينة ولشوارعها وأحيائها. كان الجو ما يزال بارداً أو ربما ازداد برودة، إلا أن المطر توقف، ارتديتُ معطفي ولففتُ حول عنقي شالاً من الصوف، اخترت شارعاً طويلاً حتى تسهل عليَّ العودة إلى الفندق دون أن أتوه في هذه المدينة.

أشجار الأوكليبتوس العالية، تنتظم على طول الشارع من الجانبين، كما تنتظم أعمدة الإنارة والمحلاَّت التجارية والمطاعم والمقاهي والحانات والواجهات الزجاجية والإعلانات التسويقية، كل هذه الأشياء مجتمعة تَبعثُ في النفس شهوة السير إلى أبعد مكان ممكن، دون الالتفات إلى الخلف.

ماذا انتهى في؟ لماذا صرتُ خالياً فجأة؟

ما الذي مات هنا؟ لم أعد اقوى على فعل شيء، إحساس يشبه التعب النهائي الذي لا يأتي بعده شيء أخر. سألتُ قلبي حينها وللمرة الأخيرة: لماذا صمت الكل وتحول الكون الفسيح إلى ركن ضيق ومظلم هكذا؟

أمشي خمسينَ خطوةً، أخال أن هنالك سوراً كبيراً وصلباً يقف أمامي، يمنعني من التقدم إلى الأمام. أقف قليلاً أحاول أن اقنع نفسي بعدم وجود ذلك السور، وأنني حر لمْ أعد سجيناً، في تلك اللحظة ادخل في صراع عنيف مع هواجسي الوهمية، عقلي يرفض الانصياع للحقيقة، وقدمي تعجز عن الحركة. لماذا لا أستطيع أن أمشي هذه الخطوة القصيرة؟ لمْ أعد أعرف الحد الفاصل بين الحقيقة والوهم، صرتُ سجين ذاكرة الوجع الذي لا يموت. شعرتُ بقلبي يغادرني، يتسلل مني بخطوات ثقيلة، اختلطتْ عليَّ الأحاسيس وتناسلت الأسئلة في أعماقي. لماذا جئت إلى هنا؟ لا أعرف بالضبط، كل ما أعرفه أنني كنت ملزماً بالرحيل من ذلك الوطن العفن، لمْ يلزمني أحد بذلك، وحدها ذاكرة الحنين ألزمتني بركض وراء المبهم والتعلق بخيوط قصة انتهت قبل زمن طويل، و لأنني لمْ أعد أملك سوى خيار التعلق بهذه الخيوط رغم هشاشتها، لأن العودة إلى الوراء صارتْ مستحيلة، لا يهم إن كنت قد اخترت المكان الصحيح أم لا، فأنا لمْ يكن لي يوماً حق الاختيار، حتى هذه المدينة لم اخترها بملء إرادتي ربما هي من اختارتني بإرادتها، أو لعلها الصدفة من عصفت بي إلى شوارع باريس في هذا اليوم الشتائي الممطر،المطر هنا شيء آخر نوستالجيا وحنين ورجوع إلى المشترك فينا، المطر هنا حضن دافئ يوقظنا من عز نومنا، الممطر هنا شهي ومختلف، يغري بالجنون ويغري بالصمت أيضاً، يغري بكل شيء حرمت منه كعربي منبوذ.

بينما أنا عاجز عن التقدم خطوة أخرى في ذلك الشارع الطويل، لمحت حانة صغيرة بالقرب مني على جهة اليمين، تقبع في

زاوية تقاطع بين الشارع الرئيسي وأحد الأزقة الضيقة، لمْ أفكر كثيراً، دخلتُ إلي المكان متثاقلاً، كمن يكتشف للمرة الأولى شكل الحانات الباريسية، ودون نية مسبقة في الشرب، وجدتُ نفسي وسط شاعرية المكان الغارق في موسيقى باخ، وتحت سطوة الضوء الأحمر الخافت، الذي ينعكس بشكل هلامي على الكؤوس والكراسي والوجه والشفاه والعيون والأقدام والأصابع.

كان الفضاء مزدحماً بالرجال وبالنساء الجميلات، الشهيات، دهشتُ من زخم الأنوثة الطاغية، كأي رجل لمْ يلمس جسد امرأة منذ عشرين سنة ويزيد، الجوع لممارسة الجنس مع أي امرأة كانت، مرسوم على أخاديد وجهي، والعطش لشرب زجاجة خمر دفعة واحدة مرسوم على شفاهي الجافة.

جلستُ إلى طاولة بمقعد واحد فقط، طاولة مخصصة للغرباء مثلي، الذين لا رفيق لهم ولا صديق يشاركونه قنينة نبيذ، أو كأس ويسكي، أو لعل المجتمع الأوربي صار يعيش حالة انشطارٍ وتَشَظٍّ حالة اغتراب. فلم يعد من الممكن أن تجالس بسهولة وعفوية أي شخص على طاولة واحدة لحظة انتشاء.

طلبتُ من النادلة قنينة نبيذ أحمر، وعلبة سجائر مالبورو، قدمتْ لي بدورها لائحة تضم أنواع النبيذ المتوفر عندهم، اخترتُ بشكل عشوائي أحدها، لمْ يكن يعنيني ما اسمه، أحببتُ أن أسكر فقط، وليكن من أمري ما يبتغيه القدر وما تبتغيه الليلة الأولى في باريس، اشتهيتُ أن أهيم وأذوب مع الموسيقى، علاقتي بالنبيذ لمْ تكن

جيدة، لمْ يكن يرقني احتساؤُهُ في الفترة قبل أن أسجن، كنتُ أفضل الويسكي منتهي الصلاحية فقط. وقررت فجأة أن أغير من كل شيء حتى تلك الأشياء البسيطة، أردت التصالح مع كل شيء حتى النبيذ الأحمر.

أحمر أقشر .. أحمر بلون الدَّم، مر المذاق قليلاً

سكبتُ أول كاس، ورفعت نخب الوطن، نخب الرحيل الأبدي، نخب من كانوا هنا يوماً، نخب من لن ألتقي بهم مرة أخرى في هذه الحياة. نخب أمي التي اختارت قتل حبيبها لحظة غيرة حارقة، حتى لا يكون لامرأة غيرها. نخب أبي الذي ألبسني عقده الكثيرة وأمراضه وملامحه. نخب أبي الذي خان المرأة التي ضحت بكل شيء من أجله، وفي لحظة خاطفة قرر التخلي عنها، أبي الذي مات مقتولاً بشكل بشع على يد أمي. نخب الهزائم التي لمْ تعد تعنيني. نخب السنوات التي ضاعت بين الضباب ووهم القضايا الكبرى. نخب رفيقة النضال التي جاءت بي من كازابلانكا إلى باريس لأفتش عنها، دون أن أفكر لماذا جئت بعد هذا الفراق الطويل.

سيدتي أينما كنت الآن هذه كأسك وحدك ...

غادرت السجن قبل شهر ونصف تقريباً. أعز ما أطلب اللحظة هو أن أحصل على فرصة أخيرة للحياة، ولكي أكتب قصتي كما كنت اشتهي أيام حبسي المرير، حيث كان مدير السجن بنفسه يفتش أّغراضي من حين لآخر، وكلما وجد بحوزتي كتابات مزقها أو أحرقها أو

وضعها في الحمام ليستعملها في تنظيف مؤخرته. لمْ يكن مسموحاً لي بالكتابة، حتى الخواطر والقصائد العاطفية، كانت ترعبه. إلا أنني كنت عنيداً جداً حيال هذا الأمر، لمْ أتوقف ولا لحظة عن إزعاجه بمحاولاتي الكثيرة على الكتابة.

فقد كنت أحصل على الأوراق والأقلام من أحد الحراس، مقابل مساعدته في التحضير لامتحاناته الجامعية، لأنه كان طالباً في شعبة الأدب الفرنسي، كما كان يزودني أحياناً ببعض الروايات والكتب الفلسفية التي كانت تمنحني القليل من الضوء وسط ظلمة كل يوم كانت تتسع قليلاً، ووعد إياي أيضاً ذات مرة بأنه سيكون قارئي الأول، يوم تنشر كتاباتي.

كان يتعاطف كثيراً مع رغبتي الكبيرة في أن أكتب أوجاعي على الأقل، سيما بعد أن عرف قصتي وسبب وضعي في السجن، كما أنني لامست في دواخله بعض الرفض اتجاه النظام الملكي وسياسته الديكتاتورية الهمجية، وأنه لمْ يكن يرغب في العمل كحارس سجن، لولا ظروف الحياة التي فرضت عليه قوانينها القاسية، لأنه أكبر إخوته ومعينهم الوحيد بعد وفاة أبيه من لسعة عقرب صحراوي في المسيرة الخضراء، كحال كل من صدق كذبة النظام السخيفة، ووجد نفسه على سبيل الخطأ أو على سبيل الجهل في مواجهة الموت والبرد والجوع والعطش، لأجل أرض لا تستحق كل تلك التضحية المشحونة بالعواطف الوطنية الزائفة. النظام استغل الفقراء وسكان البوادي وساقهم في شاحنات كبيرة كالأغنام إلى الصحراء الغربية، بعد أن

وعدهم بالحصول على مساكن وضيعات فلاحيه ومناجم الذهب والفضة وأبار النفط والغاز التي تركها الأسبان خلفهم، بعد أن تم وضع بنود اتفاقية مدريد على طاولة المفاوضات.

صدق الكذبة ربع مليون بائس وفي الأخير لمْ يجدوا شيئاً غير الأفاعي والعقارب والرياح الساخنة.

الوقت مر سريعاً خارج أسوار السجن المدمر، كل شيء تغير، تزايد عدد السيارات، وأصبحتْ الشوارع مكتظة بالناس، المقاهي منتشرة في كل زوايا المدينة، الأزبال تملأ الأزقة، انتشار مهول لأحياء الصفيح. استطاع النظام الحاكم بسياسته القمعية النجاح في تحويل الشعب المغربي إلى قطيع من البهائم الناطقة التي استحلت مع مرور الأيام حياة المذلة والهوان. صار الوضع أكثر مأساوية مما كان عليه قبل عقدين من الزمن، صار للمدينة وجه قبيح آخر، وصار للوطن نزف آخر، وصار لي سبب آخر للرحيل من أرض كل يوم تتعفن أكثر.

لو فقط يدرك ذلك الوطن كم خسرنا من العمر لنحافظ عليه، لو يعلم كم تعبنا ونحن نشق طريقنا إليه، آه لو يعتذر لنا الوطن ولو قليلاً، ولو قليلاً.

ومثلما يغازل أول المطر أغصان الشجر اليابسة، انتشلني صوت نسائي من ذاكرتي من عذاب تلك الفترة الموغلة في التوحش، همس رقيق يطابق إلى حد بعيد ذلك الارتياح الذي نحسه بعد الإقدام على ارتكاب حماقة ما.

اقتربتْ مني أكثر، مدت يدها بغنج لتصافحني، أحسستُ أن يدي أصيبت بشلل وأنا أمسك بأصابعها الرقيقة، أقف من على الكرسي مرتبكاً. يدها الناعمة قريبة مني لا بل كانت في راحة يدي، أرفع رأسي بهدوء متشنج، شفاهي أيضاً كانت مشلولة ولساني تملكه عجز كبير، لمْ أقدر على رد التحية أو دعوتها للجلوس. هل فقدت القدرة على الكلام فجأة؟ أذعنتُ لصمت لأنني لمْ أكن أملك حينها ما أقول في موقف ملتبس كهذا.

يبدو أنني ما عدت أعرف كيف يكون التواصل مع امرأة، لأنني عشت عمراً طويلاً بين حراس السجن والمساجين. أصبحت لي لغة خاصة بالمعتقل، مفاهيم أخرى للحياة والموت غير التي تروج بين الناس. العالم الذي جئت منه لمْ يكن فيه نساء. كان فارغاً من كل شيء.

ودون أن تأخذ مني الإذن بالجلوس، سحبتْ كرسياً كان بجوار طاولة قريبة منا، جلستْ قبالة توجسي وارتباكِ، أخذت سيجارة من العلبة المارلبورو. أمَّا أنا فلم أكن أبحث عن كلامٍ أَقُوله، بقدر ما كنتُ مشدوداً إلى أصابع يدها، إلى تفاصيل صغيرة جداً في حركاتها، أتأملها لاستعادة ما مات مني في ظلال السجن، بأكثر ما يمكن من تركيز.

نظرتْ إلي بعينين تتدفق منهما أمواج الأنوثة وهي في عز اهتياجها، استولتْ علي الدهشة وأنستني الحمرة التي على شَفَتَيْهَا أن اعزمها على كأس نبيذ، هذه المرة الأولى التي أكون فيها وجهاً لوجه مع امرأة غريبة لا أعرفها ولاتعرفني، بعد خروجي من السجن. لا أذكر

سوى أنني أخر مرة مارست فيها الجنس كانت قبل يوم من اعتقالي، ذلك اليوم الذي يبدو الآن بعيداً جداً.

الآن كل شيء متاح أمامي وعلى رجل مثلي، أن يتدبر أمره قبل أن تضيع الفرصة من بين يديه. امرأة جميله وقنينة نبيد أحمر وموسيقى وضوء خافت، لا ينقص شيء سوى أن أكسر الصمت بكلمة، كان ضرورياً أن أقول أي شيء، حتى لا ينتهي هذا المساء سريعاً وتموت كل رغباتي السرية في صدري، وأعود الى الفندق وحيداً. لا أريد أن أعود وحيداً لتلك الغرفة. أشتهي اليوم رفقة، أشتهي جسد امرأة حتى لا يزداد ذلك الفراغ في روحي اتساعاً، أنا الهارب من الغور السحيق، كيف لي أن اصنع مساء خارقاً وجميلاً.

قالتْ بنبرة هادئة ومدمرة في الآن ذاته :

- مرحبا

أرد مرتبكاً، وقد غابت الدماء عن وجهي فجأة، وانهار كل شيء أمامي :

- آسِف لمْ اسمعك، اهلاً

- اِسمي صوفيا

لفرط ما كنت مرتبكاً وسط عبثية الضوء والظل والشهوة المكبوتة. وفي اللحظة التى كنت أتوقعها الأقل. جاءت على مرمى اشتهاء، لمْ يكن لدي الوقت لأسألها، لماذا؟

طبعاً لا أذكر ماذا قالت بعد ذلك. ذات لحظة راودني إحساس بأنني لستُ معنياً بهذا الكلام، وأنني أتوهم فقط جلوس امرأة أمامي على الطاولة، تدخن سيجارة وتنفث الدخان من فمها وأنفها صوب وجهي مباشرة، وأنها لا تستحق كل هذه الأحاسيس التي اجتاحتني، وأن كل ما يحدث الآن، مجرد هلوسات سمعية وبصرية، جعلتني أخلط بين الواقع والخيال. تماماً كما كان يحدث معي دائماً حينما أدخن الحشيش أو أفرط في شرب الويسكي المعتق، أو حينما تسرقني تلك الساعات الطويلة من التفكير والكتابة، إلى درجة أنني كنتُ أحسُ بوجود أربعة اقزام يجلسون على كتفي الأيمن وأحياناً فوق أصابع يدي، يحاولون دفعي لإنهاء حياتي بذريعة كتابة نهاية جميلة تليق بالقصة التي أعتكف على كتابتها، وما هي في الحقيقة إلا قصتي أنا.

ربما هذه المرة الأولى التي أطيل فيها النظر إلى شيء، أشك في صدق وجوده أصلاً. في الواقع لمْ يحدث أبداً خلال نوبات هلوساتي أن زارتني امرأة، كلهم كانوا اشباحاً لهم وجه قبيح، إلا هاته لا تشبههم.

صرتُ أعرف أن لا شيء مما يحدث معي حقيقياً، وقليلاً ما أذكر أنني تملصتُ من موقف مخيف كهذا، رغم أن الوضع أَصْبَحَ لا يطاق، صار يشبه حكايات الكتب الرديئة التي كنت أقرأها في السجن لأنها

كانت الكتب الوحيدة المتوفرة والمسموح بدخولها إلينا، نحن السجناء السياسيين.

كانت بي رغبة في أن ألمس يدها أو المس شعرها. لكن كنتُ قد يئست من هلوساتي السابقة ولمْ أعد أصدق ما تراه عيني أو تسمعه أذني. إنني أعيش حالة من الدوار والجنون، ربما فقدت عقلي وما أحسه الآن مجرد تهيئات سخيفة، ولذا قررت أن أباغتها بانصرافي المبكر. فوقفت وتوجهت إليها بكلمات أردت من خلالها إنهاء سهرتنا التي لمْ تكن قد بدأت بعد.

- تشرفتُ بمعرفتكِ سيدتي

وجاء جوابها كلمة واحدة :

- طبعاً

وَقَفَتْ، أحسستُ بِهَا تودعني بصمت واستغراب، تركت لي ما يكفي من المسافة لأغادر الطاولة، مَرَرْتُ أمامها ببطء متعمد، ودون أن يلامس جسدي جسدها تماماً، قطعتُ المسافة التي لمْ تكن سوى نصف خطوة.

أحياناً نحتاج إلى مواجهة مخاوفنا والنظر إليها بعمق حتى نكسر جدار الخوف بيننا وبينها. ونخمد الحرائق الكبيرة التي تآكلنا في ظلال الصمت. لا أعرف هل كان ضرورياً إلى ذلك الحد أن انظر إلى عينيها السوداويتين تلك النظرة الخاطفة وكأنني أبحث في العتمة عنْ شيءٍ ما، عنْ شيءٍ مُرْبِكٍ ومُغْرٍ في الآن ذاته. أمر وسط موجات عطرهَا الذي علق بجسدي والتصق بكل حواسي التي بدأت تتضاءل وتضيع فجأة،

منذ تلك اللحظة لمْ يعد بإمكاني أن أركز على أي شيء مما يحدث لي. في تلك الثواني الهاربة توقف الزمن قليلاً، وإحتك صدرها بكتفي حين كنتُ أحاول عبثاً لإبتعد عنها قدر الإمكان وعدم لمسها. لمْ أعد أدري أكانت حقاً مجرد ثوانٍ أم ساعات طويلة؟ هل كانت المسافة بيننا نصف خطوة فعلاً؟

لمْ تُكلف نفسها مشقة النظر إلي. كانتْ عَيْنَاهَا مَرْشوقتَيْن في الفراغ، تبحثان عن شيء، أو تهربان من شيء غامض. وكأنها لمْ تعد تأبه بوجودي من عدمه.

صارتْ كل هذه الأفكار تراودني، وأنا أعد نفسي للخروج من الحانة، حتى لا أقول للهروب منها. ربما لنْ أَغْفِرَ لنفسي أبداً كيف اتجهتُ إلى الباب بتلك السرعة، وأنا أتحاشى الالتفات إلى الخلف، كي لا تهزمني شهوة الفرصة الضائعة عبثاً. تخطيتُ العتبة، وكانت ثمة أسئلة كثيرة تغازل عقلي برقة. أردتُ أن أنتشي بمدى غرابة تلك الأسئلة، وبمدى استحالة الإجابة عنها.

لمْ يكن مهما لحظتها أن تكون تلك المرأة حقيقة أم وهماً جميلاً. بقدر ما كان مهماً أن أتقاسم معها لحظات من الرغبة الصامتة. ولحظة واحدة من الفراق السريع. أردتُ حينها فقط أن أطيل انشغالي بتفاصيلها التي لمْ يحدث أن أُنتبهَ لَهَا الآخرون يوماً.

أكبر خسارة حلتْ بي تلك الليلة، لمْ تكن قصة عودتي إلى الفندق وحيداً. بل كانت صورة المرأة الموشومة بخيالي، والتي لا أعرف

عنها شيئاً، سوى اِسمها وعطرها. ولا طريقة لي لأستدل عليها مرة أخرى وَسطَ مدينة كبيرة لا تنمح الصدف الجميلة كل مساء.

لا أعرف بالضبط ماذا حدث ولا كيف حدث. كنتُ محبطاً إلى أقصى حد. وكنت جائعاً ليس للأكل ولكن للجنس. استلقيتُ على السرير عارياً تماماً. بعد أن أخذت حماماً سريعاً. وأشعلتُ المكيف لأجل تدفئة الغرفة. صار الجو لطيفاً للغاية. شربتُ بعض كؤوس النبيذ الأحمر الذي كنت قد جلبته معي من الحانة.

ثم رحتُ أتخيلها بجانبي على الفراش. تضعُ أصابعها الطويلة على صدري، تحركها كما لو أنها تعزف على أوتار غيتارة. بنفس النعومة والشراسة. تتحسس شفاهي داخل هذه العزلة الجميلة، تسحبني نحوها بقوة، أصبحت فوقها أخيراً. بدا لي الأمر في البداية أشبه بالحلم. لمْ أصدق أننا صرنا على نفس السرير بهذه السرعة، وأنها ملكي هذا المساء. تأملتها بشهوة واضحة وخوف ضامر، شعرتُ بالدم يتدفق في عروق يدي. اِسْتَسْلمتْ إلى ذراعي، وكانت عارية وناعمة كالماء، دافئة وشهية. نمتُ على صدرها سكران وأنا أرضع بنهم نهديها الممتلئين وأمصُ العرق من عنقها ولسانها وأعض على شَفَتَيْهَا، وأوغل في فرجها بعضوي المنتصب والمنتفخ. هي كانت مغمضة العينين، وكأنها غائبة عن الوعي لا تحس بشيء. أنا أيضاً كنت أفتح عيني بصعوبة كبيرة .

كل شيء احترق و تحول إلى رماد. شعرتُ بالمني يخرج ساخناً من عضوي ويسيل على أصابع يدي اليمني. أدركتُ حينها أنني كنتُ

أسْتَمْني على طيف امرأة. شيء ما بداخلي كان قد بدأ في تغيير حركته المألوفة منذ سنوات. اجتاحتني رغبة كبيرة في البكاء. لا أعرف لماذا انتابني ذلك الشعور غَيْرُ الْمعهود في مثل هذه اللحظات، وكأن جسدي صار يرفضُ لعبة الخيال والتشهي المكبوت. لمْ يعد يكتفي بنفسه.

هذا أنا، وهذا حزني الخفي، هذا أنا من لحم ودم ووجع. كل ما سأقوله حدث معي في السنوات الماضية ولمْ أكن أملك الشجاعة الكافية للبوح به حتى بيني وبين نفسي. من هذا الباب الذي ظل زمنا مغلقاً وأتخذت اليوم قراراً بفتحه. فأنا بحاجة ماسة لذلك لأن صدري لمْ يعد يقوى على الصمت أكثر وجسدي لمْ يعد يطاوع رغبتي.

لأول مرة ومنذ زمن بعيد جداً. لمْ أحس بالمتعة التي طالما انتشيتُ بهَا سراً تحت الفراش. تعلمتُ في الزنزانة كيف أصنع تفاصيل النساء في خيالي، تعلمتُ كيف أكتفي بوهم الجسد على حافة العطب الأكبر. تعلمتُ كيف أشرع رغباتي وشهواتي وأمضي برفقة نساء لا وجود لهن إلا في دماغي. أضاجعهن كلما سنحت الفرصة بذلك. كنتُ أنتظر إلى أن ينام رفاق الزنزانة جميعاً. حتى أستطيع أن أستحضر بارتياح كبير إِحْداهُنَّ إلى سريري أحضرها بكل تفاصيلها الكبيرة والصغيرة. لا أنسى شيئاً منها. لون بشرتها وشعرها وعيونها، شكل نهدها وحجمه، نبرة صوتها، طول أصابعها. كان المشترك بينهن جميعاً أن لهن أصابع طويلة ورقيقة فقط. في كل ليلة كنتُ أمارسُ الحب الخفي تحت لحاف من الصوف الخشن. دون أن يدري أحد بذلك. كنتُ أرمي

بنفسي وسط الخيال وبين أحضان الكذبة الكبيرة التي تقول أنني عاجز عن ممارسة الجنس مع امرأة.

كنتُ أمارس الجنس مع قصاصات ورقية من مَجَلَّاتٍ نسائية، تعرض الملابس الداخلية. كنتُ أحصل عليها من بعض الحراس وأُخْفيها بين صفحات المصحف الكريم. لمْ أكن الوحيد طبعاً من قام بذلك الفعل. الكثير من الرفاق إن لمْ أقل كلهم كانوا يقومون بالاستمناء على صور نساء يعرضن حَمَّالَات الصدر أو أدوات التجميل أو الحلاقة. ما أن ينطفئ ضوء المصابيح عند الساعة العاشرة ليلاً، حتى نبدأ باستقبال زائرات منتصف الليل. لمْ يكنْ أمامنا إلا أن نذهب نحو خيالنا الحر؛ لأن أجسادنا كانت سجينة والحياة لمْ تمنحنا ما نشتهي؛ ولهذا كنا في حاجة لمنح أنفسنا ما تشتهي بواسطة الخيال. الخيال وحده كان قادراً على استيعاب فكرة موتنا القادم والمحتوم. ما عاد الخيال، الحياة ليست بكل هذه الدهشة.

والقليل منا لمْ يكن يسعفهم خيالهم الضيق، فكانوا يمارسون الجنس مع بعضهم البعض دون خجل أو استحياء. نعم سأكون صادقاً مع نفسي ولو لمرة واحدة، أنا أيضاً مارستُ الجنس مع الحارس الذي كان يزودني بالمجلات النسائية والكتب والأقلام. كنتُ التقيتة في الحمام الخاص بموظفي السجن قبيل الفجر، وفي الفترة التي كان يداوم فيه صباحاً، كنتُ أشغل نفسي بكتابة هذه النصوص المتناثرة بصفتها قصتي وهذا أحد أوجه القبح والعار فيها. حينها لمْ أكن أتفطن إلى بشاعة الجرم الذي أقترفه ضد جسدي فقد أوصلتني رغباتي

الشاذة إلى أقصى درجات الحقارة. كنتُ أحقد على نفسي أحياناً وأشفق عليها أحياناً أخرى.

اليوم الأول بعد عشرين سنة، أشتهي فعلاً عري امرأة حقيقية من لحم ودم ووجع مثلي. امرأة تنعكس على خصرها أضواء باريس الباردة. امرأة تلمسني، تشتهيني، تحرقني بنارها، إمرأة تشبع جوعي وعطشي، إمرأة تندفن شيئاً فشيئاً بصدري، تتأوه كمن يتألم، تلتصق بي، وتتركني أتهاوى بين نهديها كورقة شجر ذابلة.

اليوم أقول إنني يَئِسْتُ من انتظاري، وسَئِمْتُ من كل شيء، وأن اللعبة التي كنتُ أَتَخيَّلُهَا طول تلك الفترة، مجرد ترفيه عن روح وتفريغ لشهوة مكبلة، صارتْ فجأة حقيقة مرة تطاردني أينما رحت.

ليكن لمْ تعد اليوم تلك الحقائق المفجعة مهمة بالنسبة لي.

نمتُ طويلاً وعندما استيقظتُ لمْ أجد غيري، فاكتفيتُ بصوت المطر وبي. ارتديتُ ثيابي ثم خرجت باتجاه الجسر الكبير. تركتُ كل شيء خلف ظهري وجئت محملاً بالرياح وعواصف الخيبة.

نَجْمَة حبيبتي.. وحبيبي.. ووطني.

أيها العصي على القلب والذاكرة. أرغب في أن التفت نحوكَ بكل هزائمي وقبحي وأقول لكَ أمام هذا النهر الواسع إنني أحبكَ، وأفهمكَ قليلاً، ثم أمضي داخل مبهم لمْ أعد قادراً عليه. ابحث عنكَ في عمق الاستحالات الكثيرة التي تحاصر الجسد الهش من كل الجوانب.

نمت طويلاً وعندما استيقظتُ حضرتَ أنتَ. أريدُ مِنْكَ لمسة خفيفة تشفي القلب من جرح تسببت أنتَ فيه. ساعدني لأمحو عني ذكريات الخوف. مضى زمن طويل ولمْ تغادرني فهل تأذن لي بأن أغادرك الآن. كل الأحلام التي جمعتنا كانت مظلمة سوى من لهب شمعة كانت ترتعد بيننا، فكانت ترسم معها ظلالاً مشوهة وناقصة، سوى من سماء كانت جافة كما الموت.

ماثلاً تحت المطر بقيتُ طويلاً. إذا كنتَ ما زلت تريدني فخدني بكلي وبعضي، فقد أصبحتُ وحيداً بعدكَ. تحسسني بِرِفْقٍ إذا كنتَ ما تزال تشتهيني، فقط لكي لا أضيع من بين يديك وأتبعثر في مدينة باردة وغائمة طول الوقت، وكي لا يتبعثر رماد هذا الجسد المستباح على رصيف الغرباء.

أنا هنا لمْ أتغير إلا قليلاً، وأنتَ هناك لا أعرف كيف صرت في غيابي. لا تَخُن انتظاري هكذا بهذه البساطة والسخافة. وأنتَ تعرف أنني لن أغيب إلا فيكَ. كما الألم الخفي سأتسربُ اليكَ. يوجعني غيابكَ وتوجعني أكثر فكرة أنكَ تزهر حيث الغياب. لمْ أعد أشتهي شيئاً سوى أن أغمض عيني وأفتحها عليك هنا بقربي على حواف الماء. لملمني كي لا أنطفئ كما الشمعة التي شوهت أجسادنا عبثاً ذات مساء.

شيدني من حطام العمر الذي مضى في غفلة منا. ضاعت مني المسالك والسبل ولن أجدها إلا فيكَ. مثقل أنا بكَ مفعم بتاريخ الوجع الذي بيننا، وبالموجة العالية التي دائما تعيدني إليكَ كصدفة بحر

صغيرة هاربة. وإذا أراني لا أراني إلا فيكَ. اقتربْ مني خُذْنِي من كفي على حين غفلة. فقد خانتني الألوان كلها وتبعتكَ حيثُ المنافي والنهايات. أنهكتني الأسئلة التي تُعيد نفسها كل حين. وأنهكني صقيع الحياة وشراستها.

نجمة .. حبيبتي

أنهكني الوقوف على متن غيمة شاردة. كيف لي أن لا أراكِ وأنا لا أرى غيركِ، امرأة لم تكبر وظلت واقفة تحت المطر. تنتظر بشغف، حفنة صغيرة من الفرح الغريب، والكثير الكثير من الرماد الأسود.

كم من الكلام أحتاج فقط لأخبرك حبيتي ورفيقتي الغائبة. أنني سأسبقكِ نحو صمت النهاية بإرادتي، كي أشاركك أخيراً أنفاسي على انفراد ووحدنا. لا تسأليني كيف ؟

لو تدركينَ فقط حجم الحسرة التي تنهش جسدي بصمت صارخ، وتجعل مني مجرد رجل منطو تحت وابل من المآسي، ولا يدري كيف يضع حدوداً لتلك القصة التي استولت على أعماق نفسه.

كيف لي أن لا أراكِ يا هبل التفاصيل الجميلة. قدري الأوحد أنتِ. فلا تحمليني قسوة كل هذا الغياب. أسمعيني ثم امضي حيت تشائين. صوتي لمْ يعد قادراً على الصراخ وذاكرتي أثقلتها الهزائم. امنحيني فرصة أن أسكنك للمرة الأخيرة ولو للحظات.

الأمطار زادت من قوتها، الصحيفة التي لم أقرأها كانتْ قد اِبتلتْ في يدي، وأنا أقف متصلباً على ضفاف نهر السين. رائحة التراب المبلل كلمَا شَمَمْتُها، انسحبتُ نحو الذكريات الملتصقة بالقلب كالجرح العميق، الذي كلما رتقناه زاد اتساعاً.

صار يساورني شك كبير في أن الزمن الذي سنلتقي فيه قد لا يأتي أبداً. أنا هنا فقط لأراك وأتأكد أنكِ مازلتِ رفيقة الدروب المنسية. كم من صدفة عابرة مرتْ بي ومسحتْ كل النساء من حولي، إلا رموشك المثقلة بندى الفجر ظلت أمامي. وكم دهشة خفية أصابت العقل حد الخوف. ولمْ توقف القلب عن الخفقان والركض وراء رائحة أرضكِ الأولى التي فقدت كل ما كان لها من ألقٍ ودهشةٍ فجأة.

كيفما كانت الأوهام والأمراض والعقد التي تسكنني اليوم. وكيفما كانت النهاية، حتى لو كانت موجعة جداً و قاسية، لن أندم على حب امرأة صنعتها بأناملي ولغتي وعلى مقاس جنوني.

لمْ أكن أعرف أن السؤال الذي رتب كل أقداري. سيصبحُ خوفاً ثم عتاباً ثم غياباً ثم لا شيء. ما أدهش أن تكوني أنتِ من سكن جرحي الأول، ومن اقترفت معه خطيئتي الأولى. سأنتظركِ على عتبات الماضي التي التقينا في ظلها خلسة.

متي تدركين أنني منحتك كل شيء، ونسيت أن أترك لنفسي أي شيء، لمْ أترك لي ولو مساحة صغيرة للعودة إلى الوراء. ونسيت أن لي تاريخاً بشعاً يشبهُ القصص المضحكة، يجب أن أصححه قبل أن

أفترش الغيم الساكن. لنْ أقدم لكِ تبريرات ساذجة، أنا أول من يرفضها.

هل خسرنا بعضنا فَجْأةً أَمْ غباؤنا المتوارث أَوْدى بنا إلى جحيم صنعناه بأيدينان وإلى قطيعة أبدية ما كنا نتوقعها بهذه الشراسة.

أصبح المطر سيلاً بلا توقف، وأنا مازلت واقفاً على الجسر الكبير. يحدثُ أحياناً أن تأخذنا دهشة الأماكن والحنين العابر. فنتجمد مكاننا بلا حراك، نحس ونغيب في الغفوة، وننسى أن المطر يأتي ثم يمضي ولا شيء يتغير. أعترف أنني لمْ أتعلم من هزائمي السابقة. وأن الحسرة تكبر في كل ثانية. إذ أظن دوماً أنها بعيدة، أجدهَا في صدري تتمدد وتكبر وتكبر.

أنا في باريس التي أهوى. مطر هذه المدينة مختلف لا يشبه باقي مدن العالم. هنا المطر غيوم ملونة تضيء القلب وتمسح عنه الخوف القديم الذي يلبسه. المطر هنا ليس ككل الأمطار فقد جعلني أنسى لثانية أو إثنتين، أن قدراً غير منتظر يتقدم نحوي خطوة خطوة. هذا المطر الذي ينقر على كتفي الآن، يجرني من يدي ويسحبني إليكِ، إلى حماقات الطفولة التي قضيناها معا في الميتم، يوم لمْ يكن لنا إلا بعضنا، حين كنا نتخفى من غزارة المطر تحت شجرة الزيتون السخية التي حفرنا على جذعها أسماءنا. حين كنت تتشبثين بمعطفي وتغمرين رأسك بصدري وتقولين بنبرة ترتعد من شدة البرد : لنركض قبل أن تزداد غزارة المطر، فأرد ضاحكاً بمكر طفولي خفي: عانقيني أكثر

وستحسين بالدفء قطعاً. فأجدك عبثاً قد تركْتِ يدي، ووقَفْتِ بعيداً تحت مطر يرفض أن يتوقف.

المطر ينزل الآن من أجلنا، فيه قصصنا الكثيرة، طفولتنا البعيدة، فيه ذاكرتنا المشتركة، صار من حقنا التمادي في جُنُونِنَا الذي كنا قد بدأناه قبل ثلاثة عقود أو أكثر ، ومن حقنا أن نتشكل من جديد كما الشهوة تريد وكما يشتهي الحب.

العمر واحد ليس أكثر، ومن حقنا أن نكون هنا معاً على أرض رطبة وشهية، حتى ولو كلفنا الأمر الكثير من الانتظار.

أعرفُ أن هذا طريقكِ، وستمرينَ حتماً من هنا، من هذا الجسر وهي تمطر، وحين المحك لنْ يخطئك قلبي، سأجري صوبكِ بملء إرادتي، وأرتمي بِكِ كما الأطفال، لتعرفي كم من الشوق والهبل مخبأ لك بداخلي، وألتصقُ بكِ للمرة الأخيرة، وأصيح بصَوْتٍ عَالٍ : أنا هنا، لا شأن لي سوى أن أحضنك قبل أن يتوقف المطر.

غداً عندما نلتقي صدفة في باريس، سنحتفل بعرس طال انتظاره وطالما حلمنا بِهِ. سنرقص تحت أضواء الشوارع كما لو أننا فراشتان. حين نلتقي هنا، لنْ أقول لكِ كلام المنافي والحرقة والخوف.

نجمة، هل لي أن أسأل عنكِ اليوم. فأنت هنا في هذه المدينة، وبيتكِ يطل على النهر ويجاور الكنيسة الصغيرة. أخبرتني رسالتكِ التي وقعتْ بين يدي ذات صباح. أنك سبقتني إلى باريس، حين أطلق سراحك وعَفَا عنك النظام، مقابل قوائم الرفاق التي قدمتها بدم بارد

إلى يد القتلة. كيف أنسى أنني خذلتُ القضية لأجلك. وهل النسيانُ يُشْفِي الذاكرة من أوجاعها فعلاً كما يقال.

* * *

من لمعة الشمس الأولى، ونفس الحرية الأول، إلى محاولة البحث عن نجمة وعن أخبارها. لمْ أقبل بأن أتجاوزها هكذا بسهولة، وكأن شيئاً لم يكن. كنتُ ممتلئاً بِهَا، ويصعبُ علي أن أمضي في الحياة دونهَا. لا طاقة لي في تحمل سنوات أخرى من الغياب وألمٍ آخر، كيف ما كان لونه وسببه.

بعد أن أنهيتُ مدة الحكم، وغادرتُ السجن توجهتُ إلى مدينة وجدة الشرقية، وكلي أمل في أن أسمع عنها خبراً جميلاً كما أشتهيه فعلاً. فقد أكلتني الأزمنة التي مضتْ وربما أكلتها هي أيضاً. كانت كلما انقضت سنة من مدة الحكم. صغرتُ سنة من عمري. وتقدمتُ خطوة من نجمة. لمْ أكن أحسبُ تقسيم الزمن بالأيام والأشهر والسنوات، بل بالخطوات. مع نهاية كل يوم كنتُ أعيشه وراء الأبواب الثقيلة. كنتُ أزحف في المقابل صوب الضوء البعيد خطوة. ومع كل خطوة كانتْ تتكسرُ تحت أقدامي برك الانتظار الباردة. وسط الظلمة القاتمة كنتُ أرى شعاع النور الرقيق المنفلت من أسوار السجن وحراسه، وسط ضوضاء المفاتيح والأقفال والأحذية الخشنة، كنتُ أسمع صوتَ نجمة يلاحقني ويمتدُ كالخوف أمامي.

كنتُ أبحثُ بأصابع الكف، عن طرق تجمعني بِهَا في عمق منافي القلب. كنتُ في تيه العاشق الذي لا يرى أبعد من عزلته. كبرتُ في الزنزانة سريعاً، وطوح بي خارجها في فراغ، أنا من صنعته بعنادي وسذاجتي. لقد ذَهَبَ الذين أحببتهم بلا استئذان. ومزقوا عمري نصفيين بأقدامهم.

هل كنا سادة مصيرنا كما يتراءى أم مصرنُا كان بيد القتلة؟ رحلة البحث عن نجمة فتحتْ أمامي شهية السؤال في مدينة أرتادها أول مرة. وصلتُ مدينة وجدة في الصباح الباكر على متن الحافلة القادمة من القنيطرة. أحملُ حقيبة وأسير بلا وجهة ولا مرافئ معلومة. ربما مِنْ فَرْطِ إصراري على الحياة، أتوهم أن قلبي لمْ يعد ضيقاً كما كان، وصار فيه مكان آخر يسع الأفراح حتى ولو كانت صغيرة، ويسع مزيداً من الخطايا الأكثر التباساً.

كانت السماء قد فتحتْ أبوبها كعادتها كل صباح، وسط الهرج والمرج وضجيج الحافلات والمسافرين. فوضى عارمة بالمحطة الكل يشتم، الكل ضجر. اقتربتْ مني سيدة عجوز مدتْ كفها صوبي وهي تطلب مني صدقة مقابل الدعاء لي بالرحمة والمغفرة. لمْ أعرهَا أي اهتمام وواصلتُ سيري وسط الناس وأنا أردد في خاطري بصوت لا أعرف إن كان مسموعاً أم لا: كم هي قاسية هذه الشوارع التي تلد البؤس والموت وتخلق في كل يوم إنساناً عاطلاً وفارغاً من أي شيء. إنساناً ملتصقاً بوهمه ومتضامناً مع وجعه وإحباطه.

لو تعلم تلك العجوز بأني مهموم أكثر منها، وأنني غادرتُ السجن ليلة أمس فقط وبعطب كبير. حاولتُ أن أنسى همي قليلاً وأتسلى بالوجوه العابسة التي استيقظتْ باكراً ولا تعرف لماذا. البعض منهم يدفع عربات صغيرة يبيع فيها القهوة والشاي والبيض المسلوق وأوراق الحظ، والبعض الآخر يقنص الجيوب والحقائب، بصره لا تستقر في مكان، يعرف الضحية من عينيه ومشيته وحركات يديه.

قطعتُ الشارع المقابل للمحطة. باتجاه مقهى صغير، كي أستريح من زحام الصباح وضجره ومن الوجوه البائسة التي صادفتها. جلستُ في الركن ووضعتُ الحقيبة بجانبي على كرسي فارغ. لستُ أدري لماذا شعرتُ بكل العيون مصوبة نحوي؛ ربما لأنني أبدو غريباً عن المحيط، ويبدو واضحاً أيضاً أن مدينة وجدة صغيرة لدرجة أن الغريب يكتشف أمره منذ اللحظة الأولى، وهذا من شأنه أن يسهل علي عملية البحث عن الرفيق بلقاسم الرجل الذي توجهت إليه نجمة بعد خروجها من معتقل درب مولاي الشريف تلك السنة. وهو الوحيد الذي يستطيع مساعدتي في إيجاد هذه المرأة التي تملأ دماغي المرهق المتعب. المرأة التي غابت كما تغيبُ الشمس، وتركتْ في عيني دهشة ممزوجة بمرارة الفقد والحرمان.

المعلومات التي أحملها في حقيبتي قد لا تكفي، لكنها ستفي بالغرض. لكي أقض حكاية انطوت ومَرَ عليها زمن طويل. رفعتُ يدي ملوحاً إلى النادل الذي كان يقفُ عند عتبة الباب. تقدم نحوي مهرولاً وهو يبتسم. وضع أمامي على الطاولة منفضة سجائر. وقبل أن أطلب

منه شيئاً أشربه أو وجبة فطور خفيفة أسكت بها جوعي. ادخلت يدي في الحقيبة أفتشُ بين القصاصات الكثيرة. وجدتُ تلك الورقة المربعة المطوية عدة طيات. فردتها بعناية على فَخِذِي ولم أضَعُها على الطاولة، لأنها كانت ما تزال مبللة بقطرات المنظف الذي تفوح منه رائحة الليمون. كانتْ الورقة عبارة عن بيان نقابي صدر في كانون الثاني 1977. عن النقابة الوطنية للعمال، سلمها لي أنذاك أحد السجناء بعد أن تسلمها هو بدوره من رفيق لنا زاره في السجن في ذلك اليوم. احتفظتُ بها منذ ذلك الوقت البعيد، مع مجموعة من الصورالعارية وسط المصحف لأنه الكتاب الوحيد الذي لمْ يكن ضمن قائمة الكتب الممنوعة. أخفيتُ تلك الورقة عن عيون الحراس، ليس لأنها تحمل بيان النقابة التابعة للمنظمة والحزب، بل لأنها كانت تحمل عنوان المكتب المركزي والذي كان يوجد بمدينة وجدة. وقد كان الكاتب العام للنقابة في تلك الفترة الرفيق بلقاسم. أحاول من خلال الوصول إلى أي طرف كانتْ لهُ علاقة بالنقابة خلال ذلك العهد، إلى العثور على بلقاسم ومن تَمَّ معرفة ما حدث بالضبط مع نجمة.

لا أعرفُ إن كانت تلك النقابة ما تزال موجودة أم اضمحلت وتشتت كباقي التنظيمات النقابية والأحزاب التى رفضت بيع قناعتها ومبادئها للمخزن، الذي أشترى الذمم والأصوات والأقلام، كي يجنب نفسه مشقة الاعتقال والتعذيب والقتل السري والعلني.

شعرتُ بالنادل يقف متصلباً فوق رأسي ينتظر مني أن أتفوه بكلمة. رفعتُ نظري إليه سلمته الورقة. وتساءلتُ في قرارة نفسي وأنا

أشمُ رائحة البن المتسربة من بين دخان السجائر وضباب الصباح. ترى أي مفاجأة تنتظرني اليوم في هذه المدينة؟ وأي قدر أتوجه إليه بقدمي وعقلي وقلبي؟ أستطيع اليوم أن أقول إنني أرتبُ موعداً حاسماً مع الحياة. فقد سلكتُ الطريق الأقرب في رحلة البحث، ويجب أن أصل في النهاية إلى وجهتي.

مسك الورقة بيده، وعلامات التعجب والاستغراب تعلو ملامح وجهه النحيف، ثم أتى صوته من بعيد قائلاً بخجل وحسرة:

- يا للأَسَف، لا أعرف القراءة.

أرجع إلي الورقة منكسراً كمن يعتذر عن ذنب.

قلتُ له، بنبرة حرج واضح:

- أودُّ أن أعرف منك الطريق إلى هذا العنوان المكتوب على الورقة.

قرأت له العنوان بسرعة، ثم رد بكلمات تسللتْ إلى صدري باردة كالقلق:

- تلك المنطقة تحولتْ إلى ملعب لكرة القدم قبل سبع سنوات من الآن. ورحل كل سكانها إلى أحياء متفرقة من المدينة والبعض إنتقل إلى مدينة بركان والحسيمة والشباب هاجر إلى أوربا.

ثم أضاف سائلاً بصوت مرتفع قليلاً:

- عَمَّنْ تسأل بالضبط ؟

أجبتهُ بعد تفكير، وكأنني نسيتُ فجأة الاِسم وضاعت مني الحروف والكلمات:

ثم أدرتُ بصري في المكان مخافة أن يسمعني أحد:

- عمر، عمر بلقاسم

ضحك مِلْءَ تَغْرِهِ، ثم التقط نفساً عميقاً وأكمل بعده:

- ومن في وجدة لا يعرف المحامي سي عمر بلقاسم

ثم أضاف، وهو يشير بيده إلى الشارع :

- مكتبه بجانب البوسطا. ليس ببعيد من هنا، في نهاية هذا الشارع عند ملتقى الطرق.

لمْ أعرف بأي لغة أردُ، وقد اختلطتْ علي المعلومات والأسماء. بلقاسم لمْ يكن محامياً على حد علمي، كان مدرساً. كنتُ مشوش الذهن. أشعلتُ سيجارة وطلبتُ من النادل فنجان قهوة، ثم شكرته بلباقة مبالغ فيها على مساعدته وتعاونه.

منذ عشرين سنة. منذ حل على الوطن الزمن المقيت والضيق الذي فشلتْ الأسماء في نعته، لمْ أر هذه الأرض إلا بملامح لا تخلو من تفاصيل الصدمة، مأساة .. مأساة أينما رميتَ بصركَ سترى معالم الذعر، والنيران تتطاول ظلماء الليل تأكل الأخضر واليابس، رغم أن النظام لم يتركْ شيئاً أخضر إلا وأكله قبل أن تصل النيران. الوطن عاجز عن فعل شيء، نحن الآن في وطن تتساوى فيه الفواجع، موزعة على العباد بالتساوى، حتى لا يقول أحدنا إِنهُ لَمْ ينل نصيبه من الألم. النظام الملكي كريم وسيظَلُّ كذلك دوماً

احتسيتُ قهوتي على عجل، وتوجهتُ إلى المكتب المزعوم. وصلتُ إلى المكان بعد ربع ساعة من المشي. دخلتُ إلى المكتب الذي كان عبارة عن منزل من غرفتين وصالون به مكتب خشبي صغير، وبعض الكراسي الملتصقة بالجدار. جلستُ في انتظار أن يأتي أحد ما أسأله عن الرفيق بلقاسم، وأرمي بشكل من الأشكال ثقل الأسئلة التي أنهكت ظهري، وأتخلص من حيرتي وخوفي.

بعد فترة قصيرة، خرجتْ شابة من أحد الغرف وبين ذراعيها مجموعة من الملفات والأوراق. وضعتها على سطح المكتب ثم قالت بنبرة ترحيبٍ هادئة وهي ترمقني بنصف عين :

-تفضل سيدي، كيف نخدمكَ؟

قمتُ من مكاني، ومشيتُ نحوها وجسدي يرتعد بشدة ولا أعرف إن كان سببه الخوف الذي صار يسكنني أم الجوع والإعياء. فأنا لمْ أكن قد أكلتُ شيئاً منذ عصر البارحة. ولمْ يغمض جفني طيلة السفر الذي استغرق الليل بأكمله.

أجبتُ بصوت خافت جداً، صوت يصير حشرجة كلما اقتربت منها أكثر :

- أريد مقابلة الأستاذ عمر بلقاسم من فضلك.

- ما نوع القضية؟

سألتني وهي تشير بيدها لي كي أجلس على الكرسي أمام مكتبها الصغير.

لَمْ أرد، بلعتُ ريقي واكتفيتُ بابتسامة غبية وكأنني لمْ أسمع ما قالته. ولم أفهم سؤالها .

تأملتْ أصابع يدي قليلاً، ثم سحبتْ قلماً أزرقَ ودفتراً كبيراً من الدرج. وأعادت علي السؤال مرة أخرى بنبرة عالية ظناً منها أنني لمْ أسمعها في البداية :

- سبب الزيارة لو سمحت

فركتُ عيني في إرهاق حقيقي، ثم قلت:

- أنا صديق قديم للأستاذ، ولمْ نلتقِ لمدة عشرين سنة، وجئت اليوم لرؤيته هذا كل شيء

حدجتني بنظرة طويلة لتقول بعد ذلك :

- هل كنت خارج الوطن؟

أطلقتُ ضحكة قصيرة أجبت بعدها :

- لا

وبعد شيء من الصمت قلت بلا مبالاة:

-بسبب ظروف خاصة عِشْتُهَا خلال السنوات الماضية. لم يكن متاحاً لنا أن نلتقي.

وواصلتُ:

- كنت داخل السجن.

إرتسمت على ملامح وجهها علامة استفهام، ثم ردت بعد تفكير عميق:

-لن أخبره أنك هنا، لكي لا أفسد عليه المفاجأة. تفضل هو بمكتبه، يمكنك الدخول إليه.

طرقتُ الباب برفق مرتين، جاء صوته من داخل الغرفة: أدخل، تخطيت العتبة ببطء، وكأنني أود الاختباء في نفسي، وعدم مواجهة بلقاسم، الذي أكيد أنه يعرف بقصة الأسماء العشرة التي سلمتُ أصحابها للجلاد.

كان جالساً وراء مكتبه يدخن سيجارة، لمْ تتغير ملامحه حين رآني، ولمْ تفاجئه زيارتي غير المُنْتَظَرة، قال فقط بصوت خفيض، وهو يحرك رأسه آسفاً وكأنه يحاول أن ينفض عنه مرارة ما سمع عني في الزمن الماضي :

- أَهَذَا أنت؟ ألمْ يكن من الممكن أن تأتي قبل هذا اليوم، أكثر من عشرين سنة، وجهكَ لمْ يتغير كثيراً، ملامحكَ ازدادت وضوحاً

وثقة. مجيئك هكذا دفعة واحدة لمْ يكن في الحسبان. كدتُ أنساك يا مهدي، كدت أنسى أنه كان لي يوماً رفيق خائن إسمه مهدي المباركي . أين اختبأت كل هذا الزمن؟ كان أفضل لو أنك جئت على دفعات.

كلامه نزل على كامل جسدي كصاعقة. أربكني صوته الذي يحمل شيئاً أقرب للحقد اتجاهي. صوته الذي يدخل المسام كالألم اللامتناهي. أنظر إليه برجاء دفين وتنهال علي المشاهد والصور متكاثفة، لَمْ أعد أعرف كيف أصدها ولا كيف أتحمل تجرع مرارتها. وقفتُ عند الباب ملتصقاً منكمشاً على نفسي. منحشراً أقصى ما أستطيع في الزاوية القريبة من الباب.

تتوالى اللحظات بطيئة ثقيلة. ساد صمت شامل لا تتخلله سوى انفاس خافتة متقطعة، مليئة بالترقب والتوجس.

- رفيقي بلقاسم

هكذا لفظتها بشبه همس يحد من رتابة اللحظات الغارقة في التثاقل والبطء. كررتها مرة أخرى، ولكنه لمْ ينظر إلي كان منشغلاً بالبحث عن علبة سجائره الضائعة وسط كومة الأوراق المكدسة على مكتبه. وتتوالى اللحظات في إيقاعها الرتيب مرة أخرى، لأعود بدوري إلى الصمت والانكماش. ويعم السكون بيننا.

الزمن يمضي جد متثاقل من حولنا. فجأة أخد بلقاسم يحدقُ في ملامحي بهوس استفسار، وعلى محياه علامات القلق. يتطلع إلي وكأنه يريد أن يزن كلامه حرفاً حرفاً قبل البوح به. ربما كان علينا أن

نصمت قليلاً حينها ونجعل الصمت خياراً لنا. فكلما تكلمنا نهضت الجراح واستفاقت الأوجاع القديمة. وازددنا خوفاً من بعض.

لا أعرف كيف أعبر نحو بلقاسم؟ بعد كل هذا العمر. وبعد ما قمت به في حق المنظمة وفي حق رفاق الدرب والملح والدم. كيف أعبر زمنا تغير في غفلة مني؟ يوجعني هذا الخواء المر، وتضحكني السنوات التي قضيتها في السجن إذ كلما تذكرتها، أحسستُ أنني مدين باعتذار لنفسي أولاً، ثم لكل من عرفني، ولكل من وشيت به للنظام، ورميت به عارياً نحو المحرقة.

ربما سيعرف قلبي كيف يساوم على ما تبقى من عمر. فرصة أخيرة أيتها الحياة، وسأضع كل من أحببت في عمق كفي ولن أخون أحداً بعد الآن. وسأخرج بخسارات أقل، كلما انطفأ القلب في سكينة وأرغم على فعل شيء لا يريده.

الموت أرحم بي من نظرة بلقاسم. انتابتني رغبة في أن أعترف له بكامل القصة وأنتهي من هذا المشهد الدرامي المستفز حد الغثيان. ولأني لنْ أتحمل أكثر نظرة الاحتقار في عينيه وأطلب منه السماح. لكن خفت، خفت من أن يخفي عني مكان نجمة. فتتحول قضيتي الأكبر إلى عقب سيجارة مآلها الرماد. لا يهمني أن أكون في نظره بطلاً خرج لتوه من السجن أم خائناً باع القضية.

إقتربتُ منه ومددتُ كفي إليه. نظر إلى موضع أصبعي المبتور جيداً وقد اعتلتْ تفاصيل وجهه مسحة حزن مسروق. قلت له حينها:

- ليس مُهِماً أن تصدق كلامي، لكنْ مُهِمٌّ جداً أن تصدق جسدي، لأن أجسادنا تقول الحقيقة دوماً مهما كانت غريبة. كما ترى فقدتُ أحد أصابعي وكدتُ أفقد روحي أثناء التعذيب، حدث ذلك حين رفضتُ الاعتراف بأي شيء، بتر الجلاد أصبعي وصعقني مراراً بالكهرباء، وحاول اغتصابي بالقنينات الفارغة.

صمتتُ للحظات، ثم واصلتُ في حسرة :

- من حقك أن تصدق ما سمعت من أخبار عني، وعن الخيانة التي قمت بها، وعن الأشخاص الذين كنت وراء معرفة أماكنهم واعتقالهم دفعة واحدة، لكنْ من حقي أن تسمع الحكاية مني، مني أنا فقط. صدقني كل هذا كان كذباً سخيفاً أطلقه النظام بغرض تشويه تاريخي النضالي. لستُ أنا الذي يخون القضية عزيزي بلقاسم، وأنتَ تعرف تماماً كم كنت وفياً لما نؤمن به من مبادئ. رجل مثلي لا يخون رفاق الدرب، يموت ولا يغدر.

لكنني تداركتُ حسرتي بالقول :

- صدقني لو كان ما سمعت صحيحاً، لما قضيتُ عشرين سنة في السجن، أنتظر الحرية. نحن دائماً هكذا نمر بجانب الحقيقة ونحن في طريقنا للوهم والكذب. ليستْ هذه المرة الأولى التي يطلق فيه النظام إشاعات تمس بصدق ووفاء المناضلين الشرفاء. ولستُ أنا أول شخص يتعرض لمثل هذه الممارسات السخيفة والبشعة. وأعلم أنا

التاريخ لنْ يرحمني ولنْ ترحمني دموع الرفاق الذين صدقوا الكذبة، حين أخبرهم الجلاد بأنني من زوده بأسمائهم و عناوينهم.

- ماذا ربحنا من هذا كله يا مهدي؟

بهذه الجملة قاطعني. ثم ربت على كتفي وكأنه صدق بعض ما قلت. صمتت قليلاً، ثم وقفتُ أمام النافذة المطلة على الخارج وأنا أكمل :

- أتدري يا بلقاسم، عندما أعود إلى كومة السنوات التي مضتْ، ماذا أجد؟ أجد الخوف الذي يتعاظم كل يوم أكثر، أجد بقايا العمر الذي سرقه مني القتلة، ولمْ يمنحوني فرصة النوم في حجر المرأة التي أحببت للمرة الأخيرة، أجد الهزيمة المرضية التي ألمت وصار يصعب تحملها وبلعها. أكتشفُ بعد عشرين سنة أنني كنت الخاسر الأوحد، وأن القتلة والمناضلين كانوا طول الزمن الفائت يتفاوضون على الصلح، ويتقاسمون الغنائم فيِ ما بينهم. تصور نفسك مكاني وقل، ماذا ربحت من كل هذا؟ حتى التاريخ زوره الجلاد وصار ضدكَ وصرتَ في عيون الرفاق وصمة عار على القضية. في سيرة الخسائر، ثمة خسارة لا نملك حيالها إلا الصمت.

التفتُ إليه، ولم أغفل ملامح الخيبة التي ارتسمت على محياه، ثم أدرت بصري مرة أخرى ناحية النافذة، وأنا أقول :

- لهذا كله أريد أن أنسى وأصمت وأرحل، أو أموت على هذه الأرض التي لا تشيخ. رؤيتك هذا الصباح يا رفيقي الغالي، ترتق بعض

الجروح الصعبة. نعم لمْ أعد قادراً على بذل تلك المجهودات الكبيرة في إعادة ترتيب تفاصيل حياتي، ولا على سرد تفاصيل الخسارة، لأن سردها لمْ يعد دافئاً ومؤنساً كما كان في السابق. تعبتُ من كل شيء، وإذا لمْ تصدقني فدعني أرحل، لأنني لا أملك شيئاً أخرا أقوله غير أنني تعبت، تعبت.

حين هممت بالخروج من المكتب وقبل أن أتخطى العتبة. مَسَكَ يدي وَقَبَلَ مَوْضِعَ الجرحِ، وهو يهمس في صدري بحنان دافق :

- أكتبْ قصتكَ لتُصْلِحَ ماَ أفسده القتلة. أكتبْ الحقيقة التي يصعب تصديقها. يمكنكَ أن تنقد ماضيك من صفحات التاريخ المزور، لا تسمح لهم بأن يكتبوا قصتك بدلاً عنك، لن يرحمكَ التاريخ إذا لم تكتبْ الحقيقة.

كلامه قادني إلى مزيد من الصمت. فهمت مما باح به دفعة واحدة أنه صدق القصة أخيراً ولمْ يعد يشك بوفائي للمنظمة والرفاق في تلك الفترة. وهذا ما كنتُ أرغب به، لأنني بحاجة لمساعدته في هذه الظروف القاسية.

دعاني بعد ذلك إلى فنجان قهوة. ثم التفتَ نحو الصورة الكبيرة المعلقة على الجدار خلف المكتب، صورة بالأبيض والأسود يرجع تاريخها 1969، خلال المؤتمر الثالث عشر للاتحاد الوطني لطلبة المغرب. كانتْ تضمُ مجموعة من المناضلين في حزب الاتحاد الوطني للقوات الشعبية. بالإضافة إلى بعض المناضلين السابقين في حزب

التحرر والاشتراكية، وعدد قليل من الطلبة المستقلين، وما هي إلا ثوانٍ معدودة حتى التفتَ نحوي هذه المرة قائلاً:

- تعرف يا مهدي، نحن هكذا، لا نعرف كيف نحافظ على بعضنا البعض، في عمق الأحداث القاسية نخون ونكذب ونزور. لننقد أنفسنا فقط دون أن نكترث للآخر، ولا نعرف كيف نوقف ركضنا الصبياني نحو التيه. قبل زمن مشينا بسرعة صوب النهاية، ولمْ نلتفت إلى حجم الخراب الذي تركناه خلفنا.

عقد ساعديه خلف ظهره، ثم أضاف وهو ينظر إلى عيني مباشرة وكأنه فطن إلى شيء مهم:

-أعلمُ أنكَ جئتَ لتسألني عن نجمة

أرد باندهاشٍ مصطنع:

- نجمة لمْ تكن امرأة عادية، كي أنساها بهذه السهولة، نجمة كانتْ امرأة من ورقِ الخريف، هَزتها الأمطار ذات شتاء ومضت بها بعيداً، ونسيتْ أن تلتفتْ إلي. لا تسألني عن شيء أرجوك أخبرني فقط أين هي الآن؟ لا أريدُ أن أثقلَ عليكَ أكثر يا رفيقي.

قاطعني بانفعال:

- قبل هذا كله يا مهدي، عدني بأن تَكْتُبَ قصتكَ، وأَعِدُكَ بدوري أن أَنْشُرَهَا في بيروت مهما كلفني الأمر، وسَأَجْعَلُ العالم كله

يعرفُ كَمْ كُنْتَ مناضلاً وطنياً وفياً وجميلاً. أكتبْ جرحكَ كَما تشتهي، أكتبْ كي تُخْبِرَهُمْ جميعاً أنك لَمْ تكن سيئاً لتلك الدرجة.

أجيبُ مع تنهيدة طويلة :

- أنتَ تُدْرِكُ جيداً مدى قسوة الجرح في بدايته. أحتاجُ أن أَنْسَى، لا أن أُوقِد جَمْرَ الجرحْ بالكتابة، أخافُ أن تستدرجني مهاوي اللعبة، أخشى كثيراً مِنْ أن تصير حياتي القادمة كُلها عِبارة عن محاولة متواصلة لكتابة حياتي الماضية للقارئ الذي لا يرحم. الكتابة يا بلقاسم أكبر من مجرد لغة اعتيادية يكررها الكاتب الذي لا يتقن شيئاً غيرها. الكتابة لذة كبيرة للركض نحو موت لا نَمْلِكُ حياله الشيء الكثير. وأنا لَا أريدُ أن تكون نهايتي تراجيدية، أريدُ أن أحيا لا أن أندفن ككاتب مجنون ومضطرب في عمق أمواج الكتابة؛ لأنني غير متيقن مِنْ قُدْرَتي على العبور إلى الضفة الأخرى، حيث الأغلال والأقفال ومكاتب التحقيق دون أن أُخَلِفَ ورائِي عشرات الجثث المتعفنة. صرتُ كلغم قَدْ أَنْفَجِرُ في وجه الجميع وفي أي لحظة.

صاح وهو يشد على يدي بقوة :

- تَعْرِف، هذا قَدَرُنَا نحن الرجال

ثم أضاف بعد برهة من الصمت سائلاً بحسرة خفية، وبعد أن ضمني إلى صدره بحرارة، وبنفس القوة التي كان يمسكُ بِهَا يدي :

- لِمَاذا نَزْدَادُ تعلقاً بِجراحنا فجأة؟ فَكُلَمَا تَخَفَيْنَا مِنْهَا تَحْتَ المطريات الملونة، داهمتنا السيول مِنَ الأسفل، وتذكرنا أن الرجال مثلنا لا يبكون أبداً مهما حصل.

رفعتُ يدي وعانقتهُ، وكأنني أريدُ أن أبكي بين ذراعيه، شيء ما بداخلي أخد ينزف بشدة. منحني صدره قلقاً غريباً لَمْ أكن مستعداً إليه كما يجب. إختفى من بيننا ذلك الضباب، وفجأة صرتُ أراه ويراني، شيء ما في قلبي إنكسر بعد أن سقط من علو شاهق، مطر غزير بات يسقط في أعماقي بلا توقف، مطر الحنين والأسفار الثقيلة. أحسستُ باليُتمِ بِيُتْمِ الغريب.

بلقاسم لَمْ يتغير منذ عرفته أول مرة، لم يتغير أبداً، يتحدثُ بعفوية الأطفال، ولا يعرف كيف يخبئ أحاسيسه واضح وَصَافٍ مِثلَ الماء. عندما يحزن يفيض ويخرج كل ما في ذاكرته وقلبه مرة واحدة ودون تردد. ينزعج، يغضب، يبكي، لكنه يعود إلى خفة دمه وظله سريعاً. كانت أول مرة أتعرف فيه عليه، خلال أحد اللقاءات السرية، التي كانت تقوم بها المنظمة من حين لآخر.

لَمْ أستلطفهُ في البداية، بدا لي سخيفاً للغاية وأضعف من أن يكون مناضلاً في صفوف منظمة إلى الأمام. تدخلاته وأفكاره السياسية والنضالية، كانت كلها مبهمة وغير منطقية. لكنه كان مقتنعاً بها، ويدافع عنها بشراسة السياسي المخضرم. كنا نراه مجرد مناضل على الهامش لا أقل ولا أكثر. والآن أحس أنه كان على صواب، وأنا كنتُ السخيف حد الغثيان.

شرعتُ ذراعي باتساع، فقط كي لا أغفو بين ذراعيه من شدة التعب، وكي لا أسمح لتلك الدمعة الواقفة على حافة الرمش أن تسقط أمامه، ويسقط معها تاريخ المناضل الذي لا ولم يَبْكِ أمام أحد سوى نجمة.

قلتُ بحسرة، وقد تسلل بعض الغضب إلى نبرة صوتي :

- أه يا بلقاسم لو تعلم فقط، كم أن السنوات الماضية ضيعتني، ولَمْ تترك لي شيئاً أتكئ عليه.

رد باختصار تام :

- كَبُرْنَا فجأة

ثُم ضَحِكَ ضحكة طويلة حتى أغرقت عينه بالدمع، وواصل كلامه :

- لا يهم إن استحالت عليكَ الدنيا، أو خسرتَ أجمل سنوات العمر. المهم أنكَ لَمْ تخن من أحببتهم يوماً

ثم انشغل بمداعبة لحيته. لَمْ أجد كلمة واحدة أصف بِهَا ما كنتُ أحسه لحظتها، فلجأتُ إلى الصمت، لكنني حاولتُ تجاوز ذلك الصمت، بطرح مجموعة من الأسئلة دفعة واحدة :

- كيف لي أن لا أخرج بلا جرح أو خدش عميق؟ وأنا فشلت في المحافظة على كل من أحببت. كيف أحمي قدري من زمن آت؟

بترتُ كلامي بسرعة. فَزفر في ضيق وهو يجيبني :

- سافر إلى حيث يمكنك الإجابة على حرائقك الداخلية. ربما تمكنتَ من إيجادِ نجمة بعد هذا الفراق الطويل

قاطعته بسؤال سريع، خطر ببالي لحظتها :

-أين أجدها يا بلقاسم؟ .. أين؟

أومأ برأسه، وبدا واضحاً أنه قد فهم ما كان يدور في أعماقي. لَمْ يترك لي مجالاً لطرح السؤال مرة أخرى ثم قال بجدية :

- في تلك السنة التي جاءت فيها نجمة إلي، بعد أن أطلق سراحها، لِسبب مجهول هي نفسها لَمْ تكن تعرفه. عاشت في بيتي مختبئة لمدة سنة تقريباً، قبل أن أجد لها هوية مزورة تمكنتْ بفضلها من دخول الجزائر. وطول تلك المدة لمْ تغادر البيت إطلاقاً، كانت خائفة من الاعتقال. كانت سجينة الشرفة والمطبخ والصالون وغرفة النوم. صادف وجودها في البيت في ذلك الزمن البعيد، ولادة ابنتي نضال، وكي لا أنسى فنجمة من وهب هذا الاسم لابنتي. كانت تقوم بالاعتناء بها في سنتها الأولى، لأن أمها كانت تعاني من اكتئاب ما بعد الولادة. كانت تقضي معظم الوقت بصحبتها، تلاعبها تغير لها ثيابها، تطعمها. كانت تعتبرها ابنتها بالصدفة. وكانت دائماً تشكر الظروف السيئة التي جمعتها بنضال الصغيرة.

خيل لي أنه قال كل شيء، لكنه أكمل في سخرية مريرة :

- حتى نضال كانت تفضل حضن نجمة على حضن أمها. أما نجمة كانت متماهية مع دور الأم التي تربي وتسهر. لدرجة أنها كانت ترضع نضال أثناء غياب أمها، ثمة علاقة أمومة غير مفهومة كانت تربط بينهما. كنتُ أستغرب من تعلقهما ببعض على ذلك الشكل الرهيب.

صمتَ قليلاً، ثم واصل وهو يشعل سيجارة أخرى بين شفتيه:

- يوم حصلتْ نجمة على أوراق السفر. وحان موعد رحيلها إلى الجزائر . كان يوماً حزيناً بالنسبة لنا جمعياً. رغم أننا كنا ننتظر ذلك اليوم الذي تستطيع فيه نجمة الخروج للشارع والتجول والتسوق بكل حرية دون خوف من أحد وكما تشتهي. إلا أن فراقها كان صعباً للغاية. حتى نضال التي لمْ تكن قد أتمت عامها الأول أحستْ بأن شيئاً قبيحاً سيحدث في تلك اللحظة. بكت كثيراً ولمْ تُرِدْ أنْ تترك حضن نجمة.

ألْقَى نظرة سريعة من النافذة، ثم عاد وأكمل بنبرة فاترة :

- عندما أوصلتها إلى المنفذ الحدودي بسيارتي. كان الصبح قد أطلّ. بكتْ طويلاً ولمْ تفصح عن سبب ذلك الانهيار المفاجئ، قبل أن تخرج من السيارة وتبتعد قليلاً عني وقد تقيأت أحشاءها كلها. في الظلمة لمْ أعد أسمع إلا صوت أنفاسها وهي تتقيأ وكأنَّ سماً في بطنها يمزقها بعنف. خفتُ عليها كثيراً اشعلتُ الضوء الأمامي للسيارة، وتوجهتُ إليها، وشوشتْ في أذني بصوت خافت: أنا خائفة وهذا

الخوف الذي هربتُ منه سنة كاملة وسط جدران بيتك، أجده الآن ينبت في صدري كشوك الصلب ويتبعني إلى هنا. ضممتها إلى صدري قليلاً كي تهدأ، وقلت في سري: أي خسارة لحقت بهذه المرأة التي انكسرت عند عتبة العمر الأولى، ثم قلتُ لَهَا بصوتٍ أقرب للهمس: ما حدث لك يا نجمة، كان يجب أن يحدث مع امرأة مثلك، امرأة جازفت بكل ما تملك واختارت أن تكون مناضلة في صفوف تنظيم مغضوب عليه من الطبقة الحاكمة، لأنه يهدد القصر ومن حوله.

أضاف في حماس :

- أتذكر أنها التفت نحوي ببطء، لاحظت في عينيها شيئاً من الاستجداء وأسئلة معلقة في الفراغ بلا أجوبة، أو ربما كانت أجوبتها قاسية. كانت تلك أخر نظرة بيننا، ومنذ ذلك الوقت لمْ أرَها ولم أسمع عنها شيئاً. اختفتْ وراء الضباب الكثيف المترامي الذي كان يغطي سفح الجبل الحدودي مع الجزائر، دليلها الأوحد في ظلمات ذلك الفجر البارد كان قلبها الذي حولته قسوة الحياة إلى بقايا رماد ساخن. تركتها تمضي نحو دنيا جديدة لمْ تخترها بإرادتها، بل فرضت عليها فرضاً. على الأقل كي تعيش لنفسها أولا وتدرك أن الحياة ما تزال تستحق أن تعاش بامتلاء.

هذا ما حدث يومها، هذا كل شيء. دَعْنِي أخبرك شيئاً أخر يا مهدي، ربما يكون قاسياً على قلبك العاشق. طوال معرفتي بنجمة لمْ تَأْتِ يوماً على ذكر اِسمك أو سيرتك. كانتْ تتجنب الحديث عنك. كانت ترفض أن تتذكر شيئاً منك. ربما كانت موجوعة وأنتَ سبب وجعها

السري. مازلت إلى اللحظة أتذكر ملامح وجهها الحزين ونظراتها الهاربة. يوم سمعت أنك قدمت للقتلة أسماء الرفاق وعناوين سكنهم، ربما كرهتك في تلك اللحظة. وربما اشتهت أن تصرخ وتشتم وتلعن القدر الذي جمعها بك. ربما صرت في عينيها صغيراً، صغيراً جدا. لكنها صمتت وعادت نحو عمقها وداخلها. كنتُ أحس بحجم الألم الذي يسكن نجمة رغم أنها كانت كتومة ولا تشتكِي. كانت مثقلة بالجرح الذي أخذتها إليها مغمضة العينين.

كان في كلام بلقاسم الكثير من القسوة اتجاهي. فاجئني كلامه، رماني في دوامة من الحيرة والشك، لدرجة أنني تساءلت هل هذا الكلام موجه لي؛ لأنني رفيقه وصديق عمره أم لأنني كنتُ غريمه في زمن ما دون أن أدري؟ هل أحب نجمة يوم جاءت إليه منكسرة الجناح، تائهة؟

وهل أحبته هي أيضاً يوم احتضن ضعفها تحت سقف بيته؟ إرتبكتُ بقوة لمْ أعهدها في نفسي. كيف لمْ أنتبه لها حين كانت توشوش في صدري كل مساء؟ توهني فيك، غيبني فيك، ودللني قليلاً.. قليلاً. كيف لي أن أمضي فيك وأدللك قليلاً، بعد أن مضيت ولمْ تنتظرني يا نجمي البعيد؟

بعد أن أنهى كلامه الطويل، جاء دوري أنا لأقول ما في صدري من أسرار، اقتربتُ منه قليلاً ثم قلت بنبرة مكسورة :

- نعم أعلم أنه كان بي قدر كبير من الأنانية. وأنني لمْ أكن معنياً بما سيأتي. كنتُ أعيش اللحظة فقط، وأفكر في نفسي فقط، لكنْ هذا لا يعني أنني كنتُ حقيراً لتلك الدرجة التي تكرهني فيها نجمة. أنا ضحيت بالكثير من أجلها. هي لتعلم بالقصة وما وقع حينذاك في مكتب التحقيق وغرفة التعذيب، وهي لا تعرف كم تغيرت في العشرين سنة التي مضت، هي لا تدري أن كل الأعياد ماتت في قلبي ولمْ تمنحني لحظة فرح. أسرار كبيرة أحملها معي هنا بين ضلوعي، سيأتي يوم وتعرفها، حينها حتماً ستغفر لي ذنبي.

منحتني نظرته سَكِينة، كنتُ في أمس الحاجة إليها، صمتتُ للحظة قصيرة ثم قلتُ :

- أتدري هناك أشياء تغتفر حينما ندرك أسبابها ونقتنع بها.

رد بمزاح غائب :

- وهناك أشياء أيضاً، يصعب بلعها، وتظل تحفر في الخاطر حتى الموت.

-طبعا، ولكن ...

قاطعني ضاحكاً، وهو ينادي بصوت مرتفع، وكأنه بذلك كان يحاول عبثاً التخفيف من حرارة النقاش وجديته. ويقطع الطريق أمام أي كلام آخر، قد يتفوه به لحظة انفعال دون أن يشعر.

- أحمر

- نضال، دقيقة من فضلك نعرفك على مهدي

جاءت نضال، ناعمة كأزهار الشرفات. نضال هي نفسها الفتاة العشرينية التي استقبلتني في المكتب الصغير قبل نصف ساعة وتوقعتها السكرتيرة. ابتسمتْ في وجهي بحنان ورقة. مدتْ يدها نحوي بتلقائية مطلقة. تقدمتُ إليها خطوة، سلمتُ عليها، لمستْ يدها يدي، دون أن أنظر إليها تماماً. خشيتُ أن أرى في بؤبؤ عينها طيف نجمة. لا أعرف لماذا تحاشيتُ النظر إليها، لكن هكذا أحسستُ أنني مهدد بذاكرة مشتركة بيننا. وحضن تشارَكْنَاُه معاً، ودموع ذرفناها على نفس المرأة.

قال بلقاسم، وهو يضع يده على كتف ابنته :

- هذه صغيرتي نضال، اِبنتي الوحيدة، طالبة في معهد الصحافة وهذه سنة تخرجها.

أرد ممازحا :

- منذ أول حوار دَارَ بَيْنَنَا، قلتُ في نفسي، هذه الأسئلة التي استقبلتني بِهَا لا يطرحها إلا محامٍ شرس أو صحفي متمرس، وظني لمْ يَخِبْ.

قال وهو يضع يده على كتفها، قبل أن يضمها إلى صدره :

- هي تأتي لمساعدتي في أيام العطل فقط.

أجبتُ بهدوء مع ابتسامة خفيفة :

- أنا على يقين تام أنها ستصير صحفية كبيرة على يد رجل عظيم مثلك يا رفيقي بلقاسم.

ردت بحماس وخجل جميلين :

- شكرا للطفك، لكن بكل صراحة أفكر في بناء حياتي المهنية في فرنسا. وَوالِدِي يرفضُ فكرة سفري خارج الوطن، وأنا أرفض تماماً فكرة أن أظل هنا.

استدرتُ نحوه، وقلت باستنكار :

-بالله عليك، عن أي وطن تتحدث يا بلقاسم، أترك نضال تختار وطنها وأرض عيشها، وسماء تتسع لكبر احلامها كما تريد، على الأقل ستضمن أنها ستكون مرتاحة في عملها، وستمارس حريتها دون خوف أو قيد. وأنتَ خير من يعرف حقيقة الوضع البائس الذي تعيشه الصحافة في هذا البلاد المسمومة التي تقطع الأرزاق والأعناق والأصابع والألسنة من جذورها. مادمنا تحت حكم القتلة لا حرية لنا في أي شيء، لا في الكتابة، ولا في التعبير عن الرأي. إما أن تكون في صف القصر ورجاله أو لن تكون أصلاً، لا حل وسط بينهما.

ثم واصلت بتهكم سخيف :

- وكل من مشى ضد السياسة الرشيدة للحاكم بأمر الله، رمي في السجن، وقطعتْ أوصاله وقدمتْ طعماً لكلاب الحراسة.

أجاب بنبرة فيها قليل من الحزن المستتر:

- وأنا لمن تتركني؟

قلت، وأنا أراقب ملامح وجهه الحزين:

- لا تفكر بأنانية الأب، لا تحرمها من حقها في اختيار مصيرها وحياتها، فقط لأنك لنْ تتحمل الحياة وهي بعيدة عنك. اعذرني حقيقة، لكنها قمة الأنانية منكَ، وليكن في علمك أنه إن لمْ تحرمك منها الغربة، سيسرقها منك رجل؛ لأنها لن تظل طول العمر تحت جناحك، أتركها تحلق بجناحيها بعيداً وعالياً، أتركها تجرب متعة الطيران بمفردها، ومتعة السقوط أيضاً إن تحتم عليها ذلك.

لحظتها نظرت إلي نضال، وعينها تشع بالنشوة والتلذذ. ربما لا بل أكيد أن كلامي راقها، وأحبت دفاعي المستميت عن رغبتها في السفر، كل شيء يبدو واضحاً في ملامح وجهها، الذي فشل في إخفاء الفرح، وإن أحسته صغيراً ومبتوراً. كلما نظرتُ إليها شعرت بقصة ما، خلف رموشها السوداء الطويلة. أتوقع أن ثمة حكايات كثيرة ستجمعني بها.

لا أعرف لماذا تعمدت التحدث إلى بلقاسم، بتلك اللغة القاسية في عمقها، ربما كي أقهره كما قهرني حينما حكي عن نجمة ودموعها وعنه وعن الحضن الأخير الذي كان بينهما قَبْلَ سفرها إلى الجزائر، أو

ربما كي أمنحه إمكانية رؤية نفسه من زاوية أخرى، وبشكل آخر، أو لعله قلبي الذي لمْ يعد يعرف كيف يحب الآخرين كما كان سابقاً. فصار يري الحياة بعيون الحاقد المنبوذ من الكل. لا أدري هل ما قلته كان نكاية بقلب هذا الرجل لا أقل ولا أكثر، أم فعلاً كنتُ أقفُ في صف نضال لأنها على صواب، وأقاسمها الرغبة نفسها، الرغبة في السفر بعيداً دون رجعة، ودون الاتفات إلى الخلف. إلى الآن لمْ أدرك السبب الذي جعلني أتظاهر أمام صبية قد تكون في عمر إبنتي التي لمْ أنجب، على أنني شخصية لها رأيها في الحياة ولها تجاربها القاسية التي جعلتها بهذا الوزن والخبرة وبعد النظر. أجنحة نضال المكسورة لمْ تكن تعنيها وحدها كانتْ تعنيني أنا أيضاً.

وصارت ضرورة إقناع بلقاسم بفكرة سفر نضال إلى فرنسا، قضيتي الأولى منذ دخلتُ هذا المكتب. ودخلتْ هي حياتي مِنْ أوسع أَبْوبها. باب نجمة الذي ما يزال مشرعاً على مصراعيه، ولمْ أغلقه بعد، وقد لا اغلقه أبداً.

قال بلقاسم بعد أن حمل حقيبته ومفاتيحه من على المكتب :

- يشرفنا يا مهدي، أن تكون ضيفاً عندنا

أمَّا نضال فصافحتني مرة أخرى، وهي تقول بصوت منخفض، وكأنَّها لا تريد أن يسمعنا أحد غيرنا.

- اعتبرني منذ هذه اللحظة، صديقة همومك التي لا تقال لأي كان.

لمْ أجد ما أقوله، فواصلت الكلام من تلقاء نفسها :

- جميعا نحتاج إلى ذلك الصديق الذي نبوح له بأسرارنا الكبيرة دون خوف

شعرتُ فجأة ببرد داخلي، وكأن سحابة سوداء مثقلة بالذكريات، نزلتْ على وجهي وصدري وتوزعت شيئاً فشيئاً على كامل جسدي المرهق. أحسستُ بأصابع نضال ترتجف في عمق كفي، أو ربما كانت أصابعي هي التي ترتعد في كف نضال. رأيتُ في عينيها وعوداً بأشياء كثيرة ارتسمت سهواً كالدمع المكابر أمامي.

لا أدري كيف جرني كف نضال الدافئ، نحو هواجسي الأولى ونحوها بقوة أكبر؟ كيف صارت انشغالي الأول من لمسة يد بريئة، وهمسة سريعة في الأذن فقط؟ هل إلي هذا الحد كنت فارغاً من الداخل كفزاعة قديمة ومنسية؟ وأحتاج لامرأة تعصف بما تبقى مني بلا استئذان. تأتي مباغتة كالأمطار الصيفية التي تغسل في طريقها الشوارع والشبابيك من الغبار المتراكم، وتمنح الوجوه الجافة بعض الحياة والأمل.

كيف اخفقتُ في مقاومة اندفاع إمرأة لا شيء يربطني بها سوى، أننا بكينا نحن الإثنين ذات يوم على فراق نجمة. أنا بكيتُ يوم رأيتها عارية الجسد منهكة الروح ذابلة. في ركن بارد من غرفة تحقيق عفنة، وقد كانت تلك أخر نظرة ألقيها على جسمها الذي كان يحمل أثار

التعذيب والترهيب، وأول مرة أحس بحرارة النار التي كانت تأكل صدرها ببطء وفي صمت مطبق.

قبل أن يحرمني منها القتلة دفعة واحدة وتسرقها مني لعنة الظروف وقسوتها.

أما نضال، فبكتْ بحرقة طفل يفارق أمه لحظة السفر الأخير، لأنه لنْ يراها مرة ثانية. أنا ذرفتُ دموع اليتم لأن نجمة كانت أمي بالتبني طوال سنوات الطفولة المشتركة بيني وبينها. ونضال أيضاً ذرفتْ دموع اليتم الباكر عن أم جمعتها بها الصدفة والأقدار وحرمتها منها عيون القتلة أيضاً. كلانا شعر باليتم والحرقة والفراغ، الفرق الوحيد بيننا الآن؛ هو أنني ما زلتُ إلى اللحظة مسكوناً بشيء اِسمه نجمة، أما هي ولحسن حظها نسيت كل شيء، ولمْ يعد يربطها بنجمة سوى ذاكرة طفولة مبهمة ومشوشة تكفل الزمان بمحوها، وبعض التفاصيل الصغيرة التي حكاها بلقاسم عَلَيْها عن طريق الصدفة أو عمداً.

ماذا بعد هذا؟

لا أعرف بالضبط، إلى أين تسحبني هذه الخيوط المتشابكة والخطوط المتداخلة في بعضها البعض. الحكاية صارتْ تأخذ منحى آخر غير الذي خططت له، يوم قررتُ المجيء إلى مدينة وجدة. ليس هذا الذي أريده الآن، في هذا الوقت على الأقل أنا بحاجة ماسة لكتابة نهاية تليق بقصتي مع نجمة، وليس الركض صوب بداية قصة

جديدة اشتعلتْ لتوها بدفء الأصابع وشراسة اللغة التي كلها أسرار وألغام وانتظارات.

وصلنا إلى المنزل الذي لمْ يكن بعيداً عن المكتب. كانت الساعة الحائطية حين دخلنا تشير إلى الواحدة زوالاً وعشر دقائق. لمْ يكن أحد في البيت، كنا نحن الثلاثة فقط، وهذا ما جعلني أستغرب غياب الأم. انتظرتُ دخول بلقاسم إلى الحمام، ثم توجهتُ نحو نضال التي كانت تجهز وجبة الغداء في المطبخ. سألتها عن أمها الغائبة، ردت بنبرة انكسار عميق: أن أماها تعيش منذ سبع سنوات في بيت أهلها بمدينة فاس، بعد أن حصلت على الطلاق من أبيها؛ بسبب مشاكل كثيرة كانت بينهما في تلك الفترة.

- وأنتِ؟

نظرت إلي مستغربة من السؤال، لأنها لم تفهمه، أو ربما لم تجد له أي سبب مقنع لطرحه. لكنْ نظرتها تلك لمْ تمنعني من طرحه بصيغة أخرى أكثر وضوحاً. وأنتِ لماذا لم تُسَافِرِي مع أمك إلى فاس، واخترت البقاء هنا رفقة أبيك؟

لم تَقُلْ شيئاً، قامت من مكانها، مشت قليلاً باتجاه النافدة المغلقة، فتحتها عن أخرها ثم التفتَتْ صوْب البياض المنبعث من الشمس، هزت رأسها قليلاً كمن يحاول أن ينسى جراحاً اتعبته، تسمرتْ قرب النافدة تتأمل الشارع والوجوه وأشجار البرتقال المر الذي أنهكته رياح الخريف العاتية التي تجري في كل الاتجاهات.

قالت، وعيونها غارقة في الدموع التي أخذت شكل الندى، حين يعكس نور الزوال:

- رفضتْ أمي رفضاً قاطعاً، أن أعيش معها، قالتْ إنها غير مستعدة لتربية مراهقة بمفردها، وإنها تريد أن تخرج من دائرة أبي كلياً دون ذكرى ترجعها إليه كيفما كانت، حتى وإن كنت أنا تلك الذكرى. رفضها القاسي لي جعلني أحس بأنني لست ابنتها. أحياناً كثيرة كنتُ أشك في أنني لستْ من رحم تلك المرأة، لكن تفاصيل الشبه بيننا سرعان ما تنفي كل شكوك ومن أصلها، وتعيدني إلى خانة البداية. لماذا تركتني إذن؟ أتدري يا مهدي صرتُ أدرك اليوم معنى أن يتركك شخص بتلك الطريقة القاسية والحقيرة، لكني رغم ذلك أدع أسئلتي تركض نحو قلبي المتعب من شطط ما رأى، ونحو عقلي الذي تسكنه إلى الأبد يقين الشكوك.

صمتت فجأة وهربت بنظراتها بعيداً، وأشاحتْ بوجهها عن الشمس التي لمْ تشرق إلا قليلاً، ثم عادت إلى تقشير الخضر قبل أن ينتبه لدموعها المارة، وعابرو السبيل، وغربان الشرفات الميتة.

عبرتْ ذهني وأن أسرق النظر إلى ساقها المكشوف من تحت البيجامة القصيرة، التي أعطت جسمها بعض الاحتشام المغري، وجوه وأحاسيس كثيرة، بدتْ ثقيلة نوعاً ما. كانتْ هناك نسمات هواء تهب من النافذة محملة ببعض الرطوبة والقليل من رائحة الصفصاف التي دوماً ما ترجعني إلى حيث لا أريد، إلى السنوات العشر التي عشتها في الدار الكبيرة بين الأيتام، إلى ذاكرة الميتم واليتم. هل لي روائح أحبها؟

أم روائح أخاف منها فقط؟ ذاكرتي أنهكتها الروائح القادمة من ماض دفين. كان يمكن أن أحب رائحة الصفصاف لولا النزف الذي في وحواف الظل التي لمْ أغادرها إلى اليوم.

في الواقع كانت هذه الأفكار والذكريات تتمازج في ذهني بشكل فوضوي، بينما كانتْ نضال منشغلة وسط الخضار والتوابل. كان بلقاسم قد أنهى حمامه السريع وأشعل سجاره الملفوف وهو يتابع أخبار الظهيرة، على شاشة التلفزيون الموضوع في الزاوية الضيقة من الصالون.

التفتَ رافعاً بصره إلي قائلاً:

- الوضع كل يوم يزداد سوءً. اليوم تم الحكم على بعض الباعة المتجولين بالسجن خمس سنواتٍ بتهمة تخريب الممتلكات العامة، بعد أن كانوا في مسيرة احتجاجية سلمية ضد القمع الذي يتعرضون له من باشا المدينة ورجاله، والتخريب الذي حصل عند باب البلدية كان سببه البوليس وليس الباعة، على الأقل هذا ما قيل لي.

أجبته متهكما:

- خمس كيف، ولوْ ...

لمْ يعلق على كلامي، فرك أصابع يده بعد أن وضع سجاره على حافة المنفضة، ثم وقف منتصباً للحظة شارد الذهن، مكتفياً بالنظر إلى لوحة تشكيلية كانت معلقة على الحائط دون أن يولي ما قلت

اهتماماً. كانت عيناه تتأملان حركات الألوان الزيتية التي رسمت بها تلك اللوحة، يتفحصها بنظره وكأنه يراها لأول مرة.

التفتَ إلي بكامل جسده، رفع بصره صوبي، وهو يقول بصوت ممطوط وحاد:

- إسم هذه اللوحة " دفء ".

ثم واصل بصوت أقل حدة:

- أخر ما رسمت نجمة قبل رحيلها

- نجمة

خرج الإسم من بين شَفَتَيَّ مرتبكاً، يكاد يسقط منْ سمائه العالية، شيء ما دفعني إلى التقدم بضع خطوات، متجهاً إلى اللوحة وبصري لا يكاد يرى غير الحائط الذي علقت عليه دفء بمسمار صدئ، مددتُ يدي اليسري، أتحسسُ ملمس اللوحة الخشن، أما يدي اليمنى فظلت عاجزة عن الحركة، اقترب مني بلقاسم ببطء، سمعتُ صوت خطواته تأتي من الخلف، وقف بجانبي تماماً، وهو يحك أسفل ذقنه، وعيناه تغرقان في أمواج الألوان والأشكال، ثم قال سائلا:

- ألهذا الحد يمكن أن ترعبك لوحة؟

فكرتُ قليلاً في سؤاله، مخافة أن أقع منذ أول كلمة في فخ البوح والاعترافات، التي لا لزوم لها الآن، ذلك أن ثمة كلمات نتفوه بها لحظة ضعف أو ضجر، تقودنا إلى حتفنا بتهمة البوح.

بقيتُ مشدوداً إلى تفاصيل اللوحة وجهاً لوجْه، كعاشقين يتقابلان بعد فراق طويل. تذكرتُ فجأة أن نجمة ترسم حزنها كلما ضاقتْ الدنيا من حولها. مادام أنها كانت ترسم فهي لمْ تكن مرتاحة.

أجبت بعد هنيهات، وبعد تفكير طويل :

-المرعب في الأمر أنها كانت ترسم، وهي لا ترسم إلا لحظة حزن عميق

- حقاً ...

وقع جوابي عليه ثقيلاً ومربكاً للغاية. مسح على لحيته، قطب جبينه، وأخذ نفساً عميقاً وكأنه يمهد لقول كلامٍ لا يرغب في قوله. فهو لمْ يتوقع مني ذلك الجواب على الأرجح.

- دَعْنِي أخبركَ أنها رسمتْ ما يفوق العشرين لوحة، خلال سنة فقط من إقامتها هنا، معنا في هذا البيت.

بعد أن أنهى كلامه، حملق في وجهي بنظرة غريبة، ثم أشار برأسه كي أتبعه إلى أحد الغرف، فتح الباب، دخلنا. وكانت الدهشة أكبر مِنْ أن أُخْفِيَا تحتَ ملامح وجهي. أحسستُ ببعض الدوار المفاجئ.

جلستُ بتثاقل على أريكة من الجلد الأسود، تغطيه طبقة رقيقة من الغبار، كانت موضوعة وسط الحجرة.

الجدران الأربعة، كانت مملوءة عن أخرها باللوحات المعلقة. الأرضية مفروشة بحصير من البلاستيك ما يزال محتفظاً ببقع من الصباغة التي فقدت لونها مع مرور الزمن. لمْ أنتبه لما كان يقوله بلقسام لي في تلك اللحظة، جاء صوته بعيداً جداً وغير واضح. عَيْنَيَّ كانتا مرتشقتين في عمق المكان، وذهني يبحث عن أسئلة أخرى، كنتُ قد نسيتُ أن أطرح على مسامع بلقاسم في صباح هذا اليوم. أبحثُ عن أجوبة كبيرة يمكنها أن تخرجني من دوامة الصمت الذي كان يملأ الغرفة المشرفة على الحديقة الخلفية للبيت وعلى العزلة.

لستُ أدري من الذي أدهش الأخر أكثر، أنا أم بلقاسم، من منا أصاب الأخر برصاص كلامه غير البريء. كنتُ أشعر بالأرض تغادر من تحت قدمي المنهكة، وبصري كان يرفض أن يتنحى عن تأمل تلك اللوحات التراجيدية المصلوبة على الجدران الباردة. اللون الأحمر الطاغي في معظم اللوحات يحمل معه ارتباكات نجمة وصمتها وحزنها وأسرارها الصغيرة وخبايا تلك الفترة.

التفتَ بلقاسم نحوي. كأنه يقرأ قسمات وجهي من جديد. كانت بيننا كثافة من الألوان والأشكال والرموز الصامتة، المحاطة بإطار قديم من الخشب المسوس. كل شيء بدأ يصغر من حولي فجأة. كلما أحسستُ أنني صرت قريباً من نجمة، زادت هي ابتعاداً وتقلصاً. كنت في حضرة مرسم أنشئ داخل هول الكارثة. منفاها الصغير ما يزال

دافئاً كما تركته. لمْ تحل بعد ألوانه من فرط الغياب. عام كامِل قضتْه داخل هذا البيت الذي يخفي الكثير خلف أبواب غرفه المغلقة.

كنتُ أنا وذاكرتي ضائعين داخل مرسم، نبحث عن الإجابات المستحيلة، داخل أسئلة لا تقود إلا إلى أسئلة أخرى. أصلاً لمْ أكن أعلم إذا كنا داخل هذه الغرفة أم خارجها. ياه كل شيء يحول بسرعة كبيرة. كنتُ أظن أن الوقت المهدور في ألا شيء إنتهى عصره، لكن الحياة لها كلام أخر.

أشعر بالغبطة والاختناق حزناً. أنني أموت بين هذه اللوحات التي لا تصلح لشيء سوى الحرق.

أتمنى الآن لو أمسك نجمة وأقبضها من شعرها الملفلف، وأصرخ في وجهها بأعلى ما أملك: أني أموت بين ألوانك، الأحمر يوجعني، يملأ أذناي بأصوات الأقفال والأغلال. صوت جرس الفسحة البصاحية رسا داخل القاع في عمق رأسي.

سأجن إن بقيتُ داخل هذا الغرفة لثانية أخرى. قلتها لبلقاسم وأنا أنهض من على تلك الأريكة المتسخة بتثاقل، وأخرج باتجاه المطبخ. كانت نضال حينذاك ما تزال منشغلة بتحضير الغداء.

طلبتُ منها كوباً من الماء، كي أبلل حلقي الذي جف. نظرتْ إلى وجهي ومدتْ يدها لتتحسس جبيني، مررت رؤوس أصابعها على شَفَتَيَّ الجَافَّتَيْن. أغمضتُ عيني للحظة وعندما فتحتها وجدت ملامح نضال

تملأني حتى القلب. كان وجهها الهادئ ينفذ إلى الأعماق، مثل الرعشة الدافئة.

أدرت رأسي قليلاً نحوها، قرأت كل شيء في عيني، حتى قبل أن أتكلمن ثم سألتني: واش بيك؟

لمْ أرد. نظرتُ إليها طويلاً، كمن يكتشف بدهشة شيئاً غريباً. تنهدتُ وتفاديتُ أن أدقق في عينيها اللتين بدأتا تتفرسان بدقة الذي يريد أن يحفظ ملامح الشخص الذي يقابله. أحسستُ حينها بشيء عَصِيّ على الإدراك، يعصفُ بذهني وخاطري. وكلما اقتربتْ أنفاسها من صدري، شعرتُ بنار الحرقة والغيرة تخفت بداخلي.

لماذا شعرت بالغيرة من جدران قديمة وباردة؟ علقت عليها نجمة لوحاتها عبثاً، ومن غرفة صغيرة جعلتْ منها مرسماً زاخراً بالألوان، التي لَمْ تفقد ألقها إلى اليوم. كذبتُ كثيراً حين قُلْتُ إنَّ نجمة لا ترسم إلا لحظة حزن وقهر، فهي ترسم حين تكون في قمة زهوها وانتشائِهَا بالحياة، وبنفسها وبالأشياء المحيطة بها. كذبتُ بصدق على نفسي حين توهمتُ أن أجدها هنا، ببساطتها، بانعكاسات شعرها الأسود الذي كان يلمع من حين لآخر تحت سطوة الألوان. صرتُ في حاجة إلى شيء استثنائي في داخلي، شيء يعيد بناء ذاكرتي المرة التي حولتها لوحات نجمة إلى رماد فجأة. بي شوق كبير لفعل ما كنتُ أفعله دائماً، حين كانتْ تجتاحني نوبات الغيرة والغضب، كنتُ أحرق كل شيء بدم بارد.

هل فقدت القدرة على الغضب بهذه السرعة؟ كيف روضت الحياة جنوني وجموحي دفعة واحدة؟ وعلمتني كيف أصمت، وأحترق، وأتآكل في هدوء تام.

لعل ما يحرقني من الداخل لا يعني نضال في شيء، لذا لمْ أخبرها بما كان يروج في بالي لحظتها. نأيتُ منها قليلاً، ثم شربتُ كوب الماء وأعدته إلى مكانه. تراجعتْ هي أيضاً خطوة للخلف وتركتْ بيننا فراغاً أجْوَفَ. ساد صمت لثوانٍ، ثم قالت بمزاح غامز: لا تسمح للماضي أن يسرق منكَ مباهج الأتي، هكذا بهذا الحنين الساذج.

رمت قولها، وانصرفتْ لإتمام طبخها الذي كانت تفوح منه رائحة زكية، تفتح شهية الأكل.

ياه .. كم يخيف هذا النوع من النساء باندفاعه الشرس. عيناها المتوهجتان بالرغبة بَدَتَا لي لاَمِعَتَيْن تحت ضوء ما بعد الظهيرة. ابتسمتُ دهشاً من كلامها المرموز، وخوفاً من لمعة عيونها التي تعدني بأشياء كثيرة ستحدث بيننا حتماً.

بحركة مغرية رفعتْ البيجامة فوق ركبتها قليلاً، واستدارت بخفة هرة مشاكسة نحو الفرن. في حمى هذه القصة المجنونة كنتُ أتساءل: كيف تركتُ نفسي تنقاد هكذا نحو سحر نضال وموجها العالي؟ نضال التي تقفُ على حافة الطفولة الشقية، وعبثاً تحاول أن تصير امرأة كاملة الإغراء، كلما حاولتُ يد لمسها.. انزلقتْ بهدوء، واستقرتْ حيث الصمت والارتباكات المتتالية.

كنتُ في ذلك الزمن الذي صار اليوم بعيداً. كلما ملكني الشوق إلى نجمة أتساءل حتى وإن لمْ أستطيع الحصول على إجابة، أو ربما الإجابة لمْ تكن تعنيني بالدرجة الأولى. لماذا لمْ تغير سنوات السجن الطويلة من حبي لها؟ وجعلتني أتورط في ذكرياتنا حد الرعشة.

واليوم، وأنا أحاول صناعة نهاية مفجعة لأجمل قصة حب جمعتني بنجمة، وأنتهي من كل شيء، أجد أمامي وعلى مرمى اليد نضال بأسئلتها الصغيرة المستعصية التي تتطلب مني أجوبة كبيرة. تشدني دوخة متعبة لا أقدر على تحملها، كلما وقعتْ عيني على ساقها الناعم وأصابع يدها التي تغري باللثم. نضال لها تلك القدرة العجيبة على إرباك كل شيء في داخلي، وهي بعيدة وبيننا مسافة أمان. ماذا لو اقتربت أكثر، وصارتْ على مرمى قبلة، أكيد ستدخلني وسط الاغفاءة التي تشبه الموت. ماذا لو اقتربتُ أنا خطوة والتصقتُ بها من الخلف وهي تقلب الخبز في الفرن.

المسالك صعبة والعمر قصير، ونضال مثل شعاع الضوء الذي ينزلق من بين الأصابع ويمضي حيث يشاء، بعد أن يمنح اليد القليل من الدفء، ويملأ القلب عنْ آخِره بالبياض.

في لحظة ما راودتني فكرة أن أحمل حقيبتي واتجه إلى كازابلانكا، وأنسى قصة نجمة، وماضيها، ولوحاتها، وطفولتها الأولى التي التصقت بي، ولمْ تفارقني حتى وأنا أواجه الموت في مكاتب التحقيق وأقبية النظام المظلمة والعفنة. يوم كنت عاشقاً على هيئة مناضل.

سنوات مرت، وأنا ما زلت كما كنت، أتدرب على ابتلاع الألم جرعة واحدة، كي لا أشعر بمرارته.

ولكي أقبل فكرة أنني خسرتُ نجمة يوم انطفأت أمامي عارية كشمعة صغيرة، في زنزانة باردة، وانطفأت كلياً يوم هربت من القتلة إلى وجهة مجهولة. عزائي الوحيد أنها الآن تمشي مطمئنة ولا تلتفت للخلف خوفاً من يد غادرة قد تأتي بنهايتها سهواً. ولكي أقبل فكرة أنني خسرتُ أمي أيضاً يوم قدمت في المحكمة شهادة ضدها حين أخبرت القاضي، بأنها طعنت أبي من الخلف وهو لمْ يكن يضربها أو يعنفها لحظتها، وأنها لم تكن تدافع عن نفسها كما أدَّعَتْ. وخسرتها كلياً يوم ماتت في ركنها وحيدة، بعد أن صارعت مرضها لشهور طويلة، قبل أن يهزمها ذات شتاء. ماتت أمي وليس بسبب المرض الذي تمكن من جسدها، وأضعف قلبها فجأة، كما قال تقرير الطبيب. بل لأنها فقدت كل شيء مرة واحدة، ولمْ يظل هنالك ما يربطها بالحياة، فلم يعد لها شيء تواصل مقاومة بؤس الزنزانة من أجلة.

الإنسان يموت، حينما تموت بداخله الرغبة، الرغبة في البقاء.

ماتت ولمْ اودعها، ولمْ أزر قبرها. أمي غادرت الحياة في صمت مطبق، ودخلتْ في عالم الضباب الذي كلما رأيناه ينتابنا خوف اللحظات الأخيرة، وخوف الأسئلة التي تجعل من كل شيء يجري صوب فجوة الغياب التي تخبرنا همساً أن الدنيا ظالمة، ظالمة جداً.

ذهب خيالي بعيداً، حيث لعبة الأقدار التي تفاجئنا في أقل اللحظات انتظاراً.

تماهيتُ في علاقتي مع نضال بمرور الأيام، تماهينا إلى درجة بات يصعب علي أن أميز تفاصيل حياتي، عن تفاصيل حياتها. لا أعرف لماذا شعرتُ بهذا التماهي الباكر. هل لأنني فقدتُ كل قدراتي على البقاء وحيداً كالبحر. مَهْمُوماً كالقمر الشاحب، أم لأنني وجدت في نضال شيئاً ما طالما كنتُ أبحث عنه. شيء واقعي يعيدني إلى الأرض، ويفسد الخيال الذي أسكنه منذ طفولتي، الخيال الذي ضيعني، وقادني إلى الجحيم الذي أنا فيه.

في كل يوم، كنا نكتشف بعضنا أكثر، ونكتشف نقط التشابه بيننا، ونقط الاختلاف أيضاً. حكيتُ لها عن كل هزائمي الصغيرة، وحكتْ لي عن كل أحلامها الكبيرة، أغرقتني في تفاصيلها الظاهرة والخفية.

كانتْ المسافة بيننا كل يوم تتقلص قليلاً. ما بين النبضة والنبضة، كنا نمشي خطوة باتجاه بعضنا. إتخذت علاقتنا مساراً مشوشاً يمتزج فيه الحقيقي بالمتخيل، وتتداخل فيه الأحاسيس حتى يصير كل شيء فوضوي، لا منطق يحكمه. كنا نجتاز العتبات غير مهتمين تماماً بالذي سيحدث.

نضال، إمرأة تأسر بعفويتها وبساطتها. عبثاً مددت يدي المعطوبة نحوها، فمددت قلبها وعقلها وجسدها دفعة واحدة. في تلك اللحظة

الملتبسة، بالمشاعر التي تطورت بسرعة مخيفة، نسينا فرق العمر بيننا. كنت في الرابعة والأربعين من عمري وكانت هي في الواحدة والعشرين فقط. كسرنا الجدران العتيقة التي أنبتتها الخسارات والخيبات الفائتة، في دماغينا وجسدينا. وقررنا أن نمضي سوياً، في ما تبقَّى من العمر الذي كنتُ أتوقعه مثل كأس زجاجي إذا اِنكسر لنْ يرجع كما كان. لكن ثمة دائماً، صدفة جميلة، يمكنها أن ترتق القلب والعظم والعمر أيضاً.

نضال، قالت إنها لنْ تتركني وحدي، أواجه حرقتي وقدري الأعمى. وأنها ستكون لغتي الجديدة، بعد أن خانتني اللغة التي ضحيتُ من أجلها طوال الاربعين سنة الماضية. وستكون أرضي الأخيرة، ولنْ تسمح لتلك الصحراء القاحلة أن تتسع في أكثر. أعتقد أن نضال كانت تعرفني أكثر مما أعرف نفسي، تعرف هواجسي، ومواضع الجرح الغائر الذي سببتها سنوات الاعتقال الطويلة، تعرف كل الأشياء التي ضيعتني، والأشياء التي أضعتها، يوم رميت في زنزانة ونسيت.

الأيام كانت تمضي مسرعة. وأنا أقفُ مكاني منذ مجيئي إلى هذه المدينة قبل شهر من الآن. كان الليل في بدايته. كنا أنا ونضال وحدنا في البيت، بعد أن سافر بلقاسم إلى طنجة لحضور الجمع العام لنقابة المحامين، والذي من المفروض أن يدوم أربعة أيام كما قال. وجدناها فرصة جميلة للانفراد ببعضنا، وترميم ما يمكن ترميمه، وهدم كل الأسوار والأفكار القديمة، وكي نعيش الزمن الصغير الذي منح لنا، كما نشتهي.

نضال تجلس قبالتي على أريكة من الصوف. تضع ساقاً فوق الأخرى، ترتدي تنورة سوداء قصيرة، وتشعل سيجارة بين شفتيها. هكذا باغتتني بتصرفها ذلك المساء، استندت إلى ظهر الأريكة وابتسمت، ثم قالت وهي تداعب خصلات شعرها :

- هل تشعر بالندم حقاً؟

أجبتُ بتخابث :

- أندم، على ماذا أندم؟

ردتْ، وهي تسكب لنفسها كأس نبيذ :

- على السنوات الطويلة التي قضيتها وراء القضبان

استطردت ضاحكاً :

- في ذلك الزمن، كنتُ أشعر أنني بطل يحمل على أكتافه قضية كبيرة، يمكن أن تكون أكبر منه بكثير. في بداية الأمر كان الوضع أشبه بلعبة، كلما توغلت فيها أكثر، صار الرجوع منها مستحيلاً. وكلما أحسستُ أنني تحت رقابة النظام، زاد حماسي المجنون، وأنا أهتف في سري وَلِمَ الخوف، وليس لي شيء أخسره. في ذلك الوقت العصيب، كان النظام يعض بأنيابه على السلطة، وكله استعداد لقطع الرؤوس المعارضة بلا شفقة. أما القطعان الخائفة، كانت تغلق على نفسها الأبواب والنوافذ، وتنام باكراً كي لا يزعج أنينها المكتوم الطبقة

الحاكمة، الطبقة التي جردت الشعب من كل شيء، وتركته مهموماً ومصاباً بوباء الخوف. لا الصرخات ولا الاحتجاجات كانت في باله. أنا رجل رفض الاختباء خلف النوافذ المغلقة.

قاطعتني بسؤال سريع، وهي تنفث دخان سيجارتها على كأس النبيذ الذي كان في قبضة يدها اليسرى:

- ألم تكن خائفاً؟

أشعلت سيجارة، أنا أيضاً ثم أجبتها:

- لا أعرف، ربما كانت قسوة الحياة التي عِشْتُهَا في الطفولة، كافية لتنزع من صدري هواجس الخوف، من فقدان شيء ما. نتوقف عن الخوف حين نتوقف عن الإرادة. لا أدري على الأقل هكذا أتصور، ولا شك في احتمال خطئي. فأنا منذ فقدتُ أمي وأبي بتلك الطريقة البشعة التي حكيتها لك ذات بوح، فقدتُ معنى الارتباط بالحياة ولمْ يعد يعنيني العيش الذي يوقدني بخطى حثيثة نحو الموت المؤكد، الموت فوق أرض يحكمها ديكتاتور كبير، الموت قهراً وظلماً وجهلاً تحت سطوة الجلاد. الكرامة يا نضال، كنتُ أبحث عن الكرامة التي حرمتُ منها في دار الأيتام، وحرمتُ منها قبل ذلك تحت جناح أبي. ربما كنتِ على حق وأنت تقولين لي يوم أمس: كلنا خاسرون لأن الوطن خيب أمالنا الكبرى، لا أعرف من أين جاءتك هذه العبارة. وأنت في بداية الحلم. ولمْ يتجاوز قلبكِ بعد غفوة العشرين عاماً الأولى من حياته. أنتِ لا تعرفين معنى الخسارة حتى الآن.

القيتُ نظرة على وجهها الغائم، بالذكريات المثقلة بالحزن ثم أضفت :

- الأشياء التي تحيط بكِ لمْ تخذلك بعد، والحياة ليست تافهة بالقدر الذي تتصورين. ثمة شيء جميل يلوح في الأفق أمامكِ، ارفعي بصركِ فقط.

رفعت بصرها ناحية السقف، ثم ردت بعد أن جرعت كأس النبيذ دفعة واحدة، وكأنه كأس ماء :

- جردتني الدنيا من أجمل شيء، من أمي، وحولتني في لحظة غبن طفولية إلى دمية منزوعة العين والقلب، حتى مراهقتي عِشْتُهَا تحت أوامر أبي، وحراسته السخيفة لكل أفعالي. حتى أصدقائي، كان يتدخل في طبيعة العلاقة التي تربطني بهم. خوفه المبالغ علي جعلني أتعب، وأكتئب، وأصاب بالإحباط. كنتُ أرى خوفه الكبير علي شراً يمشي بمحاذاتي، يخنقني ويكتم أنفاسي. لمْ يكن مسموحاً لي بالخروج في الرحالات المدرسية كباقي زملائي. تخيل يامهدي أن حلمي حينها كان بسيطاً جداً. كنتُ أحلم أن أمشي حافية القدمين على رمال الشاطئ، دون أن تراقبني نظراته من بعيد. كنتُ أشتهي أن أغمر نفسي في أمواج البحر حتى يتبلل كامل جسدي، وأسبح كسمكة حرة، دون أن ينبهني إلى أن البحر كالرجال خائن وغدار، وأنه سيسحبني إلى أعماقه لحظة غفلة، وأن الوقوف على الشاطئ كالوقوف على الهاوية. كنتُ أشتهي أن أمارس ذلك الشرود العميق، ساعة غروب الشمس. وأحدق في قرصها الأحمر وهو يذوب شيئاً فشيئاً في زرقة البحر حتى

يختفي كلياً. دون أن أسمع صوت أنفاسه المتقطعة من شدة القلق. أذكر أخر مرة رأيتُ فيها البحر كان قبل سنوات طويلة، رأيته من بعيد، من خلف زجاج نافدة مقهى صغير. كان أبي مهووساً بقصص أشخاص إبتلعهم البحر. أورثَنِي الخوف من البحر، وكلما كبرت قليلاً، ازدادت وطأته أكثر، وزاد كرهي له أكثر.

ثم أضافت بنبرة غاضبة :

- أتدري يا مهدي، أن رفيق عمركَ، عبارة عن ديكتاتور صغير.

سألتها، وأنا أسكب لها كأس نبيذ آخر :

- أكان يمكن أن نتفادى، هذه الحرائق الباكرة، التي ألمت بنا؟

بدت متعبة جداً، ليس تعباً محسوساً في أحد أعضاء جسمها، بل في ذاكرتها القديمة. تعب أكثر اتساعاً وعمقاً مما كنت أتخيل، تعب ينبت من صدرها، ويتوزع في شرايِينها كلها. تحركتْ فاردة فخذيها قليلاً، رفعتْ تنورتها إلى مستوى الحوض، فتحتْ عينيها على مداهما الواسع، ثم قالت بعد تفكير :

- الأنانية يا مهدي هي الحكاية كلها.

لمْ أرغب أن استفسر القصد من عبارتها، التي تنطوي على أكثر من معنى. تأملتُ شرود عينيها، ونظرتها الطالعة من الفراغ إلى الفراغ. كيف صنع منها ذاك العطب الصغيرُ، كائناً يقف على الضفة الأخرى

من الحياة؟ ويتأمل البحر من بعيد. كيف حولها الخوف إلي بقايا سمكة، كانت تحلم بسباحة دون قيود. سايرتُ سكرها الذي كان في بدايته، وتركتها تحكي بارتياح عن أول قصة حب عاشتها، وهي في السادسة عشرة من عمرها وكيف أنها اختارت أن يكون أستاذها في الثانوي والذي كان يَكبُرها ثلاثينَ سنة، هو أول رجل تسلمه قلبها، ويستسلم له جسدها العذري، الذي لمْ يلمسه بشري قبله. وكيف أنه تخلى عنها يوم فض بكارتها وسحق قلبها، وتركها تندب حظها العاثر. وكيف أنها لم تَنْتَمِ لأي رجُلٍ، من الذين عرفتهم بعده. وأنه ظل لمدة طويلة يسبب لها حالة ذعر، كلما تذكرت ملامح وجهه. وكيف أنها صارت رخيصة ومتاحة، لأي رجل يحسسها بأنوثتها، ويقدم لها بعض الاهتمام، ويعدها بالبقاء دوماً، وأنه لن يتركها كمن سبقه إليها من الرجال، وكيف أنهم تركوها جميعاً بمجرد أن حصلوا على ما كانوا يطمحون إليه. وكيف أنها ارتبطت في أخر مرة، بكولونيل كبير في الجيش، كان يأخذها معه يوماً واحداً من كل شهر، إلي فيلا فخمة بمدينة الرباط، منحتها له الدولة هدية. وكيف انتهت قصتها به، يوم أرغمها على مضاجعته، هو وثلاثة من زملائه بشكل جماعي. ضاجعوها بشكل مقزز، وحولوها في ليلة واحدة إلى عاهرة رخيصة، وأنها كرهت جسدها الهش بين أنياب الكلاب المفترسة، وكرهت اليوم الذي ولدت فيه، وسط هذا المجتمع الذي حول النساء إلى مومسات، زوجات، خادمات تخصصهم المطبخ، والسرير.

كان ذنب نضال، أنها إمرأة شهية أكثر مما ينبغي، وجمالها الفتي، أكبر من أن يقاومه أي رجل، مهما كانت رتبته ومكانته. وكان ذنبها

الأكبر، هو بَحْثُهَا المتواصل عن حضن الأب. العقدة التي سببها لها بلقاسم، جعلتْ منها فريسة سهلة لذئاب الأدمية. كيف لذلك الخطأ الصغير في تربيتها أن يخلف كل هذا الدمار. وكيف لهذا الدمار أن جعلها تكبر هكذا وفجأة.

لا أعرف لماذا باحت لي بكل هذه الأسرار، وانفجرت كالسَّيْل المفاجئ، بوجهي.

صمتتْ للحظة خاطفة، وهي تملأ صحنها بسلطة الخس، والطماطم، ثم راحتْ تلتقط قطع الخس بشوكتها. أخذت كأس النبيذ اشتفته، ثم أشارت لي بطرف عينيها، أن أملأه من جديد. سكبت لها مزيداً منه. فابتلعتهُ دفعة واحدة، ثم استرسلت في الحكي مرة أخرى، لمْ أشأ أن أسألها عن أشياء محددة، تركتُ لَهَا حرية اختيار بَوْحِهَا المتدفق كما تشاء. لمْ أكن أحب الأسئلة الكبيرة وأنا معها، كنتُ أكتفي بكل ما هو صغير.

استلقتْ فوق الأريكة على بطنها، وهي تضع وسادة صغيرة تحت صدرها، حتى تحافظ على ارتفاع رأسها قليلاً. نظرت إلي، وهي تزف لي خبر حصولها على عقد تدريب في القناة الفرنسية الإخبارية، ومن المحتمل جداً أن يكون السفر نهاية الشهر. وأن مدة العقد ستة أشهر، وأنها تفكر بالبقاء هناك بعد نهاية فترة التدريب إن كانت الظروف مناسبة.

كما طلبت مني أن لا نتحدث في الموضوع أمام بلقاسم، لأنها تخاف رفضه، على الأقل حتى تحصل على الفيزا، بعد ذلك تضعه أمام الأمر الواقع.

وجدتها فرصة جيدة، لِأمرر رغبتي في السفر أنا أيضاً، وخصوصاً بعد أن عرفتُ بوجود نجمة في باريس، وذلك من خلال الرسالة التي كانت في حوزة بلقاسم، كنتُ قد وجدتها في خزانته وسط صندوق صغير، كان يكتنز فيه بعض الأشياء القديمة صباح اليوم، بعد خروجه للسفر باكراً، وخروج نضال للتسوق. قضيتُ تلك الساعة من الزمن في التفتيش بين أغراضه، وكأن شيئاً بداخلي كان متأكداً من وجود خيط ما، سيوصلني إلى نجمة، وهذا الخيط موجود هنا، في هذا البيت وبالضبط في غرفة بلقاسم، وبالضبط في خزانة ثيابه.

كانت رسالة عادية، أرسلتها نجمة بعد سنتين أو أكثر من مغادرتها الجزائر، أي قبل سبعة عشر سنة من اليوم. كانت تسأل فيها عن أحوال نضال وعن أحوال الوطن، وعن مصير اللوحات التي تركت خلفها. قرأتها سريعاً وأنا أبحث عن أي عبارة حميمة قد تكون كتبها للرفيق بلقاسم، عن رائحة حب قديم جمعها به في ذلك الزمن، يوم جَمَعَهُمَا صدفة سقف هذا البيت. كنتُ أمرر بصري على طول السطور ولمرات متتالية، أبحثُ عن كلمة واحدة يمكنها أن تشي، بما كان يجمعُهُما. لكن لمْ أجد شيئاً. كانت الرسالة جافة، حدثته فيها عن باريس وشِتَائِهَا البارد، وعن دخولها لدار الأوبرا لأول مرة، ومدى دهشتها من عرض بالي حضرتْهُ بصدفة. حدثته عن الكتب والأقلام

ودفاتر المذكرات التي اشترت ذلك الأسبوع من مكتبة قريبة من بيتها الذي يطل على النهر، وعن مكتبتها الصغيرة، ومكتبها الخشبي. حدثته كذلك عن نمط الحياة السريع في أوربا، وعن انشغالاتها الكثيرة، وعن الكنيسة الصغيرة المجاورة لبيتها. عن طقوس العبادة لدى المسيحيين، وعن وروائح البخور والأردية الجميلة للكهنة وحدثته عن صوت الأرغن والترانيم.

ما أثار استغرابي فقط، هو لماذا لم يخبرني بلقاسم بحقيقة تلك الرسالة، وكيف أخفى عني شيئاً كهذا، ولماذا نفى كلياً معرفته بمكان نجمة، هذا الأمر جعلني أطرح أكثر من سؤال.

نضال، ما تزال مستلقية على الأريكة، لكنْ هذه المرة على ظهرها، وكأس النبيذ الأحمر في يدها. سألتني لماذا لا أشاركها كأس النبيذ. أجبتها أنني أحس بمغص في المعدة، كما أني لا أحب مذاق النبيذ أجده مراً. أذكر أنها ردت بِمَكْرٍ قائلةً: المناضل الحقيقي هو الذي يعود متأخراً من ساحة النضال، ثم يشرب قنينة نبيذ أحمر كاملة، وينكح رفيقته من الأمام والخلف في ليلة واحدة، دون أن يغمض له جفن.

أرد بمزاح غائب، كي لا أسقط في التنظير الأجوف :

- تقصدين المناضلين الأغبياء مثلي، أم المناضلين الأذكياء فقد صاروا في مناصب السلطة والمسؤولية، بعد ما تركوا ساحة النضال في وقت مبكر، وتوجهوا زحفاً على بطونهم صوب طاولة العشاء الفخم

الذي أقامه النظام على شرف الخونة والعملاء، في قصره الذي يطل على البحر ذات صيف.

نهضت من مكانها متوجهة إلى الحمام وهي تقول :

- ألمْ يكن من الأفضل لك أن تزحف كالبقية؟

- حتماً فشلتُ في أن أكون سحلية تغير لونها حسب المصلحة.

ضحكتُ ثم اَضفْتُ:

- تَعْرِفينَ يا نضال، كان يجب فعلاً أن أزحف على بطني وأغير مسار حياتي إلى الأبد، كان يجب أن أدرك حينها كم أن الوقوف صعب في وجه النظام.

همست في أذني بعد أن عادت من الحمام، وهي تضع قليلاً من الحمرة على شفتيها :

- هل جربت يوماً، أن تزحف بلسانك فوق نهد امرأة

أجبتُ بلا مبالاة واضحة وباقتضاب :

- لا

همست مرة أخرى، بنبرة خافتة :

- هكذا، ببطء

وراحت تمرر لسانها خلف أذني، وعلى رقبتي ببطء قاتل. ثم عادت لتجلس على الأريكة، وكأن شيئاً لمْ يحدث. أراني الآن أتورط فيها كلما تكلمت أكثر وكلما اقتربت مني، ذاب الجليد بيننا من دفء همسها. لا شيء سيوقفها عن التوجه صوبي باندفاع مربك، كانت كلما كلمتني عن البحر والشجر والوجوه والحرائق والخوف والمرايا والاغاني والقصائد، رأيت بداخلها طفلة تبحث عن أجوبة على مقاسها.

تمتمت مثل الخارج من معركة، كان وحده الخاسر فيها، وهي تسكب لنفسها كأس نبيذ أخر :

- أتدري يا مهدي، أنني أحاول أن أتدرب من جديد على كيف أحب

خلال ساعتين أو أكثر، تناثر الحديث بيننا دونما ضوابط أو تركيز. بوح مبعثر قذفته الأعماق دونما خوف. قلنا كل شيء، وتحسسنا ما يمكن أن تخفيه ظلال اللغة وراءها. كنا نمشي صوب بعضنا بحذر شديد. الزمن كان يسير بسرعة، وكم تمنيت أن يتوقف للحظة فقط، وتستمر تلك اللحظة معنا للأبد. تمنيت أن ألمس أصابعها وأبحث فيهما عن أسباب الدهشة.

فجأة نِمْتُ في صمت مستعرضاً الأيام التي مرتْ، وظني أن نضال مثلي، كانت في صمتها تفكر بما أفكر به. من هذه الحجرة الصغيرة التي شبعت من الكلمات المنهكة، هي ذي لحظتي الأولى مع نضال حيث صمت كل شيء داخل هذه الدهشة الطفولية.

رفعت نضال رأسها قليلاً، نظرت إلى وجهي ثم قالت :

- أتفكر حقاً بالهجرة إلى فرنسا؟

بحسرة من فقد كل شيء، قلت :

-لا شيء لي هنا، لا بيت، لا أولاد، لا زوجة، لا عمل. فلماذا أظل؟

من عمق صدرها ردت، فقط لتقول لي إنها تستطيع مساعدتي في الخروج من المغرب. سألتها مندهشاً: كيف؟ ردت: لحظة من فضلك، اشعل سيجارتي، وبعد ذلك أخبرك كيف. لا تتعجل، من صبر عشرين سنة، يقدر أن يصبر لثانية إضافية، صمتتُ كما طلبت مني.

سحبت نفساً طويلاً، ثم نفتت الدخان عالياً :

- يمكنني أن أحصل لك على عقد تدريب من مدير المعهد، الذي أدرس به، وبذلك العقد ستتمكن من الحصول على تأشيرة الدخول لفرنسا، من مطار شارل ديغول.

ضحكتُ كثيراً من كلامها، ثم علقتُ عليه :

- أتوقع أن المسألة ليست بهذه السهولة التي ترين

قاطعتني بسرعة :

- ثِقْ بِي فقط، وسيكون العقد أمامك في أقل من أسبوع، هذا وعد.

ثم واصلت :

- قال لي أبي، أنك حاصل على شهادة متخصصة في مجال الصحافة والإعلام

-نعم، حصلتُ على تلك الشهادة في السجن، وهي الشيء الوحيد الذي ربحته من الماضي. ومن السنوات الطويلة التي قضيتها خلف القضبان.

ردت بحماس :

- هذه الشهادة ستجل المهمة سهلة علي

بعد ما سمعت منها، ملت أكثر برأسي صوبها، وزاد انتباهي ثم قلت :

- ليكن سأنتظر

قامت من على الأريكة وَمَشَتْ خطوة نحوي، انحنت أمامي، ووضعت يدها على طرف ركبتي وقالت :

-خلال هذا الأسبوع يجب أن تجهز جواز السفر، وتودع من تريد توديعهم.

ثم أردفت، تحت ضحكتها الإباحية :

- في باريس يمكننا أن نمارس الجنس كما نشاء، لأنني سأسبقك إلي هناك، إلى بلاد الفن والحرية.

همست في آذنها برقة، دعك من كل هذا، ودعيني هذا المساء، أقرأك من ألوان الغواية في عينيك، نحن نستحق القليل من الحياة، ووجهك يستحق هذا النور الذي يكبر فيكِ مع كل كأس. ثم ماذا سنخسر لو محونا كل خطوط المستحيل، وكذبنا سهواً على بعضنا، وكتبتُ على كفك بخط عريض "أن الحياة أبد غارق في الممكن" أتَذْكَر أنني رأيتك لأول مرة في مسلك قديم، كان يجرني من ذاكرتي إلي غيركِ.

ضحكتْ طويلاً مني، عندما همستُ في أذنها بذلك الكلام. وقالت: إنها لا تفكر بممارسة الجنس معي، في مدينة حزينة اِسمها وجدة، وأن ليلتنا الأولى ستكون في باريس.

ياااااه .. مدننا أصبحتْ لا تصلح حتى لممارسة الجنس، شيء ما إنكسر فيها، بعد أن سقط من علو شاهق، شيء ما مات في شوارعها وتعفن، وفاحت رائحة عفنه حتى أزكمت الأنوف والقلوب، وبعثت على الغثيان. كم صارتْ أرض الوطن ضيقة رغم اتساعها يا نضال؟

تَمَنُعُهَا من ممارسة الجنس معي، أطلق رصاصة جميلة على صدري. ما أشهى تلك المرأة التي تقابل شهوة رجل إليها بالرفض. هذا النوع من الرفض لا نتقنه نحن الرجال.

لمْ أتصور نفسي بتلك الهشاشة ليلتها، نمتُ على صدرها باستكانة ذلك المساء دون شهوة، فأدركت حينها أن ما سينشأ بيننا لنْ يكون حالة شهوة سريعة العطب. وضعت قدري في كف يدها اليمنى، ونسيتُ أنها مجرد طفلة شاردة في الماضي المتعب. ما كان بإمكاني غير التشبث بها وبوعدها لي، ما كان بإمكاني غير النوم، كطفل صغير بين ذراعيها.

وقبل أن ينتهي ذلك الأسبوع، كان العقد بين يدي، ولمْ يتبَقَّ سوى جواز السفرن وأرحل دون رجعة. لمْ أسألها كيف حصلتْ على عقد تدريب في أكبر قناة إخبارية في أوربا لمعتقل سياسي سابق، قضى نصف عمره في السجن بهذه السرعة.

وفي ذلك الأسبوع، كانت هي أيضاً قد حصلتْ على التأشيرة الخاصة بها ولمْ يتبقَّ أمامها سوى موافقة بلقاسم. تعاونا على إقناعه بضرورة السفر، وأن يمنحنها فرصة صغيرة، للنجاح بعيداً عن هذه الأرض التي تبتلع شبابها كل يوم، أن يسمح لها ببناء مستقبل أفضل.

وافق في الأخير، رغم أن داخله كان مشوشاً وحائراً ورأسه كان يضج بكل صخب الأفكار.

أخفيتُ عنه قصة العقد، الذي حصلتُ عليه بفضل نضال، كي أتجنب شكوكه الكثيرة. في الحال الذي أنا فيه، كان من الضروري جداً أن أخفي عنه أمراً كهذا، كي أتجنب أسئلة لستُ مستعداً للإجابة عنها أو الخوض فيها الآن.

* * *

سافرتْ نضال، بعد ذلك بثلاثة أيام دامعة العينين، وبقيتُ أنا أنتظر تسلمي جواز السفر من السلطات، بعد أن تدخل أحد معارف بلقاسم والذي كان يعمل مديراً لقسم الشؤون الداخلية التابع للعمالة، لأجل تسهيل الإجراءات الإدارية.

سألني إلي أين تنوي السفر؟ فقلت له نفس الكذبة الصغيرة التي استعملتُ مع بلقاسم، وأتت أكلها: إلي السعودية ولا أعرف لماذا اخترت ذلك البلد بالذات، دون غيره من بلدان العالم. كما أنني ادعيتُ، أن أحد أقاربي أمن لي شغلاً بأحد الشركات الكبرى التي تعمل على تكرير البترول بالخليج.

أتذكر أنه، رد متهكماً:

- وللحج طبعاً، أيها الرفيق

أرد، بنفس نبرة التهكم المستتر:

-أكيد للحج والعمل، للدنيا والآخرة

أجاب بسخرية:

- لا تنسى البلاد والعباد من الدعاء، في تلك البقعة المباركة

انفجرت مقهقهاً، وكانت تلك هي أول مرة أضحك فيها بذلك الشكل، وقلت مجيباً :

- سأفعل ذلك بالتأكيد.

سلمني جواز السفر، وطلب مني أن أبلغ سلامَهُ الحارّ إلى بلقاسم، ثم ودعني بعبارات مازحة، تطالبني بعدم لفظ هذه الكلمات أمام بدو الصحراء." شيوعية، يسار ، تشي غيفارة، لينين، ماركس، ماركسية، حرية، ثورة، نضال، فصل الدين عن الدولة، علمانية، ... الخ". وإلا سيكون مصيري المقصلة أمام أحفاد قريش.

* * *

وصل يوم سفري، بعد أن حصلتُ على التأشيرة، أي بعد ثلاثة أسابيع بالضبط من سفر نضال. جهزتُ حقيبتي الصغيرة. وضعتُ فيها بعض الأشياء التي لمْ أقدر على التخلص منها، ودعتُ بلقاسم الذي توجه إلى مكتبه في الصباح الباكر وتركني في البيت؛ لأن الحافلة التي ستنقلني إلى كازابلانكا كان موعدها في الساعة العاشرة والربع، وكان ما يزال أمامي ساعة تقريباً. وضعتُ جواز سفري، وتذكرة الطائرة التي كانت قد بعثتها إلي نضال قبل يومين عبر الفاكس، ومبلغاً مِنَ المال كنتُ قد استلفته من بلقاسم. بالإضافة إلى عنوان الفندق الذي سأنزل فيه، في محفظة الجيب.

توجهتُ نحو الصالون، نزعتُ من على الحائط تلك اللوحة التي يطلق عليها اِسم "دفء" فصلتُ الثوب عن الإطار، وأزلتُ الغبار عنه،

ثم حشرته وسط ملابسي في الحقيبة، لمْ أكن أريد مغادرة هذا البيت وأترك هذه اللوحة خلفي معلقة على ذلك الحائط الشاحب الغارق في حزنه.

لمْ يَنْتَهِ الأمرُ هنا، قصدتُ مرسم نجمة، في تلك الحجرة الصغيرة التي تخفي وراء بابها المغلق، أكثر من عشرين لوحة، سكبتُ عليها ما يقارب اللّتْر ونصف من البنزين، الذي كنتُ قد وجدته بالصدفة في الصندوق الخلفي لسيارة بلقاسم، ثم اشعلتُ النار فيها، وهي معلقة. وجلستُ على الأريكة أتفرج على أمواج النار وهي تلتهم الألوان والأشكال وعلى سحابة الدخان الأسود وهي ترتفع نحو السقف، ثم تتسلل شيئاً فشيئاً من النافدة ومن تحت الباب. أنفاسي بدأت تضيق من كثرة الدخان، وكدتُ أختنق. انسحبتُ من الحجرة، بعد ما وصلت النارُ إلي الحصير البلاستيكي المفروش على الارض.

صدقاً لمْ أكن أخطط أبداً لحرق تلك الرسومات الجميلة. الفكرة خطرت ببالي صدفة وأنا أستحم، وقررتُ تطبيقها حين حصلتُ على قنينة البنزين. هكذا بكل بساطة.

وقبل أن أغادر البيت، كتبتُ رسالة قصيرة لبلقاسم على ورقة، قلتُ لهُ فيها "أنا أسف يا رفيقي العزيز، لأنني أحرقتُ المرسم بهذه الطريقة البشعة، لكن حقيبتي صغيرة كما تعرف، ولمْ تكن لتسع تلك اللوحات الجميلة والكثيرة. أخذتُ معي دفء فقط، لأنها الأقرب إلي قلبك، كما سبق وأخبرتني، وأشعلت النار في البقية، إذا وصلتكَ هذه

الرسالة قبل أن يصلها الحريق، فتقبل اعتذاري الشديد حينها،
رفيقك مهدي "

علقتُ الورقة خلف الباب بمسمار، ثم تركتُ البيت وتوجهتُ مهرولاً إلى محطة الحافلات، دون أن التفت للخلف.

لا أدري كيف حدث كل هذا، كان الأمر أشبه بحلم مفزع. وجهاً لوجه أقفُ الآن أمامي، ملامحي معكوسة على زجاج الحافلة التي تركض بي خارج حدود المكان، أحس وكأنني انقسمتُ إلى إثنين، ولا أعرف أي واحد منهما هو أنا، أنا الذي أحرقتُ المرسم وجلستُ أتفرج على النار والدخان والرماد، واعتذرت عما فعلت برسالة قصيرة، أم أنا الذي هربتُ كالمعتوه حين وصلتْ شرارة اللهب وحرارته إلي أطراف قدمي.

أي واحد منهُمَا شيد الخراب حول الأخر؟

الرماد يملأُ صدري، صار في كفي، وحتى في لغتي، وأنا هنا مندس بين الحسرة على الماضي والخوف من الأتي. من أنا وسط هذه الغفوة؟ ربما سأقضي عمراً لا أملكه اليوم، في البحث بلا هوادة عن ذاتي.

لماذا يعذبني الله عن جرم اقترفه آخر؟ وذلك الأخر يسكن عقلي، ويتحكم في كل أفعالي. لماذا يحاسبني عن ذنوب لستُ أنا مرتكبها؟ بل ذاك الذي يشاركني أعماقي رغماً عني، أشعرُ أنني منقسم إلى إثنين.

* * *

اليوم ..

أنا هنا في باريس، وصلتُ قبل يوم واحد، أنا الآن أقفُ على الجسر الكبير، على حافة النهر الذي يقسم المدينة نصفين.

السماء غائمة وتمطر بغزارة كبيرة، قطرات الماء البارد أيقظت لغة تعبت ولمْ تعد تمنحني ما أشتهي، مرتْ أكثر من نصف ساعة على تواجدي في هذا الركن الفارغ، تنتابني رعشة الذاكرة القاسية كلما توقفتُ في منتصف الطريق، يسحبني الشعور بالندم إلى منتهى التيه، وكلما أغوص في النصف قرن الذي مضى، أحس أنني ما زلت ذلك الطفل الذي لمْ يأبه يوماً للخراب المتناثر حوله. أهذا أنا أم بقايا رجل طالما راهن على مستحيل تخيل أنه ممكن.

مطر باريس بارد، ولا أدري كيف تحملتُ البقاء هكذا، جامداً كتمثال من الصخر، غير مهتم بزخات المطر. أحببتُ منظر الجسر الذي كان يكسوه ضباب خفيف، تخترقه أضواء صفراء خافتة، تبعثها أعمدة الانارة العمومية.

الساعة حينها كانت تشير إلي السادسة مساء. رميتُ تلك الجريدة التي صارتْ في قبضة يدي كعجين ورقي في حاوية الأزبال. ثم عدتُ أدراجي للفندق قبل أن ينزل الظلام، ويصعب عليَّ تذكر طريق العودة.

وصلتُ إلى غرفتي في الفندق. أشعلتُ التلفزيون حتى أكسر صمت المكان لا أكثر. نزعتُ حذائي كي أريح قدمي قليلاً من يوم مرهق،

قضيته في التجول بين شوارع المدينة وأزقتها كتائه، وأغير ثيابي التي إبتلت، بمطر كان رَفَضَ التوقف.

الرسالة الرابعة

إلى ريما

10 تشرين الثاني 2016

ريما.. عزيزتي

لكي أقاوم هذا الفراغ المحيط بي من كل الاتجاهات، قولي لقلبي ماذا يفعل؟ وكيف يركض بعيداً عن صمت السكتة الأخيرة؟ وذكريه من حين لأخر بأن الحياة ما تزال ممكنةً. علميه كيف يواصل النبض وسط الخراب، امنحيه بعض الوقت ليكتب لكِ هذه الرسالة. امنحيه أي شيء يذكره بأنه كان يوماً بين يديك.

أصبتُ بكِ صدفة ذات مطر، وكلما جاء المطر هزني من الأعماق، داخل هذا الغياب الطويل. ألمْ يكن من الأجدى أن تأتي إلى دانكورك لزيارتي قبل أن تسرقني غفوة الموت، وأغيب في البياض الأبدي، كأنني لمْ أكن. قاسية عودتي نحو تربة باردة بهذه الطريقة الموغلة في الوحدة والخواء. وقاسٍ هو الحنين اليكِ إلي ظللكِ وأنفاسكِ وملامحكِ وبهاكِ.

كيف رمتنا الأقدار كل في منفاه؟ كيف أحترق سحر اللحظة حين التقينا، وسكنتُ وجهكِ وعينيكِ؟ كيف، ألمْ تدرك بعد كل

هذا؟ أرهن لغتي وحواسي مقابل أن أدهش قلبك قليلاً، وأرغمك على نزع الغطاء من فوق وجهكِ وخديكِ حتى أراك ولا أراك. أرأيت ماذا يفعل فينا الحنين المفاجئ؟ كيف يسرقنا من غفوة المساء ويضعنا في التيه الذي لمْ نعد قادرين على حمله وحدنا؟

أمازلتُ في ذاكرتك وكتاباتك وتفاصيل يومك؟ فأنت لمْ تكتب لي منذ مدة طويلة. كيف حرمتني منكِ مباهج الحياة وأحزانها هكذا دون سبب مقنع؟ وكيف تغير الزمان هكذا؟ ألم أعد يتيمك الوحيد؟ قلتِ لي في ذلك المساء المعطر برائحة حضورك، أنني أشبه الطير المتخفي الذي يبدل ريشه كلما تغيرت الفصول. وقلتِ كذلك أن في نظرتي بعض الخوف لا بل الكثير من الخوف، الذي حملته معي من الطفولة البعيدة. وقلتِ لي همساً كي لا يسمعنا أحد. دَعْنِي أتلاشى في دمكَ الاحمر كما أشتهي، هذا الليل الطويل لنا. امتزج بي، بلغتك، وخوفك، ويتمك، وجنونك وماضيك، وحاضرك.

اااه يا ريما، لو تعرفين فقط، أنكِ بدايتي ومنتهاي، إلى اليوم لا أعلم لماذا كلما تذكرت أنكِ في حياتي رغم قلتكِ، فكرتُ جدياً في تأجيل رحيلي إلى اشعار أخر.

وكلما حزنتُ لغيابكِ، تأكدتُ أنكِ هنا بين النبض والنبض، وأن كل الطرق التي جمعتنا يوماً اندثرت مسالكها. هل حقاً كانت حياتي قبلكِ قدراً بلا معنى؟ لماذا أيتها الفراشة الصغيرة، ينتابني الخوف كلما لمحت الأبواب القديمة التي أصبحتْ موصدة فجأة. لا ألومك يا ريما،

على شيء، ولكني ألوم المسافات الطويلة، ونقاط التفتيش والحواجز العسكرية التي بيننا.

أنتِ امتدادي فيك من دمي من صفاتي وتفاصيلي. قد تستغربين من هذه الجملة، وتتساءلين في عمق نفسك ماذا أقصد بها؟ لنْ أخبرك بقصدي، سأتركك وسط السؤال حائرة. لا تلومينني أيتها الفراشة محروقة الجناحين. فأنا مثلك استسلمتُ للحياة، وسرقتْ روحي حين التفت للخلف ذات مرة. ريما هل تَرَيْنَنِي؟

سنة تمضي، وأخرى تجيء محملة بتفاصيل زمن يتهددنا بزخم الخيبات القادمة. لقد صدمني ما رأيته هذا الصباح على الفيسبوك، فكلما رأيتُ ذلك الفيديو القاسي، بكيتُ في صمت. اختفى إياد فجأة، وانقطعت أخباره عنكِ وعني وعنا. وظهر فجأة وهو يقطع رؤوس الأبرياء بلا شفقة. كيف تحول ذلك الشاب الحالم إلي قاتل ومجرم في صفوف داعش؟ كلما تذكرتُ ملامح وجهه وهو يذبح عدداً كبيراً من الأبرياء، لا ذنب لهم سوى أنهم رفضوا الانضمام إلى ذلك التنظيم الهمجي، أدركتُ كم أن الشر قريب منا جميعاً. ويمكن في أي لحظة أن نتحول الي قتلة وسفاحين.

كان إياد مزهواً بما أحدثه من خراب حوله، في الناس والأرض والسماء. كان يتلذذ بالدم الأحمر الذي كان يغطي المشهد منذ بدايته الى أخر ثانية فيه. كمْ كان عدد الأشخاص الذين ذبحهم إياد. لا أذكر، لا جدوى من عد لا يفضي إلا إلى أحزان أكبر. كم هي مظلمة الحياة، حين نفقد من كان سنداً لنا. أشعرُ بكِ يا ريما، وأشعر بالخوف الذي

أنبته إياد بقلبك. خادعة الأيام حين تسرق منا الروح سكينتها المرجوة، وخائنة حين ترفض أن تمنح القلب بعض الأمان المنتظر. هل يكفي يا صغيرتي أن أقول إنني أُحِسُّ بحجم الحزن والخوف والذعر، الذي يسكنك في هذه اللحظة.

كم الحروب قاتلة حبيبتي. وكم مازلتِ صغيرة على كل هذا الدمار، الذي أحاط بك فجأة. لن أقول شيئاً غير أنني أحسكِ.

انها تمطر، وأنا مازلت في سريري الأبيض أقاوم الموت المتربص بي، وأرفض الرحيل قبل أن أنهي روايتي التي أكتبها لكِ فقط. دعيني أخبركِ حقيقة أخرى، أنا أكتب كي لا أموت وحيداً ومنسياً، هكذا وسط هذا الفراغ اللامتناهي. لمْ يعد بمقدوري حمل ثقل هذه الاسرار فوق صدري.

أحاوِلُ عبثًا صُنْعَ مجموعة كبيرة من الناس حولي. أحاول قتل الغربة التي في داخلي بالكتابة. لا أعرف إلى أي حد سأنجح في هذا الأمر، لكن ها أنذا أحاول بكل ما أملك من لغة وذاكرة ووجع ورغبة.

كنتُ أعتقد في ما مضى، أنني يوم أموت سأكون محاطاً بعدد كبير من الرفاق والأصدقاء والنساء والكتب.

كان اعتقاداً واهماً، حملته معي منذ وضعت قدمي في فرنسا. واليوم أنا وحيد جداً، وخائف على حد سواء. لمْ يعد بإمكاني رسم الابتسامة على وجهي لئلا تظهر ملامحي المنهكة وأسناني الفاسدة للممرضة، التي ترتب أوراقي وأقلامي ومواعيد ادويتي.

لمْ يزرني أحد مُطْلَقاً، حتى جاري ذلك الايطالي السمين اعتذر عن زيارتي؛ بسبب التزام عائلي اضطره لسفر خارج فرنسا. في الحقيقة لمْ يكن لي أصدقاء، كنتُ مكتفياً دائماً بذاتي فقط. انتهت علاقتي بالبشر يوم اكتشفتُ تفاهة الحياة الواقعية وزيفها، وبدأت في الكتابة ورسم حياة أخرى على الورق، إلا أنني أبقيتُ على بعض الود مع صديقتي الدائمة مدام أوليفيا. ليس حباً فيها، كل ما في الأمر أنها كنت تأتي من حين لأخر لنمارس الجنس الفموي الذي ليس له أي تكاليف تذكر.

اعتذر عن أخر جملة كتبتها. لمْ يكن من المعقول أن اخبرك بكلام كهذا. بالطبع لمْ أكن لأصرح بذلك علناً، لو لا مساحة الارتياح التي تمنحني أيَّاهَا الكتابة، وخصوصاً كتابة الرسائل التي تكون وجهتها صندوق بريدكِ. الكتابة إليكِ لا تحتاج القوة، بقدر ما تحتاج إلى استدعاء المزيد من الضعف. الكتابة إليك لا تحتاج التركيز، بقدر ما تحتاج إلى الاندفاع والتدفق.

مهما يكن، فقد صار الوضع على هذا القدر من الفوضى فجأة. وهذا ما جعلني مكتفياً بواقع مبتذل وبائس. هكذا تأكد بما ليس فيه شك، أني سأموت بعد اسبوع أو أقل. سمعتُ بالصدفة الدكتور فيكتور يقول هذا الكلام لأحد على الهاتف. لا أعرف هل سمعته فعلاً أم تَهَيَّأَ لي لا أكثر.

لم أجد الأمر خطيراً أو مخيفاً. مجرد موت طالما انتظرته. الخوف الذي قد يكون أعظم ما يبلغه المرء، عند معرفته بتاريخ موته، لمْ

اشعر به لحظة سماعي تلك العبارة التي رماها الدكتور إلى الضفة الأخرى من الهاتف.

كانت مزحة سخيفة مني حين أخبرتك ذلك اليوم أن حالتي الصحية تتحسن، على العكس من ذلك تماماً يا ريما، لمْ أعد أشعر تجاه الحياة بأي شيء، لا حب ولا كره. ربما شعرتُ في فترة ما بشيء يشبه القرف والاشمئزاز. لكن لمْ يدم معي طويلاً، سرعان ما تحول إلى اللاشيء. ليس لأنني غير مُبَالٍ بما يحدثُ حولي وبداخلي، بل لأنني مدرك جيداً، أن الحياة مجرد مزحة سخيفة، وأن ما أعيش هو واقعي وقدري الذي أتحاشي النظر إليه.

لا أدري ما الذي قادني نحوكِ في هذا الصباح.

يتناهى إِلَيَّ صوتُكِ، يناديني من خلف النوافذ الزجاجية الكبيرة المطلة على البحر والزرقة. اقوم من سريري ببطء المريض وكسله. أقفُ وراء النافدة أضع جبهتي على زجاجها البارد. أرى وجُوهاً لا اعرفها، أجساد تختبئ داخل معاطف صوفية، تجوب الشوارع في عجلة. يمتد بصري المتعب إلى نهاية الطريق حيث الميناء القديم، يتراءى لي وجه أبي هناك، يدخن سيجارته بتلذذ. سمعته يقول ساخراً، وهو ينفث دخانه في اتجاهي: عد إلى سريركَ وأوراقكَ، مثلك لا يجب عليه أن يهدر الوقت في الوقوف خلف النوافذ المغلقة. خيل لي أنه في لحظة خاطفة أنه خلفي تماماً، يضع يده على كتفي الأيسر. وفجأةً ألتَفَتُ إليه، كان قد نزع سوطه الجلدي من خرجه، وأخذ

يضربني على كتفي وظهري بكل قوته، وهو يشتمني بأقذع الألفاظ. تحاملت على نفسي. فسكتُ على مضض.

عدتُ الى مكاني، وأنا أهمس في سري: لا داعي للخوف يا مهدي، إنها مجرد أوهام صنعتها مخيلتك. رغم أنني مدرك أن هذه الأوهام كانت في يوم ما حقيقة، ربما لو كنتِ هنا حتماً ستدركين ما أقصد بضبط. ربما ما حدث قبل سنوات كان خطأ فادحاً أحاول التطهر منه اليوم بأي طريقة. وإن اضطرني الأمر للكذب على نفسي وعليكِ.

أرى كومة الأوراق المبعثرة فوق طاولة وعلى الأرض. أحاول عبثًا جمعها، وترتيبها حسب ترقيم الصفحات. لكنها تحترق وتصير كومة من الرماد الأسود، كلما لمستُها بأطراف أصابعي. أرمي بصري صوب الباب، كان أبي جالساً على دمه الذي سال ولطخ ثوبه، فرسم عليها بقعاً لا يزال لونها قانياً، وقد غطى بكفه اليسري، الفجوة التي مزقت أسفل ظهره.

أفيقُ من غفوتي على نسمة ريح باردة تتسلل إلى جسدي من النافدة، بينما وقفت منتصباً أراقب الميناء لمْ يكن أبي هناك ولا هنا. لمْ يكن صوتكِ ينادي من بعيد. كنتُ وحدي في الغرفة أوغل في الذاكرة، وأتأمل الزرقة الداكنة للبحر، والبرد يحد ابره لتنخسني، فأعود إلى طاولة الكتابة كي أنهي الرواية التي كلما ظننتُ أنني اقتربتُ من إتمامها، تداخلت الأحداث والوجوه والعواطف والأفكار في عقلي، وصار الخلاص منها مستحيلاً.

انقضت ساعة، أو ربما أكثر، وأنا قابع خلف طاولة الكتابة، كيْ أُثْبِتَ لنفسي أنني أستطيع أن أنهي هذا النص قبل أن يمر الاسبوع المتبقي من حياتي. إنني أسابق الزمن يا ريما، أسابق الموت القريب.

اليوم وقبل أن أشرع في كتابة هذه الرسالة لكِ بثوانٍ قليلة. وقفَ الطبيب عند عتبة حجرتي، وقد كان مدركاً أول ما رآني، أنني لمْ أنم طول الليل. كان الإعياء واضحاً على ملامح وجهي. الهالات السوداء تحت عيني، احمرار في بياض الحدقة، آلام الكتفين والرقبة، صداع نصفي متواصل.

كان الطبيب منزعجاً من اهمالي الكبير لصحتي، وعدم اهتمامي بنصائحه. عيناه كانتا تقولان هذا، في حين انشغلتُ عنه سهواً في البحث عن قلم حبر أسود، حتى أكتب لك أول عبارة والتي كانت على ما أذكر، هذه الجملة الهاربة من اللاوعي.

" أفتقدك حبيبتي ريما " قبل أن أحذفها وأكتب مكانها عبارة خطرت ببالي لحظتها " ريما عزيزتي " لا أعرف لماذا تراجعتُ حينها على مناداتك بحبيبتي.

ولمَ لا يا ريما، ما الفرق بين أن أتبع ارشادات الطبيب أو أتجاوزها، اذا كانت النتيجة واحدة هي الموت. ما الفرق بين أن أدمن الكتابة ليلاً، أو أن لا أكتب إطلاقاً، إذا كانت هذه الرواية لنْ تصلك.

لا أذكر الكثير مما حدث لحظتها. لكنني اذكر أن الطبيب وقف متسمراً للحظات طويلة عند عتبة الباب، ثم غادر وهو يقول كلاماً لمْ أسمعه أو لعلني سمعته ولمْ افهمه.

بعدها حملتُ الورقة تحت إبْطي، واستلقيت على السرير حتى لا يظهر ضعفي أمام أحد من الطاقم الطبي الذي يزورني كل ساعة، للاطمئنان علي أو ربما لحملي إلى ثلاجة الموتي. أظن أنني حصلتُ على تدريب كافٍ للتظاهر بالقوة في عز الضعف والهوان. علمتني السنوات الماضية، كيف أخفي خوفي بين أسناني وأكتم الوجع في حلقي.

هذا اليوم لمْ اتناول شيئاً، منذ قهوة الصبح التي شربتها دون سكر مع قطعة خبز أسمر بالزبدة ومربى المشمش. رغم أنني كنتُ أفضل زيت الزيتون عوض المربي. لا أشعر بالجوع اصلاً ولمْ تكن لي شهية الأكل منذ مساء البارحة. لمْ انظف أسناني أيضاً، تكاسلت على حمل الفرشاة. حتى ساعة الحائط توقفت عن الحركة وعقاربها تجمدت في الساعة العاشرة، لستُ أدري هل العاشرة صباحاً أم مساءً. لمْ يعد مهماً أن أعرف التوقيت، الأيام تتشابه داخل أسوار المستشفى يا ريما.

لمْ أعد أهتم بتوالي الأيام، ولا أبالي بعد سنوات عمري. انتقلتُ من الحياة، إلا ما يشبه العدم الذي له طعم الحضور الباهت والمبهم.

فتحتُ حسابي على الفيسبوك، ليس بقصد التسلية، بل فقط لكسر الصمت الموحش الذي يخيم على كامل غرف وأروقة وشرفات مستشفى دانكورك. كل الأخبار التي يأتي بها هذا الموقع أعرفها.

وكتبتُ عن بعضها في الرواية، رغم أنها مبتذلة وسخيفة. إلا أنها تصلح لتكون داخل نص أدبي هو الأخر سخيف ومبتذل، لكي تجعله أكثر كآبة وحرقة وسوداوية.

وفجأةً قفز إلي وجه إياد. وهو يتحدث عن أخبار الموت بكلمات مختصرة، وكأن الموت صار طقساً اعتيادياً لا يدعوا للخوف أو الاستغراب. إياد الذي ذبح مجموعة كبيرة من الناس أمام عدسات الكاميرا، ونشر الفيديو على الفيسبوك ليس هذا هو إياد الذي أعرفه. إياد الخجول الحالم والهش. صدمني المقطع المتداول، أحسستُ برغبة في الغثيان من همجية المنظر، شعرتُ بدمي يغلي، واحتجتُ أن أكتب لك هذه الرسالة. عزمتُ أن أتصل بكِ لكنني تذكرت في أخر لحظة أنني لا أملك رقم هاتفكِ.

دم ورؤوس مقطوعة، رشاشات، وكلاشينكوفات، ورايات سود. رجال يرتدون قشابيات أسفلها سراويل جينيز وأحذية رياضية، وبعضهم يعتمون قبعات تغطي الرأس والعيون، ويطلقون لحى طويلة. ذبحوا البالغين من النساء والرجال، كما يذبح الدجاج. اختاروا ضحاياهم بدقة، قسموا جثث النساء نصفين طولياً.

أعلم أنكِ شاهدت الفيديو، كما شهدته. وبكيتِ بحرقة على حال إياد، وما صار عليه فجأة. أعلم أنكِ خائفة من أن تصل اليكِ سكاكين المجزرة، وخائفة أكثر على إياد سندك الأخير بعد أن ماتت أمك، في ذلك الحادث الموجع قبل ثلاثة سنوات، وقرر والدك الهجرة إلى المانيا، هرباً من شظايا الحروب الطاحنة التي تَمْلأُ المنطقة من شمالها إلى جنوبها.

متأكد الآن، وقد وقفتُ على مبعدة أمتار قليلة من النهاية، نهاية الرواية التي أكتب منذ مدة طويلة، ونهاية حياتي التي عشتها كما لمْ أشْتَهِ طبعاً. أنكِ ستكتبين لي رسالة بعد أن يصلك ما أكتب. أتمنى أن لا تتأخَّرِي في الرَّد كعادتك السيئة التي أكره بشدة.

مازلتُ حتى هذه اللحظة عاجزاً عن التصدي لشوقي الكبير اليكِ. تركتُ لكِ رقم هاتفي في ظهر الورقة، اِتَّصِلِي إن لمْ تعد تعجبكِ فكرة الرسائل الخطية.

مستشفى دانكورك المركزي، ذات يوم من شهر تشرين الثاني

مهدي. م

* * *

في صباح اليوم التالي، وعند الساعة التاسعة والربع تماماً، رن هاتف الغرفة أكثر من مرة، حتى أيقظني من عز نومي. كانت نضال المتصلة، جاء صوتها الرخيم هادئاً، أخبرتني أنها في انتظاري عند باب الفندق. غيرتُ ملابسي، ونزلتُ إليها مسرعاً. أول شيء انتابني وأنا أراها عند العتبة، هو العطر الناعم الذي تسرب إلى أنفي حتى قبل أن أقترب منها. رفعتْ رأسها بعفوية إلى وجهي وقالت بنبرة ساخرة: باريس ترحب بِكَ، ثم احتضنتني، فغرقت في وجهها الطفولي شيئاً فشيئاً، وتوهتُ مني في عَيْنَيْهَا الحالمَّتيْن ببطء، وتجاوزت حدود المكان وحدود ما كنتُ أرى. تمتمتُ في اذنها: نضال .. العطر كالقبلة فاتن.

قلتُ لها ونحن نعبر الشارع باتجاه المقهى المقابل للفندق:

- أتدرينَ يا نضال كم يكون سَهْلاً علينا أن نترك مكاناً قضينا فيه جزءاً من عمرنا، خصوصاً اذا كان هذا الجزء هو الأكثر بؤساً وسوداوية في حياتنا التي مضت. الأماكن التي جروحنا فيها بعمق، تشبه الامراض المستعصية التي لا ينفع معها سوى البتر.

رفعتْ بصرها صوب دواخلي المزدحمة، ابتسمت ولمْ تقل شيئاً. أضفتُ بنبرة بالكاد تسمع بينما كنت اسحبُ لها الكرسي كي تجلس:

- ربما قدري أن اولد وأموت في الهم، هكذا كلما اقتربتُ من ذلك الشعاع الضوئي الرقيق الذي يظهر خجولاً من بعيد، كلما ابتعد هو أكثر وصار مجرد سراب قاتل.

ردت هذه المرةُ ضاحكةً في محاولة منها لتغير الموضوع :

- بالله عليك خبرني كيف قضيت أول يوم في باريس.

أجبتها بسخرية ماكرة :

- تقصدين كيف قضيت الساعات الماضية دونك.

تأملتني بنظرة الذي يملك شيئاً ينقصك ثم سألتني وهي تقدم لي سيجارة :

- شنو تفطر؟

اكتشفتُ لحظتها، كم أنا مسكون بالدراما والحزن. لا أفوت لحظة إلا وجعلتُ كل ما يحيط بي بلا معنى، وسخرتُ من كل شيء جميل يدور حول تفكيري، ويستحق بعض الفرح. لأنني لمْ أتعلم كيف أكون فرحاً ببساطة، لمْ أتعلم كيف أقتنص الأفراح الصغيرة، بعد أن تخطتُ عواصف الحياة من أجل أن تكون معي. وربما كان هذا سبب شغفي الغريب بعيش دور الضحية وأتلذذ بالألم.

ربما كانت هذه غلطتي، أو ربما غلطتهم. من هم؟ لا أعرف بضبط، وربما حان الوقت لأسال نفسي أي قدر جميل ضيعتُ، وأنا

أرمي كل هزائمي وخساراتي عليهم " هم " وأحملهم وزر ما صنع عقلي المشوش وقلبي الأسود. لا أدري ما الذي قادني نحو هذه الفراغات الفجة .

أخذْنا نتناول فطورنا في ذلك المقهى الصغير. نظرت نضال بوجهي مطولاً، ثم قالت وهي تحك خلف أذنها وتنظر من زجاجة المقهى العريضة إلى الشارع المقابل :

- اليوم بعد الظهر لنا موعد مع مدام أوليفيا

سألتها باستغراب، وأنا انحنى لحمل القداحة من على الأرض، بعد أن سقطت من على حافة الطاولة :

- من تكون أوليفيا؟

ردت دون أن تنتظر إلي تماماً :

- مدام اوليفيا تكون مديرة القناة التي اعمل بها، وهي التي ارسلتْ لك عقد التدريب الذي مكنك من الحصول على التأشيرة. ثم أضافت :

- كنتُ قد أخبرتها أنكَ جئت قبل يومين إلى باريس، ومن الممكن أن تجد لك عملاً معنا في القناة. خصوصاً أنك حاصل على شهادة محترمة، بدل من أن تعمل في المقاهى والمطاعم أو الضيعات الفلاحية.

أحببتُ الفكرة، أحسستُ أنها ستكون لحظة فارقة في حياتي، أكيد ستكون انعطافة حادة في طريق عمري المتبقي. أنهيتُ فطوري، وأشعلتُ سيجارة. كانت نضال حينها ساكتة تماماً، تشرب قهوتها على مهل، تتأملني احياناً وأحياناً أخرى تسرح بنظرها صوب الشارع. كم جميل هذا الصمت الصباحي الذي غطى زوايا المكان، هذه الصدفة الدافئة، وهذا العطر الذي يفوح من رقبة نضال، كم هو قاتل وفتاك. ولعله السبب الوحيد الذي جعلني أبصر بوضوح أنني في بداية السقوط في الحب. الحب الذي هو الاستثناء الجميل في كل ما يقع لنا فجأة. الحب هو الذي يجرنا إلى مصير مجهول، دون أن نخافه أو نخشى المصير المبهم الذي ينتظرنا. ااه أتساءلُ هلْ ما يزال في حياتنا شيء يستحق أن نصارع لأجله؟

تعثرت كلماتي حين عادت نضال، وطرحتْ السؤال مرة أخرى عليَّ، بينما كنا نقف على الرصيف المحاذي لباب الفندق:

- ما رأيك في الذي قلته لكَ قبل قليل، لمْ أسمع تعليقاً حتى.

أجبتها دون تردد وبشكل حاسم:

- موافق طبعاً، غبي من يرفض فرصة كهذه يا نضال.

قلت جملتي، وتركتها عند العتبة تنتظر. صعدت إلى غرفتي في الفندق حملتُ حقيبتي وسلمتُ المفتاح للسيدة العجوز التي تحيك الصوف في بهو الاستقبال.

نضال، ليست كاللواتي عرفتُ في مراحل عمري السابقة، فيها شيء مختلف. يشبه الذكرى النائمة في اعماقي، تلك التي كلما حاولتُ تذكرها هربت مني صوب غياهب النسيان. نضال أنارت حياتي المعتمة والمكدسة بالأشياء والظلال كبرق مفاجئ.

يا للكذب المفضوح، كِدتُ أنسى أنني لمْ أكن أعرف سوى امرأة واحدة حتى تلك اللحظة، وهي نجمة. لمْ يكُنْ في حياتي نساء غيرها. مازلتُ أتذكر عندما قلتُ لها خلال جلسة هادئة جمعتني بها منذ عشرين سنة، وقبل أيام قليلة من اعتقالنا: أنني لا أقدر على اختزال الوضع السياسي الحرج والطرقات الوعرة التي نسلكها معاً، في مجرد فظاعات صغيرة مع الوقت ستنتهي، ويعود كل شيء إلى مكانه. إننا نقترف خطأً كبيراً كلما تقدمنا خطوة نحو النظام وسياسته، إننا هكذا لكننا لا نود الاعتراف بذلك. سنندم على هذا الحماس الغبي الذي يتملكنا. انظري إلي في هذه اللحظة، أريد أن أقول شيئاً لنفسي وليس لكِ فقط، يجب أن نتوقف عند هذا الحد، لكي لا نخسر بعضنا. النظام يا نجمة، قد كشر عن أنيابه، و لا أريد أن أكون أول فريسة يلتقطها من ساحة النضال.

كنتُ اتحدث لنفسي بالدرجة الأولى وليس اليها. لا أعرف كيف تغير موقفي وقناعتي بتلك الصورة الغريبة، وهي لمْ تستوعبْ ما قلته لها في تلك اللحظة. بقيتْ متجمدة مكانها دون حراك، مدتْ يدها ببطء إلى أصابع يدي، تحسستها برفق، ثم قالت بنبرة خائفة :

- يا مهدي، عليكَ أن تكون مقتنعاً بما اخترته مساراً لحياتِكَ وحياتي.

وأردفت بعد صمت خفيف:

- كل ما يهمني في هذه اللحظة، هو أن تضمني إلى صدرك بكل قواك، ولا تتأخر علي أكثر لأنني مرهقة من يوم كان بارداً وممطراً كما تعلم.

ضممتها كما طلبت مني، كنا صامتين نفكر في ما هو آت. وكان الضوء شحيحاً في الغرفة. الغيوم السوداء تملأ سماء مدينة الدار البيضاء، والمطر ينهمر بغزارة.

ممدداً على السرير كنتُ. أحتضنها وأفكر في الذي قالته دفعة واحدة. هل كنتُ أرغبُ في إقناع نفسي بشيء محدد، من خلال ذلك النقاش القصير الذي إنتهى قبل بدايته.

ها أنا، بعد سنوات من ذلك اليوم الممطر من شهر شباط، أحاول التحول فجأة إلى شيء آخر، وقد أدركتُ بشكل حدسي نقطة ضعف، علاقة الحب التي جمعتني بنجمة، ونقطة ضعفها هي أيضاً، رغم أنها كانت تخفيها بحيث لا يشعر بها احداً غيرها. ورغم أنني أدركتُ كل هذه الأشياء بشكل متأخر.

كنا في شهر الأول من الشتاء، إلا أن البرد لا يأبى الرحيل عن باريس طول السنة. عبرتْ بنا سيارة الأجرة شوارع عديدة. مررنا على

الكثير من البنايات الباريسية التي تعود إلى القرن الخامس عشر. والجسور العتيقة التي تربط ضفتي المدينة. والمقاهي والمطاعم التي تنتشر في كل الأرجاء.

وصلنا إلى شقة نضال، التي تقع في الطابق الخامس والتي تطل على ساحة، عند الساعة الحادية عشر صباحاً. دلفنا إلى الداخل، أشعلتْ نور الكهرباء لأن الشقة كانت مظلمة قليلاً، من دون أن تفتح الستائر. أخذتني من يدي وراحتْ تفرجني بعفوية طفولية على غرفتها وسريرها وعلى المطبخ والحمام والشرفة الصغيرة. في تلك الدقائق القليلة التي كانت فيها ممسكة بيدي أحسستُ بانتشاء وانتصاب كامل.

نضال تروقني كثيراً. أشتهي نحافتها التي تبلغ حد الضمور. أشتهي قدميها الصغيرتين. ومنذ أن وقعت عيني عليها أول مرة، وأنا أسترجع جسدها الخفيف كسحابة في خيالي. عريتها، ضاجعتها مراراً في خيالي. كنتُ أرسم في ذهني وضعيات جنسية شديدة الغرابة معها. لمْ تكن ترفض اقتراحاتي الشاذة في ممارسة الجنس. حدث كل هذا في خيالي فقط.

في ذلك المساء الذي نامت فيه على صدري ثملة. ولمْ يكن من شيء يمنعني من اغتصابها وهي شبه فاقدة للوعي اكتفيتُ بمضاجعتها في خيالي فقط ولمْ ألمس جسدها، كنتُ حينها أشتهي أن تسلمني نفسها بكل ارادتها ووعيها ورغبتها، وأن تنتشلني من خيالاتي المتعبة، وترميني بين نهديها حتى أستفيق من النشوة المبتورة.

لا أدري من أين عاد ذلك الماضي، الذي كلما تذكرته. ارتطمتُ سهواً بكثير من الوجوه والأسماء. تصيبني الخيبة والأسى كلما أمعنتُ في استرداد ذلك الصمت الذي يشبه الموت، واسترداد رائحة الاماكن المفقودة، التي تتسع كلما صارت قريبة.

أرمي ببصري بعيداً خارج جدران هذه الشقة الصغيرة. برد المنافي هذه هي باريس الغائمة، هذه هي حبات المطر الشتوي الحزينة، تنقر عبى زجاج النافدة. باريس شعلة من نور سخي يتسلل من شرفة البيت بهدوء. وتلك هي كازابلانكا تظهر من بعيد، طاعنة في الخيبة وخطوط الزمن القاسي قد ارتسمت على شوارعها وشبابيكها المغلقة وعلى أبوابها الحديدية المتآكلة.

شقة نضال صغيرة لا تتعدَّي سِتّينّ متراً مربعاً على أكثر تقدير. بها ديكور عصري بسيط، وأرائك جلدية بنية اللون ولوحات معلقة على الجدران. وجهاز تلفاز وطاولة زجاجية مستديرة، ومكتب خشبي لا يسع أكثر من كتابين ومذكرة وبعض المجالات النسائية التي تهتم بالموضة والأزياء.

وفجأةً، وعلى حين غفلة من الزمن، وضعتْ نضال قبلة خفيفة على شَفَتِي اللَّتيْن لمْ تكونَا مُتهيئتيْن بما يكفي لمثل هذه الحوادث الجميلة. سرقتْ من فمي الدهشة، وتركتني أقفُ على بساط الارتباك الأول. ثارت في روحي عاصفة جنون، حملتني ونفضت عن وجهي كآبة العمر الذي مضى.

حين استدارتْ مُتَجهَة صوب المطبخ. لمْ أجد في ذاكرتي شبهاً لتلك القبلة المتغلغلة في الدفء. في الحقيقة لمْ أبحلق فيها وهي تمشي بخطوات سريعة، وكأنها تهرب من النيران التي اشتعلت صدفة، بعد ان خلفتْ وراءَها أجمل الحرائق. بل جلستُ على حافة الاريكة، أسند جبيني إلى كفي اليسرى، وأعيد الى ذهني تفاصيل تلك القبلة الخاطفة المباغتة، وأرسم حماقتنا التي لابد أنها ستتكرر.

بعد لحظات قليلة عادت من المطبخ، وهي تحمل بين يديها طبقاً من الفواكه وضعته على الطاولة أمامي، ثم اقتربت مني قليلاً وهي تبتسم، مسحت على كتفي برفق، وأخذت تهبط كفها ببطء مروراً بذراعي، وصولاً إلى أصابع يدي اليمنى، ثم انحنت تلثم ابهامي، وعينها تتطلع إلى ملامِحِ وَجْهِي، تتفحصني كما لو أنها تراني لأول مرة.

أدرتُ رأسي جانباً، في محاولة مني تجنب النظر مباشرة إلى شَفَتَيْهَا، ولا أعرف لماذا فعلتُ ذلك. أطلقتُ تنهيدة مكتومة لمْ يشعر بها غيري. سحبتُ يدي شيئاً فشيئاً، قامت واقفة بعد أن أحستْ بالارتباك الذي تملكني، قرصت وجنتي بقسوة لذيذة قبل أن تنصرف.

قالت وهي تغلق باب غرفتها :

- سأغير ثيابي ونخرج للقاء مدام اليفيا، وبعدها سنحتفل. سألتها مستغربا:

- ما المناسبة؟

ردت ضاحكة:

- بمناسب مرور يوم واحد على تواجدنا معاً.

هي لا تفهم، ماذا تعني لي قبلة خفيفة، بعد هذا الجوع الطويل، الطويل جداً. هي لا تعرف كم أمقتُ البدايات التي تأتي كبيرة، أكبر من حجم انتظاراتنا كلها. هي لمْ تستوعب كم يرهقني ذلك الشيء الذي جاء من لا أدري. وجدتني منصرفاً إلى عوالم لا افهمها، أخذتني نضال صوبها وأبعدتني عن الكل دفعة واحدة، وذكرتني أنني كبرتُ بمرور الخسارات عليَّ، لا بمرور الزمان.

فتحتُ مفكرتي الصغيرة، التي كنتُ احتفظ بِهَا في جيب معطفي. ودونتُ ما تسلل الى رأسي فجأةً، كنت أكتبُ وحسبُ ولا أعرف الدوافع وراء هذا التدفق الذي احسسته. كانت هالة زائفة مزيجاً من الصور رحْتُ عبثاً اقلبها تقليباً في ذاكرتي. أكتبُ بكفٍ مرتعشةٍ، لأدرك سر هذا الخوف الذي طَفَا على السطح دفقة واحدة. وأدركُ أيضاً سبب وجودي هنا بين هذه الجدران الأربعة، مع صبية في عمر إبنتي التي لمْ أُنْجِب.

الْتَفِتُ إلى النافذة، كما لو أنني أبحثُ عن أشعة الشمس التي لمْ أَرَهَا منذ وضعتُ قدمي على هذه الأرض. لكن عيني تصطدمان بالمزيد من السحب الكثيفة السوداء المحملة بالمطر. السماء غائمة والجو كئيب جداً. وبعد ساعات قليلة سأكون في مكان ما، رفقة أشخاص لا أعرفهم ولا يعرفونني.

انا لستُ على ما يرام، ثمة شيء بداخلي ينزف دون توقف. ثمة ذكرى تطاردني أينما ذهبت.

كان الاجدر بي أن أُفكر في مَا أَصابني من عطب، ولا أجعل ترميم هذا الخراب من ضمن مشاريعي المؤجلة. عدتُ إلى مفكرتي أقرأُ ما كتبت دون فكرة واضحة، أو لعلها كانت فكرة قديمة غير مكتملة. ما الذي أردت قوله من خلال ما كتبت، ما كدت أنهي تساؤلاتي حتى جاءت نضال، تحملُ بذلة رمادية وربطة عنق حمراء وقميصاً أَبْيَضَ.

ارتديتُ البذلة كما طلبت، ورفضتُ أن أضع ربطة العنق. لمْ أكن أجد لها لزوماً، لكنها كانتْ مصرة على الأمر. وعند الساعة الواحدة والربع تماماً، توجهنا إلى مكتب مدام اليفيا. وبعد نصف ساعةٍ تقريباً وصلنا إلى المكتب الذي كان عبارة عن مبنى قديم وكبير من طابقين، يقع في مركز المدينة، ويضم قسم الاذاعة والتلفزيون، وقسم الجريدة.

من الطبيعي أن يكون المبنى مزدحماً، عن أخره بالموظفين. كل الذين يعملون في هذا المكانن أحسستهم ماكرون، يبدو أنهم يجب أن يكونوا كذلك حتى يستطيعوا العمل في مجال الصحافة. لكنهم طيبون أعترف بذلك، فكلما ممرنا بأحدهم ابتسم في وَجْهَيْنَا وألقى علينا التحية. صعدنا الدرج المؤدي إلى الطابق الثاني حيث يوجد مكتب مدام اليفيا في أخر الممر على جهة اليمين. طرقتْ نضال الباب بهدوء، عدلت أنا من ربطة العنق في انتظار أنْ يُؤْذَنَ لنا بالدخول.

فتح الباب، دلفنا إلى الداخل. استقبلتنا مدام اليفيا بحرارة، جلسنا قرب المدفئة بنارها الملتهبة، قدمتْ لنا الشاي الذي جاءت به السكرتيرة على صينية صغيرة مع بعض قطع الحلوى.

كانت الساعة تقارب الثانية بعد الزوال، والمطر يتساقط برقة وهدوء في الخارج، عندما حكت لي مدام اليفيا عن اتقانها للغة العربية وعن تجربتها في المغرب خلال أواخر الثمانينات، وكيف تعلمت العربية في أقل من سنة قضتها بمدينة الرباط، حين كانت مراسلة صحفية لنفس القناة التي هي الآن مديرة لها.

اليفيا تنحدر من عائلة فرنسية عريقة وغنية جداً. أبوها كان وزيراً سابقاً، وأمها كانت موظفة حكومية. اليفيا كانت الابنة الأصغر بين خمسة اشقاء ذكور، يعملون كلهم في مجال التجارة، وهم الآن من كبار رجال الأعمال في أوربا. ولكنها هي كانت مختلفة عنهم، اختارت المجال الذي تحب، والذي كانت تحلم به منذ طفولتها.

اليفيا في بداية عقدها الرابع كما يبدو، طويلة القامة مقارنة بطول نضال، وربما هي في نفس طولي تماماً. نحيفة الجسد لكن ليست بنحافة نضال. شعرها اشقر لامع وقصير لا يتعدى حدود رقبتها. شفتاها رقيقتان وغير بارزتين تكادان لا تَظْهَرَا من بعيد. عيناها زرْقاوان صافيان، كما لو أنهُمَا حفنة من السماء وتبدُوان أكثر توهجاً مع أضواء المصابيح الكثيرة التي تزين غرفة مكتبها. ملامحها هادئة تبعث في النفس بعض الاطمئنان والراحة. حركاتها الأنيقة تحكى

تفاصيل ماضيها وحاضرها، وطفولتها التي عاشت في كنف أسرة ثرية جداً.

مدام اليفيا تمتلك شقة فخمة تطل على برج إيفل، ورثتها عن والدها الذي مات قبل سنة، بأزمة قلبية وهو يسوق سيارته، حين كان عائداً من زيارة لعائلة زوجته. رحل وترك خلفه ثروة كبيرة كسبها على مدى أربعين سنة من خلال عمله بمجال العقارات، قبل أن يدخل عالم السياسة، كوزير للاقتصاد. رحيله المفاجئ خلف جرحاً عميقاً في قلب مدام اليفيا.

مدام اليفيا مطلقة، لكنها مازالت محتفظة بلقب "المدام" الكل هنا يُناديهَا هكذا. فقد كانتْ متزوجة من مصمم ازياء ايطالي مشهور. طلقها بعد أن اكتشف خيانتها له. حدث ذلك قبل فترة قصيرة من وفاة والدها. هي الآن تعيش بمفردها، بعد أن انتقلت أمها للعيش مع أبنها البكر في مدينة نيس، وتركتها نتيجة خلاف عائلي حدث بينهما، بسبب شيء غير معروف.

مدام اليفيا امرأة كاملة الأنوثة مغرية وشقية ومختلفة بصورة غامضة. رزينة وصلبة وتعرف ما تريد. هي امرأة ناجحة في مجالها، لها كاريزما بكل ما تحمل الكلمة من معنى. ولا يمكن للمرء أن يصادف امرأة بهذه المقياس إلا مرة واحدة في حياته.

بعد نقاش طويل دار بيننا، تحدثنا فيه عن أخلاقيات المهنة، وعن متاعبها ومشاكلها الكثيرة. وافقت في الأخير على توظيفي بالجريدة

كمراسل صحفي. رغم أنني لا أملك الخبرة الكافية التي تخولني لهذه المهنة، وحتى تلك الشهادة التي حصلتُ عليها خلال فترة الإعتقال لمْ تكن كافية. وأي شخص قد يسمع أنني حصلتُ على عملٍ محترمٍ كهذا، لن يصدق الأمر، لكن هذه هي الحقيقة.

قالتْ مدام اليفيا، إنها لا تعترف بالشواهد الجامعية، بقدر ما تحترم الرغبة في التطور والتعلم. هذه الرغبة التي لمستها في منذ بداية الحوار، جعلتها تؤمن بما يمكن أن أصنع من مكاني.

وقعتُ العقد الذي سيربطني بالجريدة لمدة عامين. ولا اذكر أنني أنهيتُ قراءة البنود كاملة، وقعته على الفور دون تردد أو تفكير. تساءلتُ برغم من يقيني أن بعض الصدف الجميلة التي تحدث لنا، تكون رسائل من القدر يبعثها كلما دنونا خطوة من الموت، وكأنه بهذه الرسائل يمنحنا فرصة أخرى للحياة.

كيف تبتسم الأقدار بهذا السخاء النادر؟

انتهى موعدنا مع مدام اليفيا، كما كنت أشتهي وأكثر. حصلتُ على عمل محترم في جريدة عريقة يعود تاريخ اصدارها لأول مرة إلى بداية الحرب العالمية الثانية. حقيقة لمْ أكن أتوقع أن تصير الأمور على هذا النحو السهل.

كل يوم يزيد إيماني بنظرتي لباريس. هنا سيتغير كل شيء، ها أنا أمام المرآة أحدق في وجهي الذي كان رمادياً مثل بقايا الحريق الذي أشعلته عمداً في لوحات نجمة قبل أيام قليلة. أمرر ظهر كفي على

ذقني الذي فكرتُ في حلقه، كي يتماشى مظهري مع عملي الجديد، أتحسس الشعر الأشيب النابت. مر العمر سريعاً، يوم أمس كنتُ صغيراً، كبرت فجأة وبسرعة.

أغمض عيني بشدة، أريد لهذا الكابوس أن ينتهي. هذا الشيء يشبه الشبح، إنه يظهر في اللحظات التي أحاول فيها أن أكون أنا. من الذي يسكن عقلي ويشوش ذهني؟ شيء ما داخل رأسي، إنه ثقيل جداً وفوضوي جداً، أشعر بحركته في جمجمتي. كنتُ على وشك البكاء أمام المرآة، لمعت عيني ورعشت شفتي السفلى. أحسستُ برغبة في البكاء، ولا أدري لماذا. اَشَحْتُ بوجهي عن المرآة هرباً من ذاكرتي. تحاشيتُ الوقوف وجهاً لوجه مع خوفي. عرفتُ الخوف مبكراً، عرفته في الميتم، يوم وجدتني فجأة بلا أب وبلا أم وحيداً بين مجموعة من الأطفال نتقاسم نفس القدر الملعون، وعرفته قبل ذلك، يوم حملتُ السكين بين يدي وحاولتُ طعن أبي من الوراء وهو نائم.

شيء من قلق إنتابني، بينما كنتُ اقترب من نضال التي كانتْ تقف خلفي بضع خطوات. أمعنتُ النظر حولي وكأنني أبحث عن شيء محدد، شيء كان داخل زاوية بصري، لكنني لم أكن أراه بشكل واضح. شخصت عيني تنظر هذه المرة إلى السقف، لكنني لمْ ألمح شيئاً غير الدهان المقشر ذي اللون الباهت. كأنما أصوت قديمة تتردد في المكان، أصوات أعرفها تومض في رأسي.

تنبهتُ من شرودي وقت أمسكت نضال بيدي وسألتني بنبرة تخفي بعض الفزع: ما بك؟ هززتُ رأسي بقوة كي أطرد الصور

والأصوات التي كانت تمر بذهني كأسراب الطيور. أحسستُ بالعرق يتصببُ من جسدي بغزارة، رغم برودة المكان. جلستُ على كرسي خائر القوى أبحلق في الأرض.

أغمض جفني بقوة حتى لا أواجه انعكاسي في المرآة، التي كانت موضوعة قبالتي مباشرة، في لحظة ما ودون شعور بسطتُ كفي أمام وجهي، أتأمل الخطوط المتقاطعة في يدي. رأيت موضع أصبعي المبتور. سرت رعشة في كامل جسدي، بدوتُ لنفسي كأنني شخص أخر.

أعاود النظر في المرآة بعد أن نهضتُ من على الكرسي ووقفتُ على أطراف أصابعي. أنظر بعيداً في تيه المرايا التي تحيطني من كل الجوانب. ابتلعتني الوجوه الصفراء التي تحمل معه كل أنواع الحقد الدفين. أفتحُ عيني عن أخرهما. لا أريد أن أرى أكثر، لا أريد أن أضيع مني بهذه الطريقة. ألوح لنفسي بحركة سريعة عسى أجدني بين الوجوه الصفراء التي ابتلعتني.

اِنتبهتُ لِلتَّو إلى وجود نضال بجانبي، تمسكُ يدي بإحكام، وتهمس في أذني بصوت خفيض: مهدي... مهدي، جاء صوتها بعيداً وغير واضح. شعرتُ بها وهي تمرر كفها الأخرى على صدري بلطف. عيني كانت تنظر إلى الفراغ المترامي أمامي، كأنما أشاهد وجوهاً خفية لاتظهرُ لغيري. استدرتُ صوبها، كانت خائفة وكانت ملامح وجهها بين جزع وحبور. نظرتْ إلي بود. في تلك اللحظة داهمنا صوت البائع وهو يمدني بكأس ماء. فقد كنا في محل لبيع الملابس الرجالية بغرض شراء بعض الأشياء التي تنقصني.

حدث ذلك، بينما كنا عائدين إلى البيت صادفنا في طريقنا محلاً مجاوراً لمبنى القناة، يضع تخفيضات مغرية على السراويل والأحذية والساعات. عرضت على نضال فكرة أن اقتني بعض الثياب من ذلك المحل لأن أثمنته مناسبة.

ذلك ما حدث بالفعل، اشتريتُ سروال جينز أزرق وحِذاء جلديّاً أسود وساعة يد بسيطة وأربعة أقمصة وحزاماً وبعض الملابس الداخلية، كما اشتريتُ أيضاً جوارب صوفية لزوم البرد وعِطْراً مصنوعاً من زهرة التوليب، ومنامة من القطن. ولمْ ينتهي الأمر هنا، بل مررنا على محل أخر يبيع المشروبات الكحولية، أخذنا زجاجة ويسكي وكيساً منْ قِطع مكعباتِ الثلج وبعض الفواكه الجافة.

وصلنا إلى الشقة عند الساعة السابعة مساء، كان الظلام قد غطى سماء باريس، وزادت حدة البرد. أُشعلتْ أنوار شوارع التي تتزين بالعمارات القديمة والفخمة. وفاحتْ روائح المطاعم والمقاهي التي تملأ هذه المدينة، التي لا تنام إلا نادراً. باريس تعيش فوضى من نوع آخر، فوضى جميلة تغري من فيها باقتراف ذلك الجنون المشتهى، باريس دخلتها محروق القلب والذاكرة، وهاهي الآن تنسج في أعماقي عاطفة لمْ أحسها من قبل. حين جئتها كنتُ بين نارين، من جهة ثمة قصة حب عابثة، تجرني صوب الماضي الذي ينزف كل يوم أكثر، ومن جهة أخرى ثمة قصة حب جديدة، تسحبني صوب حاضر كله فخاخ وقنابل موقوتة. صرتُ إنساناً يخاف الخراب الذي يأتي به الحب، صرتُ إنساناً بما يكفي. لستُ أدري ما الدور الذي يجب أن تؤدي

نضال كي أحبها، وأمضي معها فما تبقى من حياتي التي تسرق مني، وتأتي مكانها فراغات عصية على القلب قبل الذاكرة.

كنتُ أعرف أن نضال امرأة خطيرة، تحمل في صدرها أحاسيس ملغومة، يمكن أن تنفجر في وجهي في أي لحظة، وتملك أيضاً ما يمكن أن يرمم ذاكرتي المعطوبة ويُعِيدَنِي حيث جذوري الأولى التي طمرت في غفلة مني، وإلى أرضي الأولى حيث تنام أسراري كلها.

حينذاك، دخلنا إلى البيت وكنا مُرْهَقَيْن جداً. لمْ نكن قد أكلنا شيئاً منذ ساعات الصبح الأولى. رغم ذلك كله لمْ أكن أشعر بذلك الجوع الشديد. أحس ببعض الاعياء فقط. وبرغبة في الاسترخاء في حوض ماء ساخن لا اكثر.

نضال، توجهتْ إلى المطبع لتحضير العشاء، بينما كنتُ أستحم. كان العشاء عبارة عن سلطة خضار وشرائح الدجاج المقلي، وحساء الفطر والشوفان.

لا أدري على وجه التحديد متى بدأنا بالشرب. ربما كان بعد العشاء مباشرة أو بعده بساعة تقريباً، كل ما أذكر هو تلك الثانية التي طفحت فيها هشاشتي لحظة سكر، كنتُ أتوقع أنني صلب بما يكفي ولن أبوح بوجعي لحظة ضعف. الأحضان الباردة التي عرفتها طول سنوات عمري جعلتْ مني رجلاً على مقاس الفقد والحرمان.

زلت بي قدمي صوب باريس، وها هو قلبي يزل بي صوب نضال، هذه المرأة التي تستدرجني إلى كتابة فصل جديد سيكون حتماً عصياً

على الفهم. أي صدفة دفعتني إلى الارتطام بها، بهذا العنفوان المفرط؟ أي قدر جمعني بها على نفس الأريكة؟

كان واضحاً أن نضال تختزل كل الأشياء التي تنقصني. وكان واضحاً كذلك أنني عجزت على التقاط الاشارات التي ترسلها كل حين. لكن برغم أنها لا تعرف عني شيئاً في تلك السنوات العشرين التي قضيتها في السجن إلا أنها تتقصدني وتتبعني، وأن هروبي منها لنْ يكون إلا هروباً إليها.

نضال، تغامر صوب رجل معطوب بأمراض شتى.

قلتُ لها، وأنا أتمدد على الأريكة وأضع رأسي على فخذها:

- إنني أرى حلماً يتكرر كثيراً. جسر متهالك يربط بين ضفتي نهر جاف كل ما فيه صخور وطين ومياه راكدة متعفنة يتجمع فوقها الذباب وَجُثَثُ الكلاب تملأ قعر النهر. أراني أمشي فوق الجسر الحديدي بخطوات حذرة وفي كل مرة أكادُ أسقط فيها، يوقظني عقلي الباطن مفزوعاً أتصببُ عرقاً.

نظرت إلي بتمعن، ثم قالت ضاحكة:

- على الأقل لمْ تسقط حتى هذه اللحظة.

أرد بنفس المزاح:

- السقوط خير من الوقوف المتعثر يا نضال

ردت، وهي تضع مكعب الثلج في كأسها :

- أتدري ما خطر ببالي اللحظة، كيف يمكن للإنسان أن يعيش بشكل طبيعي وداخله محطم؟

رماني سؤالها حيث لمْ أكن أرغب، حيث يوجد رجال يهربون من ماضيهم باتجاه العزلة والاغتراب وبرودة المنافي، دون الالتفات إلى الخلف. وبضبط إلى تلك الحادثة إن جاز لي اعتبارها كذلك. كانتْ أول اختبار لي من الحياة، داخل العتمة الغامقة للغرفة أو بشكل أدق لزنزانة.

قبل عشرين عاماً، إغتصبني حارس السجن بعد أن غطى رأسي بكيس طحين فارغ، كي يحجب عني الرؤية، إلا أنني كنتُ ألمح حركاته المرتبكة في زوايا الزنزانة من خلال تلك ثقوب الصغيرة التي كانت تملأ الكيس. كبل يدي وقدمي بحبل سميك ومتين. كنتُ عارياً تماماً، مرمي على بطني وعورتي مكشوفة. كانت الأرض باردة جداً. اقترب مني خطوة أَعاد النظر إلي، لمحتُ شخوص عينيه نحو مؤخرتي. غطس كفه في صحن من الزيت كانت بالقرب منه، قبل أن يقربها من عضوه الذكري، ثم مشى بمحاذاتي دون أن يلمسني حتى صار خلفي، حينها لم أعد أره. كنتُ أسمع خطواته فقط، وهي تقترب شيئاً فشيئاً مني. سمعتُ أيضاً صوت ارتطام حزام سرواله بالأرض، وسمعتُ صوت احتكاك يده المبللة بقضيبه. أدخل إلى نفسي شيئاً من الخوف، لا بل الكثير من الخوف والرهبة والغضب. حاولتُ التزحزح قليلاً من مكاني، لكنني لمْ أقدر على ذلك. كنتُ منهك القوى وعاجزاً. حاولتُ أن أصرخ

لكن فمي كان مسدوداً بخرقة متسخة كان يستعملها الحارس لتلميع حذائه العسكري الثقيل.

صرختُ لكن صوتي لمْ يكن مسموعاً لأحد، رفعت رأسي أنظر صوبه، بدا لي مثل وحش وقد تصاعدت دماؤه إلى وجهه. سقط بكل ثقله فوق ظهري، ولمَّا انتهى مكث في مكانه مبعداً صدره إلى الوراء قليلاً، يحدق في صنعه.

مازلتُ أذكر هذه التفاصيل وكأنها حدثت اليوم فقط. مازلتُ اشعر بنفس الحرقة التي أحرقت صدري يومها، وبنفس الوجع الذي مزق رجولتي وجعل مني مجرد رجل مربوطة اطرافه بحبل سميك، عاري الجسد، مُنهَكاً ومُنتهكاً.

وبينما كنت شارد الذهن أفكر، وجهتْ لي نضال كلاماً بصوت منخفض جداً، وكأنها تحدث نفسها، لكن تلك العبارة كانت موجهة لي أنا " اِمنح نفسك فرصة أخيرة، واقتحم الحياة وكأنك ولدت اليوم فقط، بلا ذاكرة وبلا وجع " نفضتُ رأسي بأطراف أصابعي، وكأنني أطرد افكاري المعطوبة.

أرسلت إلي نظرة فاحصة، مشطت جسدي كله، سكبت لي كاس ويسكي دون أن تضيف اليه قطع الثلج، ثم أضافتْ قائلة بصوت مسموع :

- هذه المرة كان يجب أن تفعل مثلهم، كان يجب أن تأخذ من الوطن كل شيء، ولا تمنحه أي شيء. كان يجب عليك أن تكون حقيراً

حين لزم الأمر، وإنتهازيّاً أيضاً، لكنكَ كنت وطنياً أكثر مما ينبغي، وهذا مصير كل من مشى وراء مبادئه وشعاراته وأحلامه الوطنية.

كنتُ أنصتُ ولا أدرك لقولها معنى، لو أنني فهمتُ هذا الكلام في ما مضى، لما كنت الآن هنا بصحبتك عزيزتي نضال، ولو أنني استوعبتُ الدرس باكراً لربما مت من غير اكتراث، ولكن عدم الفهم والعناد والسذاجة والتمادي في الغباء والحماقة وكل هذه الأشياء مجتمعة، قادتني إليك. كانت ستكون خسارة مدوية لو أنني أنهيتُ حياتي قبل أن تسوقني الأقدار صوبك، ذات خريف حافي القلب ومعطوب الذاكرة. شكل أصابعك الرقيقة تواطأ مع رغبتي بعدم الموت على ذلك النحو الغريب جداً. كان يجب أن أظل حياً حتى يكتب لنا القدر أن نلتقي.

صمتت قليلاً وكأنها تحاول أن تفهم المقصود من وراء كلامي. أشعلتْ سيجارة بين شفتيها، وجلستْ كمن ينتظر رداً أو إضافة على كلام ملغوم. وكشخص يعرف ما يريد، التزمتُ الصمت عند ذلك الحد وشربتُ كأس الويسكي دون أن أنظر في وجهها الذي تعلوه ملامح الدهشة والاستغراب.

اذن لنْ يخلو الأمر من اثارة. الساعة الآن تقترب من منتصف الليل. كثيراً ما أشعر أن نضال هدية من الله. واليوم فقط يمكنني أن أجزم بهذا الأمر، بسبب تفاصيل الحياة التي تظهر حولي والتي أعيشها لأول مرة. نضال أعادتني إلى العالم الواسع، الذي سرقتني منه قضبان السجن وسنوات الخوف والرصاص.

لمْ تكف نضال عن النظر إلى مندهشة من شرودي المستمر، أحسستُ أن الأمر بدأ يزعجها بالفعل. حتماً هذا الشرود غير المنقطع، متعب لها كما هو متعب لي تماماً. هي بحاجة إلى رجل يهتم لوجودِها بجانبه وينتبه لتفاصيلها الكبيرة والصغيرة، المهمة وحتى السخيفة، ويحسسها من حين لآخر كم هي مغرية وفاتنة وقاتلة.

سألتني، في محاولة منها لسحبي من ظلال الصمت المزعج الذي يجثم على المكان :

- هل يمكنك مساعدتي في كتابة مقالة عن تاريخ الاسلام السياسي في المغرب؟

ثم أضافت ضاحكة :

- هل سبق لك أن قرأت كتاباً يتحدث عن هذا الموضوع ؟ فقد طلب من رئيس التحرير، أن اكتب شيئاً بخصوص هذا الموضوع، وأنا لا أعرف من أين أنطلق ولا أين أنتهي.

كنتُ جالساً أنتظر أن تنهي سؤالها الطويل وغير المنتظر، وبمجرد أن صمتت للحظة بين جملتين، قمتُ أمشي صوب الحمام كالمخدر بخطوات متعثرة. كنتُ أشعر حينها برغبة في التبول وإفراغ معدتي. لا يمكن أن أكون سَكرانَ إلى هذا الحد الذي جعلني غير قادر على التمييز بيْنَ باب المطبخ وباب الحمام.

وقفتُ في منتصف الصالون أصارع ذاكرتي التي مسحت فجأة، وعجزت عن معرفة أي الأبواب يجب أن أفتح. حبستُ الطعام الذي رفض البقاء في بطني، وتصاعد دفعة واحدة إلى حنجرتي، بعد أن وضعت كفي على فمي كي لا أتقيَّأ ثم أشرت بيدي الأخرى إلى نضال. كل شيء صار ضبابياً.

تقدمت نحوي تبتسم، ولا أعرف سبب تلك الابتسامة ثم تجاوزتني مسرعة، فتحت باب الحمام الذي كان يوجد على جهتي اليسار وأشعلت نور الكهرباء.

تقيأت كثيراً حتى جف حلقي، وغسلتُ وجهي بالماء البارد كي أستفيق قليلاً. قدمت لي نضال كأس ماء، شربته بسرعة. ثم عدتُ إلى الأريكة، استلقيتُ على ظهري وبصري مصوب نحو السقف. كنتُ أحس ببعض الصداع على مستوى جبهتي، كان الصداع حاداً ومزعجاً.

كان واضحاً أنني لمْ أعد سكيراً كما كُنْتُ. في البدء كنتُ أشربُ زجاجة ويسكي رخيص كاملة دون أن أشعر بدوخة أو اهتياج في معدتي. اليوم أربع أو خمس كؤوس فعلتْ بي ما فَعَلَتْ.

وحدها تلك الأصابع الدافئة، التي كُنْتُ أستشعرها وهي تتحرك ببطء فوق ملامح وجهي، كانت تحملني من هواجسي وتدفع بي نحو الصبية التي أكبرها بعشرين سنة. نضال تصلني بالعالم وبما تبقى من انسانيتي. لا أدري كيف ومتى صرت أطلب الأمومة قبل كل شيء.

اقتحمتني نضال، فصار حضنها حِصْني الأخير ضد الهزات الكبرى. أتعلقُ بتلابيبها وكأنها الأم التي انصرفتْ قبل الأوان وعادت فجأةً.

أصم أذني، كي لا أسمع صوت أنفاسها التي ترتطم ساخنة بعنقي. اكتشفتُ وأنا بين ذراعيها، كمْ كنتُ غريباً قبلها. أترجم صوت أنينها الخافت، وهي تستلقي فوق صدري. تتفاقم اللذة وتتسع لذتها ولذتي، كلما اقتربتْ شفتَاها مِنْ شفتَيَّ. أدور وألوب، وهي تتقدم نقطة نقطة من فيضي، تعلي وتخفض درجة اشتعالي.

كنتُ أحاول تصور وتخيل ما سيحدث لكن عقلي رفض الانصياع لرغبتي، ولمْ تعد تغريه فكرة أن أضاجع هذه الفتاة العشرينية في خيالي، كما حدث في المرة السابقة. لكني رغم ذلك بقيت أنادي كل الصور العارية المخزنة في ذاكرتي، كي ينتصب جسمي وتنتفض رجولتي المعطوبة، وألمس أخيراً امرأة من دم ولحم وعرق ورائحة.

حاولتُ دفعها إلى الاقتراب أكثر، وقيادتها إلى نزع ثيابها، لكنها أبت فعل ذلك. كنتُ أتلذذ بتمنعها الشهي، أبتسم بوهن وشيء من الغبطة جعلني أشعر بأن عضوي لنْ يطاوعني، وسيقذف بسرعة دون أن ألمسه بيدي حتى. بقيتُ أردد في سري إنه مجرد حادث عرضي ولنْ يدوم طويلاً.

نضال كانتْ تضحك بطريقة فاجرة، حينما استشعرت بأنني قذفتُ شهوتي فوق بيجامتها. كانتْ الكمية كبيرة لدرجة أنها رسمتْ رقعة واضحة على سروالي.

لما شاهدت خجلي وانزعاجي مما حدث، بدأت تلين تقول كلاماً غير مفهوم. وما إن هدأت النار في صدري قليلاً حتى قامت بخلع قميصي، وأكملت نزع سروالي، أنزلته إلى أسفل فخذي ثم همستْ بصوت هادئ لمْ أسمعه، وهي تشاهد آثارُ التعذيب أعلى فخذي وتحت ركبتي، وكيف صار جسمي بقعة مشوهة وبشعة.

بدأت تتحسس بيدها النحيلة موضع الحرق الذي سببها الصعق الكهربائي أسفل عضوي الذكري، في ذلك اليوم البعيد الذي مازال محفوراً في الذاكرة كالوشم، وأنا مستلق وسط غرفة الجلوس وسطي عارٍ وساقاي مفتوحتان، وشيء كالخوف لا أدري سببه، كنتُ ألاحظه في عيون نضال.

لمْ أشأ قول كلمة، وعجزتُ عن فعل أي شيء. كنتُ غير مطالب بتبرير ما كشف عنه جسدي، كان يمكن طبعاً أن أسرد لها بعض القصص التي حملتُ معي من زنازين النظام وأبالغ قليلاً في التفاصيل، وأجعل من تلك الحروق التي تشي بحقارة الماضي وقسوته، شواهد على نضالي وعلى قضيتي الأجمل التي ما حملتُ بعدها قضية.

حدقتْ في نضال، ودل وجهها على ألف سؤال ينتظر مني إجابة وتفسير. نضال ذات الشعر الأسود الداكن، ونظاراتها الطبية بإطارها

الرفيع الأحمر، وذلك الشيء الذي يشع من بين تقاسيم وجهها، كان يفصح عن ما تخفيه تحت غطاء صمتها المفضوح.

كانتْ المفردات مبعثرة بين حنجرتي وعقلي. شعرتُ بأن نضال تود أن تقول شيئاً ما. كانتْ ملفوفة بالرغبة والضجر وبداخلها ألاف المخاوف والانتظارات. بامتزاج العينين واليدين وبكل أعضاء الجسم كنا نلتصق ببعض أكثر فأكثر. أستدير نحوها كي أضمها إلى صدري الساخن. كانتْ مؤخرتها مشدودة وأكثر حماوة من شمس باريس التي لا تظهر إلا نادراً.

نحن هنا ومعاً على فراش واحد، وعلى سبيل اللعب والاكتشاف والتحدي. ربما قالتُ هذه الجملة أو توهمت أنها قالتها، " فأنا أريد أن أكتشف رجولتي اليوم، حتى لو أخطأت في جميع المحاولات. أريد التحدث بلغتها، حتى لو أخطأت في جميع الجمل".

نزعتْ ملابسها ورمت كل قطعة في اتجاه. حمالات الصدر فوق الطاولة، ودبوس الشعر على حافة الأريكة، وقذفت بالمنامة بعيداً عند عتبة حجرة النوم. لكنها احتفظت بالجوارب وأزالت القرط من أذنها. كان جسمها يقطر ماء، وأنا كنتُ كالمجنون أحسب عدد القطرات النازلة ببطء بين نهديها.

عيناها صارتا أوسع وأكثر جاذبية، أما أنا ففي تلك اللحظة لمْ أكُنْ مدرباً إلاَّ على الاستمناء، الذي كنا نمارسه نحن المساجين كي

نفرغ شهوتنا بطريقة سريعة دون أن يكتشف أمرنا. فلم يحدث أن لمست جسد امرأة مدة طويلة، لا داعي لعدها كل مرة.

في أغلب الأحيان كنتُ أتمتم كلمات بلهاء. كنتُ مدهشاً من تضاريس جسمها الفتي الشهي، ومهزوماً أمام اندفاعها العنيف. صرتُ كالعجينة في يدها. فلتت مني آهات وتنهدات خافتة الصوت. همدتُ ودفنتُ وجهي بين نهديها، بعد أن أغرقتها بمائي. نضال كانتْ أعنف من نجمة في ممارسة الجنس. فالرغبة لديها تبدأ من الذورة، متفجرة منذ القبلة الأولى.

تقبلني على صدري وتنزل على طول ذلك الخط المستقيم صوب عضوي المنتصب والملتهب، تضعه في الفم وبين الشفتين، وتبدأ بلحس المني الذي يقطر منه دون توقف. وتمص الندبة مصاً بطيئاً وعلى مهل. فأشعر بلسانها يمر بين الساقين ويدور حول الخصية اليمنى ثم اليسرى، ويصعد إلى النبع الدافئ في نهاية حركته التي كانت تتكرر، وببطء شديد ومتعمد.

سمعتها تقول وبصوت واطئ: سأجعلك تحترق حتى تتصاعد رائحة الرماد الذي يسكنك، سأدربك على جسدي وأعلمك كيف تمتص عرقي بلسانك، وكيف تمر على كل جزء من جسمي وكأنك ترسم لوحة أو تكتب قصيدة بمنتهى الجنون.

أحاطتني من كل الجوانب، جعلتني أقترب من الموت ولا أموت، فأعود وأقذف ثانية وثالثة، وكأنني أقذف في وجه القدر والنصيب،

وفي وجه الطغاة الذين تركوا آثار سكاكينهم ورصاصهم على أجسادنا، وفي وجه كل الآلهة التي صَنَعْنَاهَا نحنُ البشر، وقدسناها كي نعبدها، وكي تحكمنا على هذه الأرض الفاسدة.

نضال، كانت تشع مع كل ثانية أكثر. ترفعني إلى أعلى وتدلك بيديها ذكري، تجهزه ثم تُدْخِلُه حيث تشاء، مرة من الخلف ومرة من الأمام، تضعه على صدرها وتمرغه على فخذها ووجهها وقدميها، تمسده بلطف حتى ينفجر فوق نهديها وعلى رقبتها، تأخذه بيديها وتجعله يسيل على أطراف شعرها كما يشاء وكما تشاء. فتضحكُ بطريقة شهوانية لمْ أجرب مثلها من قبل.

تمصني، وتبلعني، وتعلمني كيف أصير في متناولها ولا استعجل. عضوي المشوه لا يعرف كيف يصبر إذا ما تم لمسه. اللمس بأصابع رقيقة، وبصوت أكثر رقة. الأمر لمْ يتوقف عند ذلك الحد، بل وصل الى أنها طلبت مني بإلحاح كبير أن أمص أصابع قدميها وأقذف للمرة الأخيرة في مؤخرتها، ونأخذ حماماً ساخناً مع بعض.

شعرتُ أنها استلذتْ حينما قذفتُ مائي في عمقها. وأيقنتُ من شيء واحد وأساسي، أنها امرأة تعبد الجنس وتقدسه وتنصبه أكبر الآلهة على حياتها. امرأة تعرف كيف توصل كل عضو في جسدها إلى مراده، وتعرف كيف توصل الرجل إلى أخر عتبات جنونه وجموحه.

من منا لا تغريه امرأة كنضال؟ عنق طويل، وعينان واسعتان، ورموش كثة، وأنف دقيق، وأصابع رقيقة كالشمع الأبيض، وشعر

اسود كالليل، ونهد صلب ودافئ، وَسَاقان أَمْلسَان يَهُزَّان مكامن الشهوة بعنف ورقة. من منا يرفض جسداً كامل الفتنة، فتَّاكاً وقاهراً وقاتلاً وجامحاً ومستفزّاً.

أذكرُ قبل أن التحق بنضال في السرير، بعد أنْ أخذْنَا حماماً دافئاً، أنها الحادية عشر ليلاً كما تشير إليها الساعة الحائطية. كان صوت المطر لا ينقطع في الخارج. أذكرُ أني وعدتها بتقديم المساعدة لها في كتابة مقالة عن تاريخ الاسلام السياسي في العالم العربي وليس في المغرب فقط، رغم أنني أحس بالقرف من الخوض في نقاش مواضيع العرب، وإسلامهم، وثقافتهم، وسياستهم، وتفاصيلهم اليومية البائسة. فمجرد تذكر أنني جئت هارباً من المغرب كما لو أنني لاجئ هارب من شظايا الحرب، هذه الفكرة العابرة تقلبُ مزاجي وأحاسيسي، وحواسي كلها تصاب بالتشنج، وترميني الذاكرة إلى ذلك الفراغ الموحش.

حتى إذا تصالحت مع جسدي هذا المساء، واكتشفتُ أنني مازلت صالحاً للممارسة والجنون والقذف، كأي رجل سوي لمْ تعطب ذكورته يوماً. واكتشفتُ أن للجسد لغة وذاكرة. وفهمتُ كيف تتحاور قصص الاشتهاء العنيف دون أن تكون مؤهلة للحب أو جديرة به.

حتى إذا استرجعتُ بعض الثقة في حواسي الظاهرية والباطنية، وعُدْتُ إلى جسدي المألوف الذي أعرف زواياه ورائحته وإيقاع حركاته، فأنا مازلتُ أشعر أن كل شخص اقترب مني يشبه إلى حد ما حارس السجن الذي يستعرض سلطته وهيبته على محبوس.

بعد كل هذه الأعوام التي مرت أستطيع اليوم أن أزعم أن نضال صالحتنى فعلاً مع جسدي على الأقل. وأستطيع أيضاً أن أجزم بأنها ارتبكتْ لرؤيتي على تلك الحالة. حروق وآثار جروح تملأ ركبتي، فخذي، وظهري.

الآن، أشعر أني تخلصتُ ولو جزئياً من ثقل السنوات التي قضيتها بين الممارسات الشاذة والاستمناء الفوري. آه كم يصعب تحرير الإنسان من أوهامه وأغلاله التي يقدسها، وكم يستحيل تجاوز عقد الماضي الدفينة في الأعماق، وكم هو متعب الهرب بعيداً عن تعقيدات الطفولة التي يستحيل التخلص منها دون أن تمزق شيئاً فينا ونحن كبار.

كنتُ مطمئناً إلى نضال، وإلى القدر الذي صوبها نحوي أو لعله صوبني نحوها. كنتُ أحاول عبثاً استغلال تلك الصدفة العنيفة التي اقتادتنا معاً إلى نفس الشرفة وإلى نفس السرير. ثمة أمر مَا بالغُ التعقيد دفعني إليها، وكان يحرضني على اكتشافها أكثر. لا أدري هل الأحاسيس الملتبسة بالأمومة هي التي أيقظت في دفء القلب، الذي جمدته يد القتلة والخونة وخربته برودة السجن وقسوته، أم تراها الأيام التي تهرب مسرعة من بين يدي، قد خلقت بأعماقي خوف النهايات وخوف العيش وحيداً. لو أن القدر كان أَرْءَفَ قليلاً، لمَّا حدث كل هذا العبث. كان يمكن أن لا أتورط في قضية خسرتُ بسببها أجمل سنوات عمري. لو أن الحياة كانت منصفة قليلاً، لما كنتُ على هذا الحال. لكنْ يبدو أن لا فكاك من هذا المصير الذي كلما توقعتُ

أنه سيبتسم لي، إلا ويَزْدَادُ غرابةً وغضباً وكآبة. لا يهم فقد كنتُ دوماً لوحدي، منقاداً إلى حيث لا أشتهي.

منذ أن دفعتني نضال إلى اقتحام الحياة بنفس جديد، صوت ما في أعماقي كان يتساءل، أو ربما كان يود لو أن نجمة تظهر مرة أخرى في عالمي هذا، كان الشوق داخلي كبيرا لِتوْأمِ ذاكرتي ووجعي نجمة.

* * *

في صباح اليوم التالي ...

استيقظنا من النوم بصعوبة عند الساعة السابعة وربع، رائحة المطر كانت تنبعث من الخارج، متسللة من الشق الضيق الموجود في نافدة الغرفة، لتمتزج برائحة جسد نضال العاري، الغارق في نومه ونشوته. وعلى غير العادة في ذلك الصباح البارد، احتسيتُ فنجان قهوة دون سكر، وكان هذا أول شيء أقوم به في حياتي الجديدة. لا أعرف لماذا أسميها هكذا، لكن شيئاً ما كان يقول إنني سأعيش حياة جديدة ومختلفة ومتعبة، لكن تعباً لذيذاً، هذه القناعة سكنتني منذ ليلة أمس.

في ذلك الصباح الشتائي، الذي كانت تبدو فيه السماء أقرب إلى الأرض، والسحاب الشاسع وَالممتد وَغيرُ المحدود بالنظر أكثر كثافة اليوم. ركبنا الحافلة ومثل باقي الركاب المنشغلين بأحاديث تنقطع

وتعود عن السياسة والاقتصاد والعمل وعن ظروف الحياة التي تزداد صعوبة وتعقيداً، كنا نتبادل أطراف الحديث عن الوطن، كانت أحاديث ذات وقع حرك مشاعري ولو بدرجة أقل تأثيراً من نضال، إلا أنني شعرتُ ببداية ما يسمى بالحنين، فقد أضحيتُ مثل كل المهجرين الذي وجدوا أنفسهم سهواً وسط برودة المنافي. هذا الحنين المفاجئ والباكر، لمْ يكن سوى نوع من الاحتجاج الصامت، على طقس باريس الْقَاسي علينا نحن الغرباء.

رغم أنني كنتُ على حافة الهلاك، وعشرون سنة وأنا أماطل مواعيدي الكثيرة مع الحياة، عشرون سنة مرتْ ثقيلة على ايقاع الانتظار. انتظر الفسحة الصباحية، انتظر تاريخ الافراج عني، انتظر نجمة التي اختفتْ فجأة ولا أعرفُ عَنْهَا أيَّ خبرٍ، انتظر كل شيء. كنتُ أمشي في الممر الضيق بانتظام على نفس الخط دون أن أنزاح عنه سنتيمتراً واحداً، وكأنني بذلك أحاول الثبات لأطول مسافة ممكنة، والبقاء على قيد الانتظار.

باريس انتقيتها كما انتقيتُ نضال بالضبط بنفس القياس وعلى نفس المقدار من اللهفة. كان قلبي يخفق لهما مجلجلاً بنفس الحماس، وعلى نفس المقدار من الدهشة.

وصلنا بعد أربعينَ دقيقة إلى مبنى القناة، كانتْ الساعة تشير إلى الثامنة والنصف تقريباً. توجهتْ نضال مسرعة صوب قسم الجريدة، لأنها كانت على موعد لا يتحمل التأخير مع رئيس التحرير، أَمَّا أنا فصعدتُ إلى الطابق الأخير للقاء اليفيا بخصوص النقاش عن طبيعة

الاعمال التي يجب أن أقوم بها. وعن بعض الأشياء الخاصة بأوراق إقامتي.

كان اللقاء على انفراد هذه المرة. حللتُ ضيفاً على مكتبها. إنغلق الباب، كانتْ هي منشغلة بترتيب بعض الملفات المكدسة فوق مكتبها الخشبي الفخم. اشارت بيدها لي كي أجلس، ثم وضعتْ أمامي ورقة مكتوب عليها معلومات تخص معرضاً للفن التشكيلي سيقام نهاية الأسبوع، واستمارة ملأتها بمعلوماتي الشخصية.

سألتني بعد أن أنتهتْ منْ فرز الملفات حسب لون غلافها:

- هل أنت مستعد؟

ثم أضافت بعد صمت خفيف :

- يجب أن تكون مستعداً ومتحمساً يوم السبت القادم، لإجراء لقاءٍ صحفيٍّ مع الفنانة التشكيلية ماريا بولمان، وهذه فرصة جيدة لتختبر نفسك ونختبرك نحن أيضاً.

أجبت مبتسما وأنا لا أدري ما الذي زرع بنفسي تلك الثقة :

- أكيد سأكون أفضل مما تتوقعين، أعدكِ.

طال صمتها، ربما كانت تفكر في الجملة التالية، لكنها قالتْ أخيراً في شيء من المزاح الغائب :

- لا أشكُ في قدرتك يا رئيس

نظرتُ إليها ثانياً في استغراب، ثم قلتً مجدداً :

- أعدكِ

استطردت في عدم اكتراث :

- لا عليك هذا مجرد إمتحان صغير، نتيجته لنْ تكون مهمة في تحديد مصيرك المهني معنا، المهم أن تطور من قدراتك يوماً بعد يوم، وأن تتحدى نفسك مع كل مهمة توكل لك، والأهم من هذا وذاك، هو أن تعشق هذه المهنة.

ارتبكتُ وقد أدهشني ردها، خفضتُ رأسي في خجل، ثم سرحتُ للحظات وأنا أحاول استيعاب كلماتها التى اقتحمتْ صدري دافئة :

في تلك اللحظة دخلتْ السكرتيرة، القت التحية وجلستْ في هدوء على مقعد فارغ أمام مكتب اليفيا، التي سلمتها الاستمارة، وصورتان شمسيتان، وطلبتْ منها أن تستخرج لي بطاقة الصحفي قبل يوم الجمعة. ظهرتْ علامات الامتعاض على وجه السكرتيرة، ونظرتْ مباشرة إلي وهي تقول بنبرة يكسوها بعض الاضطراب :

- لا يمكن استخراج البطاقة هذا الأسبوع، فكما نعلم يا مدام الاجراءات تتطلب ثلاثة أسابيع على الأقل.

اعترضتْ حينها اليفيا في هدوء قائلة :

- لقد رتبت كل شيء مع الجهات المختصة، نَفِّذِي المطلوب فقط عزيزتي.

بعد أن سمعت السكرتيرة هذا الكلام، لمْ تَكُنْ مقتنعة في الحقيقة، لكنها سكتت للحظات تفكر، ثم لوت فمها في إنزعاج واضح دون أن تتكلم، في حين واصلت اليفيا في اصرار:

- نَفِّذِي المطلوب من فضلك.

حينها تدخلتُ لتخفيف الموقف :

- لا بأس

لمْ أكنْ أملكُ غير هذه الكلمة السخيفة في ذهني، والتي قلتها وأنا أتكور على نفسي وأضم ذراعي إلى جسدي وأغمض عيني للحظات متناسياً أني في مكتب مديرة القناة، في تلك الثانية التفتْ اليفيا صوبي، داهمتني بنظراتها الحادة ثم قالت وهي تُوجّهُ كلامَها إلى السكرتيرة دون أن تنظر إليها تماماً :

- يمكنك العودة إلى مكتبكِ

لا أتذكر أنني أَطَلْتُ النظر في وجه اليفيا، فقد كان في عينيها أشياء كثيرة لا أعرفها، أشياء لا يمكن أن أدركها بسهولة. ارتبكتُ وخانتني الكلمات كلها، رغم أن الموقف لم يكنْ يستحق كل هذا التوتر، إلا أنني وصلت إلى ما وصلت إليه بتحريض من خوف داخلي

كبير، أكبر من أن أتجاوزه. خوف غير مبرر، خوف مبهم وعصي عن التفسير. اِلْتِبَاس ما فَظيع يتحكم بذاكرتي البعيدة وبهواجسي.

تأكد لي أنني أحمل معي ذكريات باهتة ومنهكة، أجتاز بها هذا العمر المتبقي. أقصى ما أتمناه الآن هو أن أعرف ما تعده لي الأقدار، وأعرف ذلك الظل الأسود الذي يربض بداخلي ويلزمني بما لا اشتهي، ذلك الوجْه الذي يسكن وجهي كما يريد.

كانتْ تلوب إلى عقلي أفكار متباينة، والقلب كان يحاول مواصلة النبض وسط هذا الانهيار والتشتت والارتباك. تمنيتُ وَأْدَ هذه المخاوف التي تناسلتْ داخلي، منذ ذلك اليوم الذي ذرفتُ فيه دموع الفراق القاطع. كنتُ كما لو أنني لم أغادر تفاصيل الخيبة التي حدثت صدفة، وسرقتْ مني بوصلة الحياة دفعة واحدة. لو فقط يربتُ أحدهم على كتفي الآن، ويهمس في صدري بكلمات قادرة على قتل البشاعات المتناثرة حولي. وددت لو فقط رتبت لي هذه المدينة موعداً مع الحياة.

اليفيا هذه المرأة الفرنسية التي تتشبث بطفولتها وتعاند تجاعيد الزمان بإصرار لا متناهٍ. امرأة تلبس صمتها وتخفي ضعفها خلف عينيها الجميلتين، وتودع داخل قلبها خسارة كبيرة لمْ يبق منها اليوم سوى ضحكة مكسورة ومكابرة في الوقت نفسه. امرأة أنهكتها الشائعات وأثقلت كاهلها.

هي كانت تترنح بين البوح والكتمان. لا أدري لماذا أخبرتني بقصة طلاقها، واتهامها بالخيانة الزوجية، هذه التهمة التي كادت تدمر حياتها المهنية في غمضة عين، وتهدم ما جاهدت لسنوات طويلة تبني فيه شبراً شبراً. ولا أدري لماذا داهمتني رغبة بمعرفة المزيد عن تفاصيل حياتها الخاصة، حتى وإن كانت هذه التفاصيل غير واقعية، وما سمعته منها غير منطقي وفيه بعض الكذب الجميل الذي تستعمله النساء لحظة بوح متردد، إلا أنني كنتُ مشدوداً إلى عمق عينيها، وهي ترسل نظرة إلى وجهي، وترفع كفها اليسرى، تلمس وجهها، وتمسح بلل وجنتيها بلطف.

كانتْ تسألني من حين لأخر بعض الاسئلة عن حياتي الخاصة بطريقة غير مباشرة وبليدة للغاية، وكنتُ أتهرب من الإجابة بطريقة أكثر بلادة. لا أعرف متى إنتهى اللقاء بيننا. ربما قضيتُ ما يقارب الساعة ونصف في مكتبها، تحدثنا عن مؤسسة الزواج وعن الدين والسياسة وعن الحب والحرب. وطول تلك المدة كنتُ أحاول الافلات منها ومن أسئلتها التي لا تتوقف.

كنتُ أتعمد ترك مسافة بيني وبينها حتى أتجنب وقوع مشاكل بيني وبين نضال. ربما أكون مخطئاً في تفسير اندفاعها المتزايد نحوي، ومحاولتها التقرب مني وكسر الحواجز بتلك السرعة. وربما أكون على حق، فهي كانتْ تسرد علي أشياء حميمة لا تليق بمكان العمل ولا باللقاء الأول. وكيف دخلت متاهة التلاشي بعد أن طلقها زوجها السابق، وتزوج بصديقة عمرها وأنجب منها تَوْءَماً، ونكاية به هي أيضاً

دخلتْ في علاقة جنسية مع رفيق دربه، وكانتْ ترسل له صوراً فاضحة، توثق لتلك اللحظات الساخنة التي كانت تجمعها برفيقه على السرير نفسه الذي طالما تهمسا بأرق عبارات الحب فوقه. تقول إنها نادمة الآن على تلك الافعال الصبيانية التى جرها إليها ذلك الرجل، وورطها في فضيحة أخلاقية، بدأت باتهام بالخيانة وانتهت بإرسال صورها الجنسية إلى كل معارفها وأقاربها الذين اعتبروا ما قامت به إهانة لإسم العائلة وتاريخها العريق، وتشويه لسمعة والدها السياسية التى صارت على المحك بسبب تلك الفضيحة التي تناقلها الاعلام الفرنسي والعالمي على نطاق واسع، وصارت موضوعاً يناقش داخل البرلمان، وعلى طاولات الأحزاب السياسة المنافسة لوالدها.

هي لمْ تكن تتوقع أن تسبب تلك الصور الجنسية كل هذا اللغط والضجيج، وتكون وراء اندلاع حرب بينها وبين إخوتها من جهة وبينها وبين كلام الناس ونظرة المجتمع من جهة أخرى.

اليفيا مصابة بخيبات جمة، أولها شعورها بذنب اتجاه أسرتها، وإحساسها بأن موت أبيها المفاجئ بسكتة قلبية بعد أن تمت إقالته من منصب الوزير، كانت هي السبب فيه. تقول إنه مات وفي قلبه أكثر من جرح فج، مات من شدة الحرقة على اِسمه ومنصبه.

والخيبة الثانية هي الوحدة، وذلك الشعور بالفراغ الذي تتخبط فيه منذ صارت تعيش لوحدها في بيت كبير. اليفيا وجدت نفسها محشورة في زاوية مظلمة من الحياة التي لا تليق بها، ورأسها محشو بالندم والحسرة والذكريات المفجعة. ما جدوى أن تسكن بيتا كبيراً

وجميلاً، ولا يزورك فيه أحد. ما جدوى الحياة إذا لمْ تُعَشْ بِحُب وحرية وصدق. ودعتني بهذه العبارة وكلماتها لمْ تودعني، دست في قلبي شيئاً مَّا وَوَعْداً مَّا، وبدل أن تصافحني باليد البريئة، عانقتني وأطبقتْ ذراعها على جسدي مِثلما تشتهيني. كان في صدرها فرح مجهض وفي حلقها غصة.

من كان يتوقع أن تكون اليفيا هشة إلى هذه الدرجة، ومثقلة بالأسئلة المستعصية، ومجروحة في العمق الذي لا يظهر لأي كان، جراحات لا تنسى ولا تمحى. لنْ يصدق أحد ما وقع وما قيل بيننا في تسعين دقيقة فقط.

لمْ أكن أجد من الضروري أن أخبر نضال بما حدث داخل مكتب السيدة المديرة. لا أدري على وجه التحديد لماذا أردتُ أن أحتفظ بما سمعته لنفسي دون أن أخبر به أحداً. أردتُ أن أحتفظ برائحة الأنوثة الطازجة في أنفي لأطول مدة ممكنة، رائحة اليفيا كانتْ مزيجاً من روائح عصية على الفهم. أندس أنفي في عمق شعرها يشتم عطرها. اشتهيتها اشتهاء طارئاً، اشتهيتها كما أشتهي نضال وربما أكثر. كانتْ جميلة وكان جسدها يقدح شهوة وغواية. تلصصتُ على النهدين الخجولين، فاهتزتْ داخلي رغبات لا أعرف من أين جاءت. اشتهيتُ أن أداهمها من الخلف في تلك الأثناء التي استدارت متوجهة صوب مكتبها، وتركتني محموماً وجسدي غارق في حممه عند عتبة الباب.

اليفيا يمكن أن تهبني جسدها بكل سهولة، حتى من دون أن نعطي اِسماً للعلاقة. يمكن أن نسمي ما سيجمعنا شهوة عابرة أو

جنوناً عابراً، جنوناً ما كنا نعد له حساباً، أو أي شيء آخر. شيء مَّا منسي تلبسني حين كنتُ بين أحضانها، شيء لمْ أحسه ليلة أمس، حين كنتُ في معترك الدهشة بين أحضان نضال، شيء ضارب في العمق انفلت من قيوده وصعد إلى السطح فجأة كالرعشة.

بعد أن نزلتُ الى الطابق الأول، مشيتُ صوب قسم المراجعة اللغوية كي ألتقي برئيس التحرير، بغرض أن أتعرف عليه لأنني لمْ اَلْتَقِ به منذ وضعت قدمي في هذا المبنى. وبالرغم من أنني أكره الرسميات كرهاً شديداً، ولطالما تجنبتُ اللقاءات التي كانت تتطلبُ مني بعض البروتوكولات السخيفة في نظري، وحتى لا أكون مجبراً على المحادثة مع غيري في مواضيع تافهة ولا تهمني كثيراً. كنتُ أفضل عدم الاختلاط بالآخرين، ونسج علاقات في محيطي.

كريستوفر، كان هذا اِسم رئيس التحرير، وكان رجلاً وسيماً، وأنيقاً جداً، طويلَ القامة في نهاية الخمسين من عمره، كما اخبرني. يعمل في مجال الصحافة والإعلام منذ ما يقارب الثلاثة عقود. اكتسب خلال هذه المدة الزمنية الطويلة الخبرة اللازمة كي يشغل منصب رئيس تحرير للجريدة الاكثر انتشاراً في فرنسا.

لمْ يكن بخيلاً معي، قدم لي مجموعة من النصائح والإرشادات والتوجيهات اللازمة للعمل ضمن فريقه. كما أعطاني كتاباً يناقش موضوع الفن التشكيلي، وفوق هذا كله دعاني إلى الغذاء، لم أرفض دعوته طبعاً. توجهنا عند منتصف النهار إلى مطعم قريب من مقر العمل، واثناء تناولنا وجبة الغداء وجه لي سؤالا سريعاً :

- علمتُ من مدام اليفيا أنكَ كنتَ معتقلاً سياسياً. هل هذا صحيح؟

التقطت نفساً عميقاً، ثم قلت:

- نعم، قضيتُ عشرين سنة في السجن بتهمة الانضمام إلى منظمة ممنوعة، والتخابر ضد مصلحة الوطن والتخطيط لإسقاط النظام الملكي.

نظر إليَّ بتمعن، ثم قال بصوت منخفض:

- هل خططتم فعلاً لإسقاط النظام الملكي؟

سرت قشعريرة في جسدي، وكدت التفتُ حولي بحثاً عن أي متربص قد يكون ما يزال يراقبني ويتتبع خطواتي وكلماتي. وحين أدركتُ أنني في باريس ضحكتُ بصوت مرتفع أثار انتباه الموجودين في المطعم، ثم مِلتُ على أذن كريستوفر وهمست:

- نعم، كنا نخطط لإسقاط النظام وتغيير البنية السياسية للبلاد، واسترجاع ما يمكن استرجاعه من جيوب الخونة والقتلة. لكن فشلنا في ذلك، فشلنا في اقتلاع ذلك النظام الفاسد من جذوره.

قاطعني بصوت خافت:

- في نظرك من كان السبب في ذلك الفشل؟

واصلت كلامي بنفس النبرة الهادئة :

- دعني اخبرك ما حصل بالضبط، في تلك الفترة شن النظام حملات اعتقال واسعة، شملت التلاميذ والطلبة والأساتذة وكل شخص عرف بمعارضته للنظام، وبعد أن وضع هذه الفئات داخل السجون والمعتقلات السرية، جاء الدور على طبقة العمال والتي كانت تشكل النسبة الكبيرة في المظاهرات. التقطهم واحداً واحداً ووضعهم في الزنازين بتهم مختلفة. اعتمد النظام على منهجية افراغ الشوارع من المحتجين والمتظاهرين، في محاولة منه لتهدئة الوضع وإعادة الاستقرار.

توقفتُ للحظات ثم واصلتُ :

- هذا من جهة، ومن جهة اخرى إشترى بعض الخونة الذين كانوا ضمن التنظيمات اليسارية، واستعملهم كجواسيس كي يصل إلى عمق منضمة إلى الامام و 23 مارس. وفي الحقيقة نجح في ذلك نجاحاً باهراً، فقد استطاع الوصول إلى كبار الرؤوس المخططة خلال ثلاثة اشهر. هذا كل شيء في الحقيقة، ولا داعي للخوض في التفاصيل ربما نحكي فيها في ما بعد.

وفجأة أطلق ضحكة ساخرة، قال بعدها وبصوت مرتفع هذه المرة :

- اكيد سنتحدث في التفاصيل لاحقاً

لمْ أتمالك نفسي لحظتها، وبدوري أطلقتُ ضحكة عالية، اِنتبه لها كل من كان في المطعم، فتجاهلتُ نظراتهم المستغربة وواصلتُ قائلاً بمزاح :

- لنْ أحكي لكَ أكثر مما سمعت اليوم. لا أريد أن أفتح الجروح القديمة يا كريستوفر، أشتهي أن أنسى تفاصيل تلك الفترة الموجعة، أنسى التواريخ والأسماء والوجوه القدرة التي حولتْ أحلامنا إلى كوابيس مخيفة.

رد بكلمتين، اختصر فيهما كل ما كنتُ أنوي قوله :

- فليذهبوا إلى الجحيم

ثم واصل، وهو يضع يده على كتفي :

- لا بأس، تناول طعامكَ

قلتُ في سري حينها، لو تعرف أن هذا الرجل الذي يجلس بجانبك يا كريستوفر، كان مناضلاً يسارياً لا ينكسر ولا يخاف ولا يتراجع أبدا خطوة إلى الوراء. لكنْ سنوات السجن والاعتقال بين أربعة حيطان باردة كسرته، وعلمته كيف يصمتْ ويخافْ، وعلمته كيف يكون وديعاً.

هذا الرجل الذي يشاركك وجبة الغذاء، باع رفاقه واحداً تلو الآخر، وفضح أسرار التنظيم، وجلس يتباكى علي وضعه ووضع الوطن مدة طويلة، حتى جف دمعه وصار قلباً قاسياً كالحجر.

ما كدنا نقوم كي نغادر المطعم، بعد أن انتهينا من تناول الغذاء، حتى دخلتْ علينا نضال، كانت تحمل في يدها ملفاً يضم مجموعة من الأوراق، لمْ تترك لنا فرصة التأمل والتساؤل، جلستْ على المقعد وبسرعة قالت :

- سأسافر الإثنين المقبل إلى سراييفو

كانت الكلمات خشنة، لمْ أكن أملكُ حيالها إلا الشعور ببعض الخيبة والكثير من الصمت. كانت تلك العبارة تتكرر في عقلي بشكل مميت. أحسستُ بالدنيا تضيق من حولي وتزداد ظلمة المكان، انتابني قلق واضح وشعرت بحرقة في صدري .. ساريفو دفعة واحدة. لماذا؟ سألتها بنبرة يكسوها حزن خفي.

ردتْ وهي تداعب بأصابعها خصلة من شعرها المنسدل على أكتافها :

- القرار جاء من فوق ولا نقاش فيه، وهذا ملف التكليف وعليه توقيع الادارة.

أخذ كريستوفر الملف من أمامها، ركب نظارته الطبية ثم بدأ يتصفحه ورقة ورقة باهتمام وتركيز، وكأنه يبحثُ عن مخرج يمكن

أن ينقد نضال من هذه الورطة التي ما كانت في الحسبان، ولا كانت على البال. كنتُ أنتظر منه كلمة بسيطة، كلمة يمكنها أن تطفئ نار الخوف التي شبت برأسي، وقبل أن ينطق بشيء سألتني نضال إذا كنتُ سعيداً بأول يوم لي في العمل. لمْ أجبها اكتفيتُ بنصف ابتسامة، احسست حينها ان ثمة شيئاً ما يزعجني وبشدة، أشاحتْ بوجهها عني ناحية الباب، تمنيت حينها لو كنتُ شجاعاً وصرخة بقوة في وجهها، لا تسافرين إلى بؤرة الموت سراييفو أرجوكِ. لكن حبالي الصوتية لمْ تكن كافية لمقاومة الرهبة التي تسكن عظامي.

بين انشغال كريستوفر بفلي الأوراق التي بين يديه وصمت نضال، كنتُ أقفُ على حافة الانتظار. تمنيتُ أن أسحب منه تلك الأوراق وأمزقها إلى قطعة صغيرة بحجم الأظافر، وألعن تلك الادارة التي اختارت نضال لمثل هذه المهمة الخطرة.

استعصى علي كل شيء، وفجأة ملأتني صور البعيدين عني منذ زمن. حاولتُ أن أتخلص منهم لكنني أخفقتُ في نسيانهم ومحوهم من ذاكرتي. خِفْتُ أن أخسر نضال أيضاً، خفتُ أن تبتعد مثل البقية وتتركني هنا، تحت سماء باريس الغائمة وحيداً وتائهاً كطائر تَخَلَّى عنهُ أبَوَاهُ قبل أن يتعلم مبادئ الطيران. كنتُ خائفاً من البقاء بمفردي في هذه المدينة التي غدت حزينة على غير عادتها.

اِصْفَرَّ وجهي وعلاه بعد ذلك بياض الخوف، لمْ أقل شيئاً. أَصْلاً لمْ أكن أملك شيئاً يقال في تلك الأثناء، فقد هربتْ كل الكلمات من جوفي وتكدستْ فوق بعضها في زاوية ما، شعرتُ بِهَا وهي تتداخلُ في ما

بينها وتتجمع. فكرتُ قليلاً في ما يمكن أنْ أفعله. تأملتُ وجه نضال وملامحها الباردة، وفي لحظة من اللحظات شعرتُ بقسوة الوحدة التي سأعيشها بعد أن تسافر هي إلى تلك الحفرة الساخنة التي تُقطع فيها الرقاب وتغتصب النساء في الساحات العامة.

ها هو كريستوفر ينزع نظاراته أخيراً، ويعيد تلك الأوراق كما كانت، ثم يضعها على الطاولة أمامه. استدار برأسه نحو نضال مبتسماً ثم قال:

- يمكنكِ رفض هذا التكليف

صمتت للحظات، ثم واصل:

- لأنه القانون يمنح حق رفض التكليفات إذا كانت المنطقة موضوع التكليف، منطقة حروب. هذا في حال كان المكلف لمْ يتجاوز بعد فترة التدريب والتي هي ستة أَشْهُر. وأنتِ يا عزيزتي نضال لمْ تمر حتى ثلاثة أَشْهُر على التحاقكِ بنا.

شرب كوباً من الماء، ثم أضاف:

- يمكنكِ رفض التكليف بكل سهولة، ولنْ يجبرك أحد على الذهاب إلى سراييفو.

سمعتُ ما قال كريستوفر بكل جوارحي وحواسي سمعته بدهشة وشيء واحد كان يشغلني بكثافة في تلك اللحظات، هو ذلك السؤال

الذي كان يهاجمني من كل الجهات. هل سترفض نضال التكليف بعد هذا الكلام الذي قاله كريستوفر، أم أنها ستختار خوض هذه التجربة الصعبة؟ لا أعرف حقيقة في ماذا تفكر، نعم تفصلني عنها مسافة بطول طاولة مستديرة لكنني أحسها بعيدة عني بأمتار كثيرة. كانتْ غارقة في شرودها تراقب المارة ولمْ تُبْدِ أي اهتمام لكلام كريستوفر.

شردتُ ببصري بعيداً وأنا أقول بصوت منخفض، كأنما أخاطب ذاتي :

- أرفضي التكليف لأن الأخبار التي تأتي من تلك البلاد لا تبشر بالخير، تلك المنطقة مشتعلة بالحروب الطاحنة، وأنتِ غير قادرة على تحمل ما يحدث هناك، ليستْ لديكِ الخبرة الكافية، ولمْ يسبق لكِ العيش وسط القنابل والرصاص والسكاكين. لا تُغَامِري بروحكِ وتَمشين صوب الموت.

لمْ ترد، كانتْ تنظرُ إلي، تقرأ قسماتي بهدوء تام، تتأمل الخوف والترقب والسؤال واليأس وهم يرتسمون على تفاصيل وجهي. حاولتُ صنع ابتسامة شاردة على شفاهي ولكن عبثاً كانتْ الأسئلة المستعصية التي أبحثُ عن أجوبتها تتحكمُ في ملامح وجهي وسلوكياتي، وتمنعني من التظاهر ببعض الارتياح. كان القلق يتملكني ويبدأني من القدم وينتهي في الرأس. حاولتُ الهرب من عينيها كانتا مخيفتين حد الصمت.

على كل لمْ يَدُمْ صمتها طويلاً، قالتْ وهي تحملُ الملف تحت ذراعها، وبنبرة من يريد المحافظة على روح الدعابة رغم التوتر الذي يسيطر على المكان :

- سأفكر بالموضوع

ثم غمزتني مضيفة :

- نلتقي بعد الدوام عند البوابة

قالتها، ثم انسحبتْ باتجاه الممر الطويل المؤدي إلى باب المطعم. التفتتْ نحوي قبل أن تجتاز العتبة بخطوة واحدة، كانت نظراتها تقول شيئاً ما لمْ أكن أفهمه مطلقاً، شيء ما في كان يتآكل كالنار، بينما كنتُ ألمحها وهي تختفي شيئاً فشيئاً وسط الضباب والمارة وبين زخات المطر الغزيرة. حالة من الفقدان المبكر أحسسته، لكن لمْ أستطيع لمسه، إلا أنه كان يأكلني من الداخل ببطء.

صعب علي أن أتحمَّلَ فُقْداناً آخر. لقد صادرت مني الحياة كل من أحبهم. البارح فقط كنتُ محاطاً بالناس الذين أعرفهم، نتشارك أفراح الحياة وحتى أوجاعها، ونتقاسم تفاصيل الانتصارات الباردة وحتى الهزائم. اليوم تحول كل شيء إلى ذكرى بائسة تقتلني لحظة ضعف، وفي لحظة الضعف تلك أتمنى لو أنني لمْ أمسك الأشياء من سواداتها كما كانتْ تقول أمي دوماً. " أنتَ مخطئ، لا تَجْرِ وَراءَ رائحة الكراهية والقسوة، لأنك لنْ تصل إلى شيء مادمت تعيش وسط

السواد الذي يضعك فيه عقلك وأوهامك. أنظر إلى الحياة بنظرة الطفولة البريئة لا تكبر باكراً يا صغيري ".

ظلتْ ملامح نضال ترن في قلبي، وهي تعبر باب المطعم متوجهة إلى عملها. كِدْتُ أتبعُهَا وأمسك يدها وأُقبلها وأَبْكِي على كتفها، وأهمس في أذنها لا تُسافِرِي يا أخر أحلامي، ويا وطني لا تسافري إلى سراييفو. في تلك اللحظة لمْ أكن أتصور نفسي خارج حدود نضال وعالمها. لكنني فضلتُ أن أبقى مكاني، فالأمر بدا لي عبثياً إلى أقصى الحدود، وكان علي أن أتعامل مع الوضع ببعض العقلانية والجدية. حاولتُ إقناع دواخلي بعكس ما تتصور. ورحتُ أبحثُ عن كل ما يبرر رغبتها الخفية في السفر.

في مساء ذلك اليوم المدجج بالقلق والارتباك، وبعد عودتنا إلى البيت فتحتُ موضوع سراييفو مع نضال من جديد، لأنه ظل يشغل تفكيري منذ تلك اللحظة التي نزل فيه على رأسي كصاعقة، وطول فترة من بعد الظهر وأنا أفكر في إيجاد حل لهذه المشكلة. تقاذفتني المشاعر المتضاربة من جهة لأخرى دون أن أصل في نهاية إلى قرار مناسب.

بالرغم من محاولتي لمْ تقتنع بكلامي. كنتُ أتحدثُ كالمجنون، بينما عيناها كانتا مرتشقتين في السقف وعقلها يسبح حيث لا أدري. كانتْ تجلس في حجري كما لو أنها تودعني قبل سفرها المؤكد، لمْ أكن مرتاحاً لصمتها الغريب. ليس من عادتها أن تلتزم الصمت المطبق في مثل هذه الحالات، بقيتُ أتحدث معها أو بالأحرى راحت هي تتحدث

معي بعد أن جف ريقي من كثرة الكلام، وبحركة فجائية سألتني بعاداتها الطفولية تلك في طرح الأسئلة عن سبب رفضي القاطع لفكرة السفر.

أجبتُ بهدوء، وأنا أحاول تصنع ابتسامة كاذبة :

- أنت لا تعرفي ما يقع في تلك الحفرة كل يوم يا نضال، مئات النساء يغتصبن بشكل جماعي من طرف الصرب، ومئات الأطفال يتم ذبحهم أمام عيون آبائهم من الوريد الى الوريد، ومئات القنابل تنفجر في كل شبر من المدينة المحاصرة. كل هذا وتسأليني عن السبب.

توقفتُ عند هذا الحد، وتوجهتُ مسرعاً نحو المطبخ، صببتُ كأس ويسكي وأضفتُ إليه ثلاثة مكعبات من الثلج، وعدت إليها بنفس السرعة. كنتُ أحس أنني منكسر في داخلي وروحي تميل بين الخوف والبكاء، ولا أعرف لماذا اجتاحتني تلك الشهوة الغامرة للبكاء.

كانت هي غارقة في صمتها الطفولي، تبحث عن أسئلة أخرى في ذهنها. جلستُ في مكاني وعادتْ هي إلى حجري، وانكمشتْ فيه كقطعة سكر صغيرة. رفعتْ بصرها إلي وأطلقتْ ضحكة قصيرة، ثم قالت :

- لا تبالغ في خوفك وإلا لنْ تتحرك من مكانكَ خطوة، وستعيش طول حياتكَ في الزوايا المظلمة، لأنكَ تخاف الأماكن المكشوفة وتخشى الضوء. غادر تلك الزنزانة يا مهدي، وجرب أن تكون قوياً يا حبيبي، جرب أن تترك مجالاً صغيراً للحياة.

صمتتْ قليلاً. ثم تواصل ببعض الانفعال:

- يا حبيبي، المرأة تحتاج إلى رجل قادر على حمايتها، رجل قوي وليس رجلاً خائفاً من كل شيء، خائف من الماض ومن المستقبل، خائف من نفسه ومن محيطه ومن الناس جميعاً.

أشعلتْ سيجارة وأضافت:

- اعلم تماماً أنكَ نجوت من الموت بأعجوبة، لكنكَ تركت الموت داخلكَ، يمشي إلى جانبك أينما ذهبت. صرت تتكلم لغة الموت، وترى بعيون الموت. صارت الحياة في ذهنكَ عبارة عن زجاج شفاف يمكن أن تكسره حبة رمل دقيقة. حتماً أدرك كمْ كانت صعبة تلك الفترة الطويلة التي قضيتها محبوساً بين الجدران الصماء. لكن لا تَنْس أنكَ الآن خارج عتمة السجن، فلا تنغص علينا وتحرم نفسك متعة الوقوف عارياً إن شئت تحت أشعة الضوء. حبيبي الحياة أبسط مما تتخيل، والموت أبعد مما تتوقع. أترك كل شيء خلف ظهرك، وانطلق فأنا أحتاجك واقفاً على قدميك.

تسرب كلامها كالماء إلى أعمق نقطة في داخلي، أعادني إلى نفسي، وفتح الجراح القديمة التي سببتها الصدمة، وجعلني أُمعن في استرداد أشياء منسية بداخلي. لمْ أكن أمام كلامها أملك من العبارات ما أسعف به ارتباكي.

طفحتْ عيوني بالدمع، وأنا أقول بنبرة ما قبل البكاء:

- نعم قد يكون هذا الخوف الذي يسيطر على كل أفكاري هو الذي يبقيني وسط هذا الجحيم، وقد تكون أنانيتي البشعة هي التي اوصلتني إلى هذه النقطة. أنا أخفقتُ مع نفسي وخسرتُ كل شيء. كنتُ أنظر داخل الدائرة المغلقة ولمْ أكن أرى أبعد من قدمي. رجال كثيرون مثل حالتي انكسروا داخل هذا التآكل الفظيع، لكن لا أريد أن أخسركِ يا نضال، أفهمي هذا الكلام، لا أريد.

قاطعتني بنبرة مكسورة، وهي تبحلق في أو ربما كانت تبحلق في أعماقها، كان في عينيها شيء غريب :

- لماذا أنتَ مصر كل هذا الاصرار على تدمير ما يمكن أن نملكه من حب وسعادة في هذه المدينة التي لا تربطك بها علاقة وجع؟ هذه المدينة لمْ توجعكَ بعد، فلماذا تضعها في خانة المدن التي خذلتكَ وجردتكَ من إنسانيتكَ. وأنا ما الذنب الذي اقترفته حتى تضعني وسط كل هذا الضجيج الذي تصدره ذكرياتك ويباركه عقلك المشوش.

صمتتْ للحظة، ثم صاحت :

- أُفٍّ الأحسن أن أصمتْ قليلاً.

تأملتُ طويلاً في أعماقي السحيقة، وتذكرتُ كلاماً كنتُ قد سمعتهُ من أحدهم ذات يوم، لا أذكر من قاله بضبط لكن ما زلتُ أذكر بعضاً من ملامح وجهه الباهت، وأذكرُ ما قاله بالحرف. "يا للغرابة كيف نتشبث بذكريات الماضي الذي يعذبنا ويحرمنا حلاوة الحاضر، ربما في تعلقنا بذلك الماضي بعض مِنْ أجوبتنا المعلقة ".

أصمتْ وتمر أشياء كثيرة دون أن أنتبه لها، تمر على رؤوس الأصابع بخفة راقصةٍ باليه. أظل صامتاً تبدو لي باريس الغارقة في ليلها من وراء زجاج نافذة، من خلال هذه البناية الشاهقة التي تطل على نهر السين وعلى الجسر.

هل أخبر نضال أني أفكر أحياناً في الانتحار، بعدما انغلقتْ أمامي كل الطرق والأبواب. هل أقول لها ما أود دوماً قوله. " لا ترتبطي برجل اغتصبته الحياة من الدبر مرتين ". أم أخبرها بالقصة الكاملة للحرب التي تدور في سراييفو. وجدتُ أن من الاقرب إلى المنطق أَنْ أحكي لَهَا قصة المدينة التي حولها الصرب إلى قفر ممتد على طول البصر.

سحبتُ نفساً من السيجارة، وقطعتُ دخانها برشفة ويسكي، ثم قلت :

- دعيني أقص عليك جزءً مؤلماً من حكاية سراييفو.

رفعتْ حاجبها متعجبة ومستغربة، وسألتني بمزاح مستتر :

- ومن أين عرفت بتفاصيل الحكاية يا أستاذ مهدي؟

- من الجرائد والراديو، ومن النقاش السياسي الذي كنا نقضي فيها ساعات طويلة داخل الزنزانة.

قامتْ من مكانها، وفتحتْ النافذة قليلاً كي تتسرب أدخنة السجائر التي ملأت الغرفة، ويتجدد الهواء الذي نتنفسه. كانتْ أضواء باريس تتكسر تحت قطرات المطر الذي يتساقط بغزارة منذ ساعات الصبح، كانت معالم المدينة هادئة وصامتة في هذه الساعة المتأخرة من الليل.

"صرتُ أعرف ماذا يعنى أن يكون الإنسان قادماً من الجنوب الجائع، لأنه سيظل يحمل معه جوعه أينما وضع قدمه"

خطر ببالي هذا الاقتباس الذي قرأته في أحدى الروايات، وذلك حينما كنا في طريق العودة إلى البيت، رأيت مجموعة من المغاربين يندفعون بسرعة إلى الميترو خوفاً من مجيء الليل. ما تزال ملامح الخوف تسكنهم، يتدافعون عند البوابة كما كانوا يفعلون في بلدانهم التي هربوا منها خوفاً من الموت جوعاً وبرداً. في الميترو يتبادلون شتائمهم وهمومهم ويتذكرون الوطن وشمسه ومطره. الإنسان لا يشفى من وجعه حتى لو ترك الأرض التى أوجعته.

لا أدري لماذا قلتُ لنضال هذا الكلام الذي جاء في ذهني فجأة، هي كانت تنتظر مني أن أحدثها عن سراييفو. التفتُ إليها كانتْ غارقة في أدخنة سيجارتها تفكر في الذي قلته سهواً. كان صمتها يزداد عمقاً. سحبتُ ما تبقى من سيجارتي، وعركتها في المنفضة طويلاً. مددتُ يدي نحو كأس الويسكي، وارتشفتُ ما تبقى منه هو أيضاً، ثم قلتُ بتثاقل كبير :

- يا حبيبتي، بدأت الحكاية بعد الحرب العالمية الثانية عندما استولى الشيوعيون على السلطة في يوغوسلافيا عام 1945، وبذلك فقد تم إنقاذ غالبية المسلمين فبدلاً من أن يتم ابتلاعهم من قبل صربيا أو كرواتيا حصلوا على حل فدرالي تبقى فيه البوسنة والهرسك موجودة. وما كان أهم من ذلك بالنسبة إليهم هو نهاية القتل. تعامل الشيوعيون بقسوة شديدة مع كل من لمْ يقبل بحكمهم. ويقدر أن حوالي 250 ألف شخص قد قضوا في الإعدامات الجماعية.

ضحكتْ، ربما أعجبها التمهيد الذي بدأتُ به، هزتْ رأسها بشكل طفولي، كانت تقصد من خلال الحركة أنها فهمت كل ما قلت ويجب أن أواصل، أشعلتُ سيجارة أخرى ثم أضفتُ قائلاً :

- ضمن الدستور بنوداً تؤكد على أن يوغوسلافيا سوف تحافظ على حريات المعتقد، ولكن الأمور كانت مغايرة لذلك تماماً عند التطبيق. أغلقتْ المحاكم الشرعية في عام 1946، وبعد بسنة ونصف تم إغلاقُ أخر الكتاتيب التي كان التلاميذ يتعلمون فيها القرآن. وتم حل معظم الجمعيات الإسلامية، ولمْ يتم الإبقاء إلا على الجمعية الدينية الإسلامية الرسمية ومدرستين إسلاميتين تخضعان لرقابة مشددة. وتم إغلاق المطبعة الإسلامية في سراييفو، وتولتْ الدولة إدارة الهيئة المشرفة على الأوقاف.

تقدمت مني وقبلتني على شفتّي، قبلة وديعة خافتة، ولكن شاعرية، جعلتني ارتبك، طوقتها بين ذراعي وقلت :

- هذه كانت المرحلة الأولى من الازمة يا حبيبتي، والمرحلة الثانية سأحكي لك عنها لكن بعد أن تحضِري لي كأس ويسكي وتغلقي زجاج النافدة، لأنني أشعر بالبرد.

اخذت الكأس الفارغ من يدي وملأته عن أخره، ثم قالتْ بعد أن نظرت إلى الساعة التي كانت تزحف إلى الواحدة بعد منتصف الليل :

-اِحْكِ بسرعةٍ، الوقت يمر ويجب أن أنام فأنا متعبة. أظنك متعباً مثلي؟

قلتُ وقد ظهرت على وجهي كل علامات الحب المهزوم :

- في يوم عيد القديس فيد، وفي 28 حزيران 1989 تجمع مئات الآلاف من الصرب قرب بريشتينا عاصمة إقليم كوسوفو، كي يحتفلوا بالذكرى المئوية السادسة لمعركة كوسوفو.

لمْ تقل لي شيئاً محدداً واكتفت بعبارة " أها " في ذلك المساء كانت تريد أن تفاجئني بحضورها الكثيف، الذي رغم خوفي منه لمْ أستطع صده عني، صمتْتُ للحظات ثم واصلتُ :

- في ذلك اليوم توجه مليوشفتش رئيس صربيا بخطاب تحريضي للحشود التي كانت تقف أمامه قائلا: "وبعد مرور ستة قرون، ها نحن من جديد في معارك ونزاعات، إنها اليوم ليست بمعارك مسلحة،

ولكن لا يمكننا أن تستبعد أن تصبح كذلك" فهلل الحشد لذلك وصفق وقرعِ طبول الحرب.

في تلك اللحظة تعمدتْ عدة مرات أن تلامس بأصابع يدها قضيبي، كانت كأنما تحاول أن تخلق احتكاكاً ما، شعرتُ ببعض الحرارة تصعد إلى رأسي، حاولتُ أن أخفي عنها ذلك، نظرتُ إليها وقد كانت غارقة بنظرها في وجهي، بينما ظهر عليها هي ذلك الوهج الذي لمْ أره قطٌّ من قبل في عيني امرأة، لمْ أقل كلمة وهي بدورها لمْ تقل شيئاً، بقينا صامتين لفترة طويلة، كم وددتُ في تلك الدقيقة لو أنها تلمس جسدي مرة أخرى، وتمرر أصابعها على قضيبي ببطء، تركتُ نفسي تنقاد تلقائياً وراء رغباتي، وكأني مسلوب الإراد، رفعتْ بصرها نحوي ورمقتني بنظرة هي مزيج من مشاعر كثيرة، ثم قالتْ :

- لكن، لماذا أعلنت صربيا الحرب؟

ابتلعت آخر قطرة في كأس الويسكي، ثم قلتُ :

- أوف نسيتُ أنْ أخبركِ بشيء مهم جداً، يوغوسلافيا الدولة التى حكمتها الشيوعية منذ الحرب العالمية الثانية، نجحتْ فى دمج الدول السبع (صربيا.. كرواتيا.. البوسنة و الهرسك.. سلوفينيا.. الجبل الأسود.. مقدونيا.. كوسوفو) في دولة واحدة تعد من أقوى دول منطقتها تحت قيادة الزعيم اليوغوسلافي يوسيب. بوفاة هذا الرجل بدأت الحركات القومية في هذه الدول بالظهور، وعلت الأصوات بالإستقلال عن يوغوسلافيا، بدأت سلوفينيا بالانفصال قبل ثلاثة

سنوات من اليوم، تبعتها كرواتيا ثم مقدونيا، وعندما أظهر مسلمُو البوسنة النية فى الإنفصال عارضهم صرب البوسنة الموالين للعاصمة الصربية بلجراد، وهددوهم بالإبادة إذا انفصلوا عن جمهورية يوغوسلافيا. وبالفعل أعلنت البوسنة والهرسك الإنفصال عن يوغوسلافيا في مارس 1992 أي قبل سنتين بضبط بعد أن وافق مسلمو البوسنة في استفتاء شعبي على هذا القرار. و من هنا بدأ العدوان على سراييفو.

للحظة أحسستْ أن نضال لمْ تعد مهتمة بما أقول، كان النعاس قد أثقل جفونها، ونامتْ في راحة يدي كقطرة ندى، اجتذبتني شَفَتاهَا مِنْ فَرْطِ حمرتهما الشهية، فقبلتها وهي غائبة تماماً عن الوعي.

كانتْ هادئة وفي وجهها بريق مثير، كانتْ مسكونة بالغواية حتى وهي في عز نومها. أقف مشدوهاً أمام امرأة استدرجتني إلى فخاخها دون أن تشعر ودون أن أشعر، في كل لحظة كنتُ أحاول توصيف ما حدث بيني وبينها، أجدني عاجزاً عن ذلك. أرى في رموشها التي تتحرك من حين لآخر عواصف قادمة من بعيد من زمن الاعتقالات والسجون. كنتُ أحاول عبثاً قبل أن اغرق في النوم وأن أستعيد بعضاً من كلامها الذي أحسسته منطقياً. لمْ أعد أمانع رغبتها في السفر إلى سراييفو. سأدعها تجرب متعة المغامرة والدخول في دوامة الموت العشوائي، رغم أنني أدرك أن الخراب هو الحقيقة الوحيدة الموجودة في مدينة اِسمها

سراييفو، لكن من حقها أن تختار الطريق الذي تراه مناسباً. الفراغ الذي ستتركه سيكون كبيراً وسأجد صعوبة في تحمل غيابها الذي أجهل كم سيدوم.

وقبل أن يسرقني النوم، استرسلت في الحديث عن الحرب التي تدور في مدينة سراييفو، رغم أن نضال لمْ تكن تسمع أي شيء مما كنت أقول، إلا أنني واصلتُ قائلاً موجهاً كلامي إليها:

- آه يا نضال هذا الجزء من الحكاية هو الأكثر وجعاً. نقلت وكالات الأنباء مشاهد لنساء يلتقطن أعشاباً خضراء لا تعرف ماهيتها، وعجائز يمضين حاملات جذوع الأشجار إلى بيوتهن لتدفئتها، وأطفالاً بوجوه شاحبة لقلة الغذاء. "مرحبا بكم في جهنم" عبارة كانت مكتوبة على جدار في سراييفو.

* * *

وخلال ذلك الاسبوع الذي مر حزيناً، والذي كان يفصلنا عن الفراق الباكر نشرتْ نضال مقالة مطولة عن تاريخ الاسلام السياسي، بينما أنا كنتُ اجهز نفسي للمعرض، أبحثُ عن بعض المعلومات الخاصة بالفن التشكيلي، لمْ أكن مهيئاً على الاطلاق لإجراء ذلك الحوار الذي من المفروض أن أكون مستعداً له نهاية الأسبوع، والذي سيجمعني بفنانة فرنسية لا أعرف عنها الكثير، سوى أنها متزوجة من ناشر معروف، وتقيم في باريس. المعلومات التي توصلتُ إليها كانت شحيحة للغاية، ولمْ تكن كافية لأخذ صورة واضحة عن هذه المرأة التي يغلب على معظم لوحاتها اللون الأحمر كما قرأتُ في أجد الجرائد. وخلال تلك الأيام وبسبب انشغالي المفرط بالمعرض والحوار الصحفي، نسيتُ قليلاً حالات الخوف المتكرر الذي كان يملأ عقلي وحواسي. الخوف الذي كان ينعكس في المرآة أمامي كل صباح، كنت أدرك أن سواد العالم تكثف في قلبي، وجعلني أدخل في مونولوغ داخلي أتكلم فيه مع نفسي.

عندما كنتُ اصاب بحالات القلق والخوف والوحدة، كنتُ أرجع إلى المقالة التى كتبتْ نضال وأحاول أن أناقشها في بعض النقط التي ذكرتها، فقط كي أشغل تفكيري بشيء ما، وكي لا أنكسر داخل الخراب الذي يزحف نحوي.

نضال كانتْ تحزمُ حقائبها، وتتأمل ارتباكي من بعيد وتحاولُ أنْ تجعل من سفرها شيئاً بسيطاً لا يستحق مني كل تلك الفوضى. كنتُ أبحثُ عن أجوبة لا تملكها نضال.

أذكر أني قلتُ لها في ذلك المساء الذي سبق يوم المعرض بلهجة مازحة وجدية في نفس الوقت :

- أحببتُ وصفكِ لجماعة للإخوان المسلمين بالثعالب الماكرة.

ضحكت كثيراً، ثم ردت :

- ثمانون عاماً وأكثر وهذه الجماعات تركض كثعالب في سباق وصراع ساخن مع حكومات بُلدانِها، ودعني أخبركَ أن الدول العربية الاسلامية وجماعات الاسلام السياسي نقيضان وعدوان، وأن الدول مهما كان نظامُهَا لنْ تقبل بوجود جماعة دينية غير قانونية، بل إن بعض الحكومات قد تكسب قوتها من ومشروعية بقائها واستمرارها في السلطة من خلال حربها على هذه الجماعات.

قالتْ هذا الكلام ثم عادت إلى حقيبتها تدس فيها ثيابها وأغراضها التي لا تستطيع الاستغناء عنها.

كانتْ موزعة بين الرد على أسئلتي، وبين ما يشغل ذِهْنَها في صمتٍ مخيف. قالتْ وهي تضعُ في يدي أقراطاً، قالت إنها غالية على قلبها ويجبُ أنْ أحتفظ بها عندي لحين عودتها من سراييفو.

ثم أضافت:

- الدين بالنسبة لهؤلاء ليس عقيدة وعلاقة بين الرب وعبده، بل نظام حكم يطوع الدين لصالح السياسة والمصالح السياسية. فالحاكِمُ يمارسُ السلطة بإِسم الدين، ويأخذ السلطة السياسية بالقوة. وقد ارتكب أتباع هذه الجماعات الاسلامية التي تطمح إلى السلطة جرائم يندى لها جبين الانسانية داخل العالم الاسلامي وخارجه، أثارت الرعب في النفوس. إن الحركات الاسلامية تسعى منذ سقوط الخلافة الاسلامية إلى البحث عن شرعية الحكم وحتى عن شرعية ممارسة السياسية.

لمْ تكن تعنيني كل هذه الاشياء السخيفة، الاسلام، والسياسة، والعرب، والسلطة، والدين، التي حكتها نضال بقدر ما كان يعنيني صوتها، كنتُ استدرجها إلى الكلام فقط وليس المهم ما ستقول. الموضوع ككل أراه كلاماً فارغاً لا معنى له، فأنا منذ زمن بعيد قطعتُ علاقتي مع هذه الترهات ولمْ أعد مهتماً بهذا الجدال العقيم الذي أدخل العرب في عزلة قاسية.

وقبل أن ننزع ملابسنا للممارسة الحب كالعادة، طلبتُ من نضال أن ترافقني إلى المعرض غداً، وتكون بجانبي في أول حوار صحفي

أقوم به. وافقتْ على طلبي بشرط أن أكتبُ لها رسائل بشكل دائم بعد أن تسافر إلى سراييفو.

انتشلتني من دوامة الخوف ورمتني بين أحضانها، قبلتها، ضاجعتها، تلبستُ بها، ووعدتها أن أكتبَ لها كلما أحسستُ بالخوف والفراغ والوحدة، أن أكتب لها عن تفاصيل يومي وعن الشوارع والمقاهي والمطاعم والحانات والساحات التي سأزورها في غيابها، أن أكتب لها عن الأمطار التي تنقر على الزجاج الخلفي المطل على الجسر الذي لا اِسم له، ولا ذاكرة، ولا يعبره الناس إلا نادراً.

تصوري، كلما صرتُ عارياً تَخَيلْتُ أبْشَعَ الصور، ونوع من التبلد أثقل رأسي، وعادت بي الذاكرة إلى سنوات الرصاص والقتل المنظم، حيث كان الدم المغربي رخيصاً، أرخص من زجاجة نبيذٍ أحمرَ. وكان المغاربة أشبة بحشرات مقرفة تُسحق تحت أحْذِيَةِ النظام الخشنة دون رحمة.

وطرح في أعماقي هذا السؤال المتعب كيف؟ كيف سيكون حالكِ وأنتِ تواجهين الموت في سراييفو؟ كيف سيكون طعم الخوف في حلقكِ؟ كيف سيكون الغد بدونكِ يا نضال؟

* * *

في الصباح وعند الساعة الحادية عشرة ونصف تماماً كنا في فضاء المعرض، وكنا من أول الواصلين إليه. وفجأة مسحتْ نضال بعينيها الحادتين المساحات الأرضية والجدران والسقف، ثم التفتتْ

صوبي بتثاقل قائلة : وكأنني رأيتُ هذا المكان من قبل. أجبتها مازحاً كل المعارض تتشابه يا حبيبتي. لكنها كانتْ مصرة على أنها عاشتْ هذه اللحظة بتفاصيلها، قالتْ إنها تعْرف هذه اللوحات المعلقة على الجدران، لكن لا تذكر أين ومتى شاهدتها أول مرة.

وأنا أيضاً ومنذ اللحظة الأولى انتابتني رهبة غريبة لمْ أكن أعلم مصدرها، شيء ما عميق أجهله تماماً كان يتولد بصدري، وصار يملأني قطرة قطرة، فكلما رشقتُ عيني في تلك اللوحة الكبيرة التي كانت بحجم الحائط، والتي كانتْ تسبح في ضباب خفيف، وكأنها عاشتْ عنفاً دامياً في السنوات الماضية. استيقظتْ أحاسيسي القديمة فجأةً. كانت زرقة اللوحة تزداد اغراء كلما اقتربت منها أكثر، وكلما التصقتْ تكسرات الضوء بسطحها الخشن.

لا شيء يشغلني في هذا المعرض سوى هذه اللوحة التي تنزف بكل تفاصيلها الكبيرة وحتى الصغيرة. اللون الأزرق البارد الذي يحاكي زرقة البحر في فصل الصيف، والأجساد العارية المتداخلة في بعضها بعضٍ، التي تتوسط عمق اللوحة بشكل يجعل من الصعوبة التعرف على ملامح الوجوه المرسومة باللون الأحمر الساخن، وتلك الكلمات المكتوبة باللغة العربية على الهوامش مثل " حرية .. حب.. جنس.. اغتصاب.. ذاكرة.. وجع " وفي أسفل اللوحة كتب تاريخ 1973، كل هذه الأشياء جعلتني أولي اهتماماً لهذه اللوحة الشاسعة عن باقي اللوحات التي تجاوز عددها الخمسين. لا شيء يثير الانتباه إلا نظرات نضال وهي مشدوهةً إلى نفس اللوحة التي شدتني منذ وطئتْ قدمي

أرض المعرض. كانتْ تقفُ ورائي تماماً، رأيتُ ظلها وسمعتُ أنفاسها حين تمتمت في اعماقي عفوياً: هذه اللوحة غير عادية، ثمةَ جنون مَّا يسكنها، شيء مِنَ الخوف تخفيه هذه الأجساد العارية. هذه ليست مجرد وضعية جنسية شاذة تجمع امرأة واحدة بمجموعة من الرجال. ثم سحبتني من يدي وجرتني خلفها صوب لوحة أخرى أصغر حجماً من الأولى، ولكنها تحملُ نفس التفاصيل تقريباً. رجل عاري الجسد يمسك باليد اليمنى مطرقة صغيرة وبيده اليسرى عضوه الذكريِّ، وخلفه جدار قديم متهالك مكتوب عليه كلمة "الجلاد" بخط غير واضح، وتحمل نفس تاريخ اللوحة الأولى.

كان المعرض يعجُ بالناس من مختلف الأعمار. أشخاص يريدون أن يثبتوا لأنفسهم بأنهم أحياء ومازال فيهم بعض الاحساس الذي يتذوق الفن والجمال في هذا الزمن المتوحش الذي يموتُ فيه آخرون، ويقتلون وكأنهم بعوض. رجال يبدو عليهم الثراء الفاحش، يرتدون ساعات غالية الثمن من ماركات مشهورة، ونساء يلبسن فساتين أنيقة جداً ومزينة بالأحجار الكريمة. هؤلاء هم وجه الثقافة في باريس التي تتقن جداً اخفاء أوجاع العالم.

تلك الدهشة التي تملكتني أمام لوحة لا أعرف اِسمها، بدأت تتحول شيئاً فشيئاً إلى حسرة داخل زحمة المكان. تركتُ تلك الزاوية والحيرة تلفني من كل الجهات، نقلتُ نظري بسرعة بين اللوحات المعلقة على الحائط، إثنتان فقط كان عليهما توقيع بخط اليد وباقي اللوحات يحملون توقيعاً ببصمات اليد اليمنى. أنا لمْ يَسْبِقْ لي أن

رأيتُ أو سمعتُ عنْ فنان تشكيلي يضع توقيعاً بهذه الطريقة العجيبة على أعماله الفنية.

أَحْسَسْتُ ببعض الضجر يتسلل إلى داخلي ببطء، التفتُ يميناً وشمالاً، وبعدها توجهتُ نحو منظم المعرض الذي كان يستقبل الناس عند عتبة الباب، حككتُ ذقني وسألته :

- مِنْ فضلكَ، في أي ساعة ستقام الندوة الصِّحَافيَّة؟

صفن قليلاً، ثم رد وهو ينظر إلى بطاقة التعريف المعلقة على عنقي، وعلامات التعجب تظهر على تقاسيم وجهه :

-أنتَ صحفي، أليس كذلك؟

- نعم سيدي ولي موعد مع الفنانة ماريا بولمان

أجاب، وهو ينظر إلى ساعة معصمه :

- بعد ساعة وربع من الآن، ستقام الندوة الصِّحَافيَّة بالقاعة رقم واحد.

صمتَ لوهلة، ثم استرسل قائلاً :

- السيدة مريا بولمان وصلتْ قبل دقائق، وهي الآن داخل قاعة العرض. يمكنكَ أن تسرق منها حواراً سريعاً قبل الجميع.

- حسناً شكراً على لطفكَ.

ابتسم المنظم في وجهي قبل أن يستدير ناحية المدخل. كانتْ الوجوه الواقفة على أطراف الشارع من الجهة المقابلة للغالوري غير مريحة، وجوه مكسوة بالتعب والخوف والهمجية أيضاً، في ذلك الحي الصغير والهامشي يقيم المغاربة وبعض الجزائريين، في أزقة هذا الحي الأوساخ تتراكم كتلاً كتلاً. دوريات الشرطة لا تغادر المكان بسبب تفشي الجريمة والسرقة وبيع المخدرات. عند مدخل السوق تجد تجمعات كثيرة من الشباب يثرثرون في مواضيع البطالة والغربة والبلاد، واقفين بدون سبب يذكر. سعادة عظيمة أن لا يعرفكَ أحد على الاطلاق من مغاربة الأحياء الخلفية في هذه المدينة الممطرة والباردة.

عدتُ إلي القاعة وانغمستُ داخل زوار المعرض وبدأت أتتبع الوجوه والألْوانَ والأشكال والألبسة، بدهشة من يقتحم عالماً لم يكن يحلم به.

بخوف وجزع انزلقتُ من لوحة إلى أخرى، ومن حائط إلى آخر، ومن ملامح وجه إلى آخر، ومن تضاريس جسد أنثوي شِبْهِ عارٍ إلى آخر. نضال كنتْ تقفُ أمام لوحة رُسِمَ عليهَا نهد به ندوب كثيرة وجروح غائرة، وعندما رأتني أقفُ متسمراً بجانبها لمْ تسألني أين كنتُ، ولكنها ابتسمتْ كعادتها ووضعتْ قبلة خفيفة على وجنتي، ومسكتْ يدي بهدوء، وتحسستْ برأس أصبعها موضع إبهامي المبتور.

تفاصيل المعرض كانتْ تشغلها حد الذهول، أحبتْ اللوحات كثيراً وكانت متحمسة جداً للقاء الصِّحَفِي الذي سيعقدُ بعد أقل من

ساعة. أخبرتني وهي تضغط على أصابع يدي بقوة، أنها عندما تعود من ساريفو، سيكون معها المال الكافي لشراء إحْدى هذه اللوحات المعروضة للبيع.

العجيب أني كلما غصتُ في هذا المكان، أشعرُ بشيء ما يتحركُ داخل صدري، ويعصفُ بالذاكرة المنسية ولا أتذكر أمام زخم اللون الأحمر الذي يغطي كل الجدران إلا مشهد الخوف الذي سكن عظام الرفاق بدرب مولاي الشريف، في ذلك اليوم الذي ارتعشتْ فيه أجسادنا من أخمص القدم إلى شعر الرأس.

هي ذي لحظتي مع الذاكرة، حيث يختفي كل شيْءٍ مِنْ هذه القاعة الكبيرة تاركاً مكانه للوجوه والملامح المنهكة، ملامح الرفاق الذين قدمتُ رؤوسهم للمقصلة، وبِعْتُهُمْ دفعة واحدة للنظام، ذات نوبة حب مفرط، حيث يصمت كل شيء ويظل صراخ الطايعي والجزولي وبن عبد الله في أذني، يتردد صداه من حين لآخر.

هذا الصراخ الذي ينخر جسدي من الداخل، يذكرني دوماً بأن هؤلاء الرفاق ماتوا في أقبية النظام حين كان يتم التحقيق معهم بعد أن وشيت بهم للقتلة.

الساعة العملاقة المعلقة على الحائط، تزحفُ نحو الثانية عشرة ونصف زوالاً، ولمْ يَتبَقَّ على موعد الندوة إلاَّ دقائق معدودة. سحبتُ نضال من يدها، ومشينا صوب القاعة رقم واحد، والتي كانتْ تقع في آخِرِ الممر الضيق الذي يربط بين قاعة العروض وباقي فضاءات

المركز الثقافي. لمْ أَرَ شيئاً من وراء ذلك الباب المشرع باتساع إلا مكبرات الصوت والكاميرات مصطفة مثل تماثيل منكسرة، ومن الحديقة الخلفية كانت تأتي هَسْهَسَات شجر الصفصاف العملاق، مصحوبة بروائح شجر اللوز الذي يزهر في هذا الوقت من فصل الشتاء.

الشجرة المواجهة للنافذة تنقر من حين لآخر الزجاج، وتدخل من الشق الصغير رائحة المطر والأتربة.

آه .. للمطر طقوس خاصة في هذه البلاد يختلف تماماً عن مطر تلك الأرض التي صارت اليوم بعيدة، عندما كنا ننزل إلى شوارعها الحزينة، نتخبأ تحت المظلات من غزارة الأمطار ونحن نهتف بأعلى أصواتِنا يسقط، يسقط النظام الفاسد، يسقط،يسقط الديكتاتور، يسقط، يسقط حكم القصر.

ما أجمل تلك الأيام، حتى في لحظات فشلنا وحزننا وخسارتنا كنا نتشبث بالأمل كي لا نموت حسرة تحت قطرات المطر. لقد ربينا على الانتصارات الصغيرة. أتساءل وأنا استحضر تلك الفترة الموجعة الموغلة في الخوف، ماذا كان يمكننا أن نصنع بهذه الشعارات وسط رعشة الموت؟

يومها كانت مشاريعنا كثيرة، لكننا لمْ نكن نملك الحظ الذي كان من الممكن أنْ يغير كل شيء بجرة قلم. لمْ يكن القلم في يدنا

نحن، بل كان بين أصابع النظام، هو الذي كتب النهاية كما يشتهي ويريد.

مرت سنوات الرصاص، واليوم الوطن يدخل مرحلة التصالح المفروض. كيف سيصالح الوطن ضحاياه؟ وكيف سيغفر الضحايا ظلم الجلاد وجبروته؟ وكيف سينسى الجلاد عاداته التي فطر عليها ومارسها مدة نصف قرن أو أكثر؟

فصيلتي تموت الواحد بعد الآخر، يموتون في المنافي والسجون السرية، وفي الشوارع الخلفية، والساحات، وفوق الجسور، وداخل البيوت المغلقة التي لا نوافذ لها ولا أبواب. تساقط الكثيرون في عز اندفاعهم وشبابهم، ومَنْ تبقى منهم على قيد الحياة، سيوقع على صلح مع القتلة وتعهد بخط اليد على المشي بهدوء جنب الحائط ودون ضجيج. من تبقى منهم داخل الوطن الجريح، سيتعلم كيف يكتم أنفاسه وأسراره وأوجاعه. وسيصير مجرد رقم في أرشيف منظمات حقوق الانسان، وعضواً في هيئة المصالحة الكاذبة.

كنتُ غارقاً في ذاكرتي حد القرف، وفجأةً سمعتُ صوتاً جافاً يتمتم في المكبر، كان صوت المنظم يقول مرتبكاً وهو يوجه كلامه إلى عشرات الصحافيين الواقفين أمامه: نعتذر منكم أيها السادة، لأن السيدة ماريا بولمان لنْ تستطيع إقامة الندوة الصحافية بسبب نوبة زكام حادة أصابتها. وسنُوافيكُم بتاريخ الندوة الجديدة في الأيام القادمة. شكراً على تفهمكم.

قمتُ من مكاني بعد أن وضعتُ جهاز التسجيل الذي كان معي، وورقة الأسئلة التي كنت أنوي طرحها خلال الندوة في الحقيبة الصغيرة التي كانتْ تحملها نضال. وهممتُ بالخروج من القاعة وأنا أقول في قرارة نفسي: أفضل أنها أجلت الندوة إلى وقت لاحق، هكذا سيكون معي الوقت لأجهز نفسي كما يجب، لأنني في الحقيقة كنتُ مشوش الذهن ولا أعرف حتى كيف أوجه السؤال إلى هذه الرسامة التي تتزاحم المنابر الاعلامية عليها بهذا الشكل.

غادرنا القاعة رقم واحد، ثم مررنا بقاعة العروض، رميتُ نظرة خاطفة إلى اللوحة الكبيرة التي شدتني منذ أول لحظة، وقبل أن نجتاز باب المركز، أوقفني المنظم وهمس في أذني بصوت منخفض: السيدة ماريا تريد مقابلتك. ثم بلع ريقه وأضاف، وبمفردكَ لو سمحت.

لمْ أفكر لحظتها كثيراً، طلبتُ من نضال أن تنتظرني عند باب القاعة، وتبعته. صعدنا الدرج المؤدي إلى الطابق الثاني، أدخلني إلى مكتب شاسع تزينه لوحات كُتِبَ تحتها أسماء فنانين كبار" كلود مونيه .. دافنتشي .. فنسيت فان غوغ .. مايكل أنجلو .. رامبرانت فان رين ... وآخرون" ، ثم أَحْضَرَ لي فنجان قهوة ومنفضة سجائر، وغادر قائلاً: إنتظر قليلاً ريثما تأتي ماريا.

بقيتُ على ذلك الحال مدة قصيرة، أشعلتُ سيجارة ورشفتُ القليل من فنجان القهوة الساخن وأنا أقف بمحاذاة النافذة المطلة على الشارع من ذلك المكان، رأيتُ بشكل واضح حي المغاربة وأزقته

الضيقة التي لا تشبه باقي أزقة باريس، ورأيتُ تلك الوجوه البائسة ما تزال واقفة مكانها، رغم غزارة المطر وشدة برده التي تلسع الأبدان.

يَعْبُرُ أُنَاس من أمامي لا أعرف أحداً منهم. لمحني أحد المارة، رفعَ بصره صوب النافذة، تفرسني قليلاً ثم مضى في طريقه وهو يندفن داخل معطفه الاسود السميك، ربما كان يظنني أحد معارفه. انهيتُ السيجارة ودون أن أطفئ بقاياها قذفتُ بها بعيداً من فوق، ثم تتبعتُ مسارها وهي تنزل بأقصى سرعتها لتسقط أخيراً في منتصف الشارع المبلل بالمطر.

فتح الباب ..

سبقها العطر وصوتُ أنفاسها. وكانتْ الدهشة كل الدهشة حينما تقاطعتْ نظراتنا، كم تمنيتُ أَنْ أرجع إلى الوراء ولا أرى ملامح وجهها الذي أيقظ بداخلي جراحاً قديمة يصعب عليَّ تحملها. ألمْ يكن من الأفضل أن لا نلتقى بعد هذا العمر، وبعد هذا الغياب الطويل، ألمْ يكن من الأفضل أن أرفع رأسي ولا أجدكِ هنا على مرمى البصر، قريبة كوجع يمزق الخاصرة، بعيدة كذكرى.

نجمة ..

التقينا إذاً، وأخيراً سأسمعُ منكِ تفاصيل الحكاية التي عذبتني وأنهكتْ جسدي وسرقتْ أجْمل سنواتِ عمري، بعد كل هذا اليأس تأتيني لمعة عيونك بالتوقيت الخطأ، أنا لمْ أعد أرى إلا الأبيض والأسود، وهاهنا أنتِ غارقة في زرقتك وبهجتك كالبحر. كنتُ أخشى

أن أموت قبل أن يجود علينا هذا الكاتب المجنون الذي يحكي قصتنا، بلقاء واحد ولو للحظات قليلة، كنتُ أخشى أن تموت الأسئلة بصدري من فرط انتظارِكِ. أنتِ الوحيدة القادرة على منحى تلك الأجوبة التي طالما اشتهيتُ سماعها. أنتِ الوحيدة التي تعرف ألغاز وأسرار هذه الحكاية.

- قولي أي شيء يكفي صَمْتاً، تقتلني الأسئلة التي تتزاحم بعقلي يا نجمة، وتذبحني نظراتكِ التي تحمل معها سيلاً من الذكريات والصور والأصوات والأغاني والقصائد والحماقات التي اقترفنا معاً.

- أوقف هذا الهراء الآن.

قالتْ وهي تقترب مني بخطوات متعثرة، كما كانت تفعل دوماً في لحظات الخوف والارتباك :

- اِمْنَحْني فرصةَ أنْ أحكي لك ما حدث. دون أَنْ ترفع صوتكَ أكثر.

ثم استرسلت وهي تصطنع صرامة غير مقنعة :

- في ذلك اليوم الذي أعطيتَ فيه أسماء الرفاق والأصدقاء إلى الشرطة، تَمَّ نقلي بعد أدان الفجر من درب مولاي الشريف إلى مكان آخر، كان ذلك المكان عبارة عن شقة صغيرة احتجزني فيها الضابط الذي كان يحقق معكَ مدة أربعة أشهر ونصف. في تلك الفترة كان يأتي هو وخمسة من أصدقائه كان واحداً منهم يعمل قاضياً والثاني كان

من شرطة مكافحة الشغب، أما الآخرين لمْ أعرف طبيعة عملهم، كانوا يتناوبون على مضاجعتي طوال تلك المدة. وذات صباح جاءني ذلك القاضي بقطعة قماش وفرشاة رسم ومجموعة من الألوان الزيتية وأمرني برسمه عارياً تماماً ولا أعرف من أخبره بأنني أجيد أرسم، رسمتهُ عارياً في وضعية مقرفة، فقد كان يحمل مطرقته الخشبية باليد اليسرى ويمسك قضيبه الصغير باليد اليمنى.

صمتت قليلاً ومدت بصرها ناحية النافذة، ثم استرسلت:

- حاولتُ أن أنتحر أكثر من مرة، لكنْ الرغبة في الانتقام منهم كانتْ تمنعني، كان يجب أن أظل على قيد الحياة حتى أستطيع تمزيق أعضائهم التناسلية. في يوم من الأيام. حاولتُ الهرب أكثر من مرة لكن فشلتُ، فشلتُ في الخروج من تلك الشقة المظلمة التي لمْ يكن لَهَا نوافذ إطلاقاً، وكأنها كانت في مكان مهجور لا يصل إليه أحد. كنتُ فقط أسمع من حين لآخر صوت القطار يأتي من بعيد، من بعيد جداً. في تلك الظلمة الدامسة خسرتُ أشواقي وأحبابي وألواني وجسدي. كنتُ بين أيديهم مثل دمية ضعيفة يفرغون فيها أمراضهم وتخيلاتهم الجنسية المكبوتة.

تساءلت في داخلي وأنا أستمع إليها، هل هذه القصة حقيقية أم أنها تريد أن تستدرجني إلى أشياء لا أعرفها، تلعثمتُ في الرد، نظرتُ جهة النافذة، شعرتُ ببعض الحيرة، كدتُ أصفعها على خدها، ولكني لمْ أفعل، شعرت بألم في القلب لا يداويه إلا الموت، أحسستُ بإحباط

شديد، بقيتُ أرقب المارة من خلف النافذة، ثم بعد لحظات قليلة قلتُ :

- وماذا حصل بعد ذلك؟

ردت :

- كنتُ اصرخ بمنتهى قلبي، لكن لمْ يكن يسمعني أحد، ورغم ذلك واصلتُ الصراخ بصوت مبحوح ومرهق، فلم يكن لي من خيار آخر سوى ذلك. مع مرور الأيام كان الألم يزداد وتتضخم حدته أكثر فأكثر، وكنتُ أقترب من الموت أكثر فأكثر. لا أدري كيف قاوم جسدي كل تلك الاهانات والإذلال، وكل ذلك الجوع والعطش.

واصلت بدموع تسيل على خديها، دموع مزقت قلبي من الداخل :

- في الأسبوع الثالث راودتني شكوك مخيفة بعد أن انقطعت عني الدورة الشهرية التي كان من المفروض أن يكون موعدها قبل عشرة أيام على الأقل. كانتْ فكرة أن أكون حاملاً من أحد هؤلاء المجرمين، فكرة موجعة وقاتلة. فمجرد احتمال الحمل يعتبر بالنسبة لي نهاية غير متوقعة وموتاً محققاً. كنتُ أتحسس بطني بأنامل مرتجفة كل لحظة، وأطلب من الله أن لا يحدث كل هذا.

نظرتُ إليها وشيء ما في داخلي كان يجعلني أقول في قرارة نفسي: لمْ أكن أتصور الحكاية سيئة إلى هذا الحد. فكرت هكذا، أو رغبت أن أفكر بهذا الشكل، كنت حتى هذا الوقت أشعر أني أتحكم في زمام

نفسي. نظرتْ إلي وشيء ما في داخلها كان ينزف بقوة، هنا كان عليّ بسرعة أن أرتدي قناع المستغرب، وأنا أفتح فاهي عن آخره مندهشاً من حديثها وهي تقول :

- هدني التعب وكثرة التفكير، كانت الأيام تزحفُ بسرعة ووقتي محسوب جداً، وفي كل أسبوع كانت بطني تنتفخ قليلاً، في الشهر الرابع صار الحمل واضحاً قليلاً على جسدي، وكان يجب أن أجد حلاً قبل أن يكتشف أمري من طرف هؤلاء القتلة، أكيد لو أنهم عرفوا بذلك فسوف أُدْفَنُ حية.

ثم واصلت :

- في البداية فكرتُ في إسقاط الجنين، وحاولتُ بمختلف الطرق فعل ذلك، حتى أنني ذات نوبة يأس أدخلت قلم حبر داخل مهبلي وبدأت أحركه في جميع الاتجاهات وبحركة عنيفة، لكن دون جدوى.

أطلقت ضحكة طويلة ثم اردفت :

- أَعْلَمُ تماماً أن فكرة القلم، كانت فكرة غبية جداً، سخرتُ من نفسي في ما بعد. وحتى لو أجهضتُ بتلك الطريقة فقد أُصابُ بنزيفٍ قاتل، فقد كنتُ على حافة الجنون فعلاً. كانتْ الحياة ضيقة ومظلمة وتفوح منها رائحة تشبه رائحة الجيفة، وكان الخراب المتناثر من حولي عميقاً جداً، ولمْ يكن أمامي من حل سوى أن أتخلصْ من ذلك الجنين الذي يكبر شيئاً فشيئاً بين ضلوعي. كنتُ أريد له أن يتفتت إلى قطع صغيرة، ويسقط في صمت. كنتُ أتمنى أن أجهضه من دون أن

أموت أنا، ولكن ذلك الجنين كان مصراً على البقاء بداخلي رغم كل الخراب المحيط به.

مسحتُ دموعها بيدي، وكدت أجرها إلى صدري، وأحتضنها بين ذراعي، لكن الأمر لمْ يكن بتلك البساطة التي تخيلتها. عادتْ خطوة إلى الخلف لتترك بيننا مسافة ارتياح، ثم واصلت كلامها :

- شعرتُ في لحظة من اللحظات أن ذلك القاضي النذل، قد نسى إغلاق الباب بالمفتاح من الخارج، لأنه كان ثملاً جداً وبالكاد يستطيع المشي. انتظرتُ قليلاً ثم مشيتُ صوب الباب الحديدي الثقيل ذي اللون الأحمر القاتم، أخذتُ نفساً طويلاً، ثم وضعتُ يدي على المقبض، أدرته بهدوء وببطء شديد، فتح الباب مع صوت صرير خيف، هممت بالخروج وقبل أن أضع رجلي على العتبة الفاصلة بين الظلمة و النور، عدتُ إلى الغرفة وحاولتُ التنكر في ملابس رجالية حتى لا يلمحني أحد من القتلة أو كلاب النظام التي تتسكع في شوارع المدينة.

لمْ أعلقْ على كلامها، وفهمتُ أنها في حالة سيئة، ومضطربة. وعلى الرغم من تماسكي الخارجي إلاَّ أنَّ التوتر بدأ ينهشني قليلاً، وفكرتُ أن أنهي الحديث معها وأنصرف، وأعود إلى البيت وأجهز حقيبتي وأغادر باريس في أسرع وقت، لكن شيئاً ما أبقاني في مكاني لا أتحرك، خاصة عندما وضعت يدها على يدي في تلك اللحظة، ثم قالت:

- خرجتُ إلى الشارع، كانتْ الشمس حارة والجو ساخن جداً، والغبار يعمي البصر. وكانتْ المدينة تسير بخطى حثيثة نحو شيء مخيف، وكنت أسير بخطوات من يتعلم المشي لأول مرة. البؤساء أبناء الوطن ينامون على الأرصفة هؤلاء الناس الذين كنتُ أنظر إليهم بابتسامة ولا يردون عليها إلا بتكشيرة. ها هم الآن غير قادرين حتى النظر في وجهي أو في وجوه بعضهم البعض. كانتْ خطوتي تزداد اتساعاً كلما مشيتُ إلى الأمام. كنتُ التفتُ خلفي بفزع كلما سمعتُ شخصاً ينادي من بعيد، لمْ أكن أدري المسافة التي قطعتها منذ خرجتُ من تلك الشقة، وعندما وصلتُ إلى البناية التي كنا نقطنها بدأتُ أصعد بسرعة على السلالم المؤدية إلى السطح.

مالت برأسها على صدري وواصلت :

- باب الغرفة كان ما يزال مغلقاً كما تركناها آخر مرة، كسرته بأنبوب من الحديد كان موجوداً في المكانن دخلتُ بسرعة وتوجهتُ إلى رف الكتب، مددتُ بصري نحو الكتاب الذي أشرت إليه في تلك الرسالة التي بعثتَها لي مع الضابط. فتحته كان بداخله بعض المال ورقم هاتف وعنوان رفيقنا بلقاسم. فكرتُ في مغادرة المكان لكن الحذاء الذي كنتُ ألبسه لمْ يكن مريحاً في المشي. انزلقتْ عيناي نحو حذائك الرياضي الخفيف، لبسته وشددت خيطوه بقوة، ثم غادرت البناية من دون أن يلمحني أحد من السكان، شعرتُ بسعادة عالية وأنا أتنفس هواء الشارع الذي رماني بسرعة وسط محطة الحافلات ركبتُ الحافلة المتوجهة إلى مدينة وجدة. أخذتُ تذكرة وجلستُ في

أخر مقعد. تظاهرتُ بالنوم حتى أتفادى الاحتكاك بأي شخص قد يعرفني. كان على أن أظل حذرة طول مسافة السفر.

احتضنتها، وأحسستُ بسريان رعشة مثيرة في روحي، لم أحاول تفسيرها، كانت هكذا جميلة في حد ذاتها دون تفسير، ولو قدر لي شرحها لأخفقتُ دون شك، وتوقفت هي عن الحكي فجاة، وبدأت دموعها تنحدر من مقلتيها بشكل عفوي ومؤلم، شعرتُ أنها صارت شفافة، ووجدتُ من جهتي صعوبة بعد هذا الكلام الطويل الذي سمعته منها النطق بكلمة صغيرة واحدة، وتساءلتُ مع نفسي ماذا تريد مني الآن؟ وماذا أريد منها أنا؟ بقيت أفكر في جملتها تلك " حاولتُ أن أنتحر أكثر من مرة " لقد فكرت أنا أيضا في أمر كهذا من قبل، وآمنت به مرات، لكن لمْ أكن أملك القدرة على فعله.

قالت وهي تبعد يدها عن يدي :

- في مدينة وجدة أحسستُ ببعض الاطمئنان فلمْ يكن يعرفني أحد. وضعتُ الورقة التي تحمل عنوان بلقاسم في راحة يدي، وبدأتُ أسأل كل من أصادف في طريقي، حتى وصلتُ إلى بيته، كان ساعتها الظلام قد غطى سماء المدينة، استقبلني هو وزوجته، أخبرته بما وقع بالتفصيل الممل، وأخبرته بقصة الحمل.

كان ذاهباً من بالي، في تلك اللحظات، أنني أمام نجمة، وأجلس على حافة المكتب، أغمضتُ عيني منتظراً منها بكل حواسي ما يمكن أن يُهدئ خاطري المضطرب، لكنها ما لبثتْ أن انزلقت برأسها إلى

صدري، برفق وعطف ظاهرين، أبعدتُ رأسي قليلاً، فما كانت أصابعي تتحسسُ ملامح وجهها، رفعتْ بصرها صوبي كأنها كانت تبحثُ فيّ، عن أثر حبيبها القديم، التفتُ إليها بوجه مستغرقٍ في التفكير، قالتْ وقد اكتست عيناها من جديد بالقلق المباغت، والتصقت بي حتى خيل لي أنها قد تحضن براحتيها أصابع يدي في أي لحظة :

- طوال الأيام التي تلت، كنتُ أظل في البيت ولا أخرجُ منه. كنتُ أشغل نفسي بالرسم والطبخ والكنس، حتى وصل موعد الولادة. أه كم كانت تلك فترة قاسية علي يا مهدي. وكم بكيتُ فيها.

ثم استرسلتْ وهي تمسح دموعها :

- أنجبتُ طفلة واخترت لها اِسم نضال، سجلها بلقاسم على اِسمه في الحالة المدنية.

حينما نطقت ذلك الاسم، أحسستُ بقلبي يكاد يخرج من موضعه، وشيء مني كان بصدد الانفجار، شعرتُ بالكلمات تقف في حلقي، صرتُ معطوباً حتى الأعماق، ومن حيث لا أدري نزلتْ دمعة ساخنة على خدي، لمْ أقل شيئاً بقيتُ صامتاً للحظة، وضعتُ رأسي بين يدي، وأخفيتُ الدموع التي كانت تتساقط من عيني بغزارة المطر. بكيتُ بحرقة، وتمنيتُ حينها لو أنني لمْ أسمع كل هذه الاسرار دفعة واحدة، تمنيتُ لو أنني مت قبل أن ألتقي بنجمة التي صارت الآن السيدة ماريا بولمان.

-نضال ..

خرج الاسم من فمي ثقيلاً وغير مفهوم. نظرتْ إلي بتمعن، سرحتْ في الدمعة الملتصقة برموشي ثم قالت :

- نعم نضال، هي إبنتي التي حرمتني منها الحياة.

- كيف وصلتِ إلى هنا، إلى باريس.

ردتْ بعد أن أعطتني منديلاً ورقياً كي أجفف دمعي الذي كان يرفض التوقف :

-بعد أنْ صار عمر نضال سنة ونصف، فكرتْ في الهجرة لأنني لمْ أكن مرتاحة للوضع الذي أعيشه، كنتُ أرغب في أن أعيش حياة عادية دون خوف، دون رهبة، دون وجع. كنتُ أشتهي الخروج إلى الشارع دون أن التفت خلفي كالمجرمين.

صمتت لبرهة، ثم تابعتْ قائلة :

- ساعدني بلقاسم في السفر إلى وهران، تركتُ نضال معه، رغم أنني لمْ أكن أرغب في تركها خلفي، إلا أنّي كنتُ مرغمة على ذلك، كان من الصعب جداً أنْ أصطحبها معي إلى المجهول. على الأقل مع بلقاسم وزوجته كانت ستكون بخير. لمْ يكن لدي حيل أخرى غير السفر ومحاولة بناء حياة جديدة خارج الجحيم الذي كنتُ أحترق فيه يوماً بعد آخر، الجحيم الذي سجنتني فيه تلك الحماقات التي اقترفنا معاً.

كانت عينا نجمة ما تزالان تنظران في عيني، قلتُ بصوت مضطرب خفيض :

- لا أدري لماذا، ولكنْ ما فعلتِه بنضال كان قاسياً يا نجمة.

هَمَسَتْ، كأنما لنفْسِهَا :

-أعلمُ، لكنْ الحياة كانت قاسية علينا جميعاً. لم أنْسَ نضال، كنتُ دوماً أتقصى أخبارها عبر الرسائل، ومن حين لآخر كان بلقاسم يرسل لي صورها وهي صغيرة.

تحشرج صوتي وأنا أقول :

- متى أخر مرة رأيت فيها صور نضال؟

زفرتْ بضيق مباغتِ، لمْ تعرف كيف تخفيه عني، ثم قالتْ :

- منذ دخلتْ عامها السابع. لمْ أعد أتواصل مع بلقاسم، ومن يومها لمْ أعد أعرف عنها شيئاً.

قلتُ بهدوء وجدّية وأنا أنظر إليها :

- ألمْ أَقُل إنكِ كنتِ قاسية أكثر من الحياة، على طفلة لا ذنب لها في ما حصل.

قالتْ وهي ترفعُ يديها في الهواء مستسلمة ومبتسمة :

- أنا متأكدة من شيء واحد هو أني لمْ أظلمها، كان من السهل علي أن أضعها على عتبة دار للأيتام، وأتخلصُ منها بشكل نهائي، لكن لمْ أود لها أن تعيش الألم الذي عشته قبلها في دار الأيتام، والذي عشته أنتَ أيضاً، هل نسيت؟

-لا لم أنْسَ .. لكن لمْ تخبريني بعد كيف وصلتِ إلى باريس؟

ساد الصمت لبرهة من الزمن، ولم يكن يعكره سوى صوت القداحة التي أشعلت بها سيجارتي دون أن تكون لي الرغبة في تدخينها، بعد أن إنسحبتْ نجمة من أحضاني ووقفت بعيداً، نهضتُ من مكاني، ومططْتُ عضلاتي وعدتُ للنظر عبر النافدة إلى الخارج، كان المطر قد توقف عن التساقط، ولكن السماء كانت ما تزال رصاصية داكنة والجو مكفهر وينذر بمزيد من المطر، هل ما زلتُ أحب نجمة؟ كثيراً ما سألت نفسي هذا السؤال في الشهور الماضية، سحقتُ عقب سيجارة في المنفضة الزجاج، وأنا أقول بصوت عال يكاد يكون صراخاً،

- كيف وقع كل هذا؟

رفعت حاجبها الأيمن قليلاً بتساؤل ولم تتكلم، نظرتْ في عيني، بدت مرتبكة وهي واقفة بهدوء قرب الباب شابكة يديها بأصابعهما الطويلة والنحيلة، تابعتُ أنا بصوت حاولتُ جعله هادئاً قدر المستطاع :

- كيف؟

لم تنطق بحرف وعاد حاجبها إلى مكانه، ولكن التساؤل بقيِ في عينيها الواسعتين، خيل لي وأنا أنظر في عينيها أن لونهما الأسود أصبح داكناً أكثر، لحظة صمت كانت ثقيلة ومتطاولة. قالت أخيراً :

- في وهران، كنتُ أعمل في إحدى دور النشر الفرنسية، وهناك تعرفتُ على بيير بولمان الذي أحبني حباً جنونياً، ثم تزوجني في ما بعد، وهبني اسمه وانتشلني من الضياع، وجاء بي إلى فرنسا. بيير صنع مني فنانة تشكيلية تتسابق عليها المعارض والمتاحف في أوربا وأمريكا، وقبل ذلك صنع مني امرأة حرة قوية وتعرفُ ما تريد، صنع منى لأنثى التي فشلتَ أنتَ في صنعها. لو لم يدخل بيير في حياتي لكنتُ الآن نكرة، ولما التقيتُ بكَ اليوم صدفة.

- هل تحبينه؟

- أحببته كما لمْ أحب من قبل.

- وأنا

ردت بنبرة ساخرة :

-أنت، أنت كنت أكبر خطيئة اقترفتها، وأكثر شخص ندمتُ على معرفته وتمنيت لو أن القدر لم يجمعني به. كل ما حصل لي كان بسببك أنت، بسبب عنادك وسذاجتك. أحلامك المجنونة قادتنا إلى الجحيم ورمتنا وسط اسئلة الخوف التي لا حدود لها.

أرد مندهشاً مما سمعت :

- ألهذا الحد يا نجمة ؟

أجابت وهي تضحك بنبرة عالية :

- نجمة .. ماتت منذ زمن بعيد.

لمْ أرد اِكتفيْتُ بالصمت. سمعتُ قهقهاتها التي احدثت في عمقي جرحاً كبيراً، وضحكتُ في الأعماق من نفسي، وفجأة انسحب من صدري ذلك الضيق الذي كان يملأني، شعرتُ بلذة خاصة لمْ أعرف سببها. ربما هي لذة الانتصار على الحنين وعلى الذاكرة وعلى الماضي البعيد الذي عاد محملاً بالخيبة التي كنتُ أتوقع أنني نسيتها.

رحتُ أستعيد ما جرى بيننا في ذلك الزمن الذي تغير وغيرنا. ما عدنا نشبه أنفسنَا. أتساءل كيف انسقنا وراء الوهم والضباب الذي كنا ندرك نهايته، كيف لهذا الجسد الذي ظل لسنوات طويلة وفياً لامرأة تنكرتْ لهُ بعد أن وجدها.

فجأة أدركتُ حجم تفاهتي وعبثيتي. شعرتُ في أعماقي بسذاجة كبيرة كانت تزداد كلما طرحتُ على نجمة أسئلة بدون معنى. هي لمْ تتبدل ما تزال جميلة كما كانت، وكأن الزمن عندها توقف عند العشرين سنة. ملامحها لمْ تهزمها أوجاع الحياة وتقلباتها الكثيرة. شفتاها شهيتان كما كانتا. عيناها لمْ تفقدا ذلك البريق الذي يصل عمق السماء، ولم تفقدا ذلك السواد المغري.

نجمة، المرأة التي كلما حاولتُ الهروب من تفاصيلها، كنتُ أتورط فيها أكثر. ها هي ذي أمامي الآن على مرمى حضن على مرمى قبلة على مرمى صفعة، لكنها تبدو بعيدة أبعد مما كنتُ أتصور. كانت المسافة بيننا تقاس بالسنوات. اغمضُ عيني كي لا أراها، فأجدها تتسربُ إلى اعمق نقطة في داخلي. نجمة التي أحببتُ صارت اليوم السيدة ماريا بولمان، زوجة الناشر الكبير بيير بولمان، وصاحبة اللوحات الأكثر شهرة في أوربا. نجمة كانتْ قضيتي الجميلة التي ظللتُ طول عمري ادافع عنها بجنون.

سكتُ قليلاً ملتقطاً أنفاسي، شعرتُ بأن الزمن قد توقف، وأصبحت نجمة كتمثال من الحجر أمامي، كان صوتها جليدياً وهي تقول " أظن أن المقابلة يجب أن تنتهي هنا لأنه ... " قاطعتها: شكرا على كل شيء. توجهتُ صوبها، سلمتُ عليها. كنتُ بارداً كالثلج، وكانت عيناها جامدتيْن مثبتتيْن في الفراغ. كانتْ تتحاشى النظر في وجهي مباشرة، كانت مجرد كتلة جامدة وميتة. شعرتُ ببرودة تصعد من أسفل قدمي. ألم لمْ أحسه من قبل كان يتكاثر في جسدي، يشبه ضربة سكين على الظهر.

كنتُ أتمنى أن أكتب نهاية جميلة لهذه القصة، لكن ثمة أشياء يصعب على الإنسان تحملها، وأنا لمْ استطع تقبل ما حدث. نجمة لمْ تكن تلك البطلة التي تستحق مني صفحات طويلة من الصبابة والحنين والانتظار. اعاتبُ نفسي لأنني انسقتُ وراء الكتابة، ونسيت أن أضع لها حداً في بداية الفصل الأول. امرأة مثلها لا تليق بها

الصفحات الاخيرة. كان يجب أن أُباغتها بحادثة مفاجئة، كأن يدهسها سائق سيارة ثمل، بينما كانت تهم بقطع الشارع المقابل للكلية، أو يصيبها مرض نادر لا علاج منه، وتموت وحيدة على مقعد في حديقة هجرها العشاق منذ صار الحب جريمة يعاقب عليها النظام ورجال الله، أو كان من المفروض أن لا أجلس بجانبها في أول يوم دراسي بدار الأيتام، ربما كان يجب أن أجلس في مكان آخر.

اِنتهتْ قصتي بنجمة كما لمْ يكن مخططاً لها، اِنتهت عند هذا الحد من العزلة والحسرة. اِنتهى كل شيء وكأنه لم يكن. حملتُ نفسي ورحلتُ بكسور كبيرة وعميقة.

* * *

وجدتُ نفسي في البيت ولا أعرف كيف وصلتُ إليه. كنتُ مستلقياً على السرير ونضال تنام في حضني. لحظتها كنت أشبه إنساناً ميتاً ينتظر من امرأة جميلة أن تهبه معنى آخر للحياة، وتنقده من العبث.

كنتُ محطم القلب، لكنني في الوقت نفسه كنتُ أَشْعُرُ ببعض الامتنان للوجع الذي سببته لي نجمة. نعم الأوجاع الكبيرة اذ لمْ تقتلنا، صنعت منا اشخاصاً اكثر صلابة، وأكثر قدرة على مواجهة الخسارات التي تَجُودُ بها الحياة علينا من حين لآخر.

نجحتْ جهودي في اخفاء حقيقة ما وقع داخل ذلك المكتب على نضال، حين سألتني عن طبيعة الحوار الذي جمعني بماريا بولمان،

أخبرتها أننا تحدثنا عن الفن، وعن القدرة العجيبة التي تمتلكها في المزج بين الرمزية والتجريبية والانطباعية في نفس اللوحة. وتحدثنا أيضاً عن التصنيف الذي يضعها ضمن خانة مجانين المدرسة السريالية، كما تحدثنا عن دور الذاكرة وخبرات الطفولة في تشكيل كيان المبدع.

شعرتُ بنضال ترغب في ممارسة الجنس معي ليس إلا، ولمْ يكن يعنيها بذلك القدر الكبير الحوار الذي حدث، ولا طبيعة الأسئلة التي طرحتها على ماريا بولمان. مررت أناملها على شَفَتَيَّ، عرفتُ قصدها من وراء تلك الحركة التي انتزعتْ مني ابتسامة موافقة. قهقهتْ وكأنها انتصرت علي. كانت الأمطار قد توقفتْ نهائياً وبدأ بعض النور يتسلل من بين كتل السحاب، لكن الهواء المتسرب ظل بارداً وقاسياً.

وضعتْ يدهَا في عمق يدي، وأشبكتْ أصابعها بأصابعي. أغمضتْ عينيها، وبدأت تمرر لسانها على فمي وأنفي وجبيني، ثم قالت وهي غارقة في تقاسيم وجهي: أريد أن اجعل هذا اللقاء شَيْئاً لا ينسى. لنْ تستطيع امرأة أخرى سحب ألق جسدي من عينيك، أنتَ المتعة القاسية التي تمحو كل المخاوِف التي تسكنني، أنتَ البحر الذي لا أخشى موجه، أنتَ البحر الذي لنْ يغدر، ولن يأكل عشاقه.

رأيتها تملأ ذلك الفراغ المروع الذي تركته نجمة في. كانت تسحبُ النور الخجول من السماء وترسم به باستكانة ملامح المرأة التي غادرتني وغدرتني. كان فيه شبه كبير من نجمة، شبه لمْ أنتبه لهُ ولو لمرة واحدة قبل تلك اللحظة. نفس العيون السوداء الواسعة، نفس

الشفاه الكرزية الرقيقة، نفس السحر الآسِر، وربما نفس الرائحة أيضاً.

وضعتْ الغطاء الأسود على عيني، وجرتني وراءها وسط المتاهة. أغلقتْ في وجهي كل السبل، وعادت لي مرة أخرى صورة نجمة من حيث لا أدري، تتدحرج في اعماقي من ركن إلى آخر.

ها هي نضال ...

تتسع عيناها وتَتَهَاوَيَانِ في دوخة اللذة، وهي تتمتم بكلمات غير مفهومة، يعقبها صمت يشبه صمت الرعشة الأخيرة، ثم نامت.

توجهت بعد ذلك إلى المطبخ تناولتُ حبتين من دواء مسكن للألم، ثم عدتُ متمهلاً إلى الفراش ونمتُ.

* * *

سافرتْ نضال في صباح اليوم التالي، أوصلتها إلى المطار، ثم توجهتُ إلى اليفيا التي كانتْ تنتظرني في أحد المقاهي القريبة من كاتدرائية نوتردام، التي توجد في الجانب الشرقي من المدينة على نهر السين بالضبط في إيل دو لا سيت. هذه الكاتدرائية التي تعد من أبرز رموز المذهب الكاثوليكي، وأحد اهم المسارح التي شهدتْ العديد من الأحداث التاريخية. في هذا المكان توج نابوليون بونابرت امبراطوراً قبل قرنين من الزمن، وفي هذا المكان ثم تأبين الرئيسين شارل ديغول،

وفرنسوا ميتران. ورغم قداستها إلا أنها لم تسلم من الضرر، فخلال الثورة الفرنسية، نهبها الثائرون وكسروا التماثيل التي كانت موجودة بها، كما حاول عدد من الراديكاليين المعادين للاهوت اضرام النار فيها.

سيدة باريس ذات العلو الشامخ وذات الأقواس البارزة التي يعود تاريخ هندستها إلى القرن الثاني عشر، وذات النوافذ الطويلة التي تزينها اطارات حجرية منقوشة. وذات الشبابيك الوردية الكبيرة جداً، مِنْ أعظم ما أبدعه الإنسان في فن المعمار.

وبينما كنا نتجول في زوايا المكان، اخبرتني اليفيا بمعلومة جميلة، قالتْ إنَّ رواية أحدب نوتردام كان لها الفضل الكبير في بقاء هذه الكاتدرائية واقفة حتى اليوم، فعندما نشر فيكتور هيجو تلك الرواية كانت الكاتدرائية في أسوأ أحوالها، فقد كانت متهالكة وتؤول للسقوط، وعند نجاح الرواية وانتشارها، تمتْ الموافقة على ترميمها. وقالت أيضاً إنَّ منَ الجوانب المثيرة في تاريخ الكنيسة ما يتعلق بالألغاز والأسرار، وواحد من هذه الألغاز، يقال إنَّ في ورشة البناء كان هناك صانع أقفال يدعى ديسكورنيه، هذا الرجل استطاع صُنْعَ أقفالٍ غريبة وجميلة في ليلة واحدة لكل أبواب الكنيسة، ما أثار الدهشة في نفوس السكان، وفتح موجة من الأقاويل التي تدعي أنه اِستعان بالسحر والشياطين في تنفيذ مهمته، خاصة أنهم عثروا عليه بعد يوم من إنجاز عمله ميتاً في سريره، بعد أن أصابته تشنجات رهيبة، معتقدين أن الشيطان سلبَ روحه مقابل مساعدته في صناعة الأقفال.

ضحكتُ كثيراً مما قالته وقلت بصوت هادئ :

- لا أدري كيف يصدق المرء مثل هذه الأساطير السخيفة

ثم تابعتُ بعد أن أحسستُ أن كلامي لمْ يعجبها :

- ربما يكون قد مات فعلاً لكن بسبب الارهاق الشديد وليس بسبب أن الشيطان سلب روحه بعد أن ساعده في مهمته.

ردتْ وهي تبحث عن مفتاح سيارة داخل حقيبتها :

- القناة تفكر في عمل بحث بخصوص الالغاز التي تحوم حول نوتردام.

اغتنمتُ الفرصة وقالت :

-جيد، أتمنى أن أكون ضمن فريق العمل الذي ستوكل له المهمة.

هتفت وهي تضرب ركبتي براحة يدها :

- لا، أنتَ ستسافر في مهمة عمل إلى رواندا الاثنين المقبل.

ضحكتُ ثم قلت :

- رواندا، مرة واحدة يا سيدتي المديرة.

ردتْ وهي تبادلني نفس الضحكة التي تحولت بسرعة إلى تكشيرة جافة :

- أحمر

- الصِّحَافِيُّ الذي بعثتْهُ الجريدة قبل ثلاثة أشهر أصابه التهاب رئوي حاد، وسيعود إلى باريس نهاية الاسبوع، ويجب أن يحل صحافيٌّ آخر مكانه.

أشعلت سيجارة، اَسندتُ بظهري مرجعاً رأسي إلى الخلف في مقعد السيارة الأمامي، وتساءلتُ في صمت مطبق: كيف تسير الأمور في هذه المدينة الباردة؟ تأملتني هي ببطء وقد اكتسى وجهها بجدية إضافية وبدت متوجسه، ثم اضافت بصوت هادئ وأجشّ:

- كما تعلم هدفنا هو التواجد في المناطق الساخنة، ونقل الأخبار أولا بأول، ومهما كلفنا الأمر. لا تفوت هذه الفرصة يا مهدي. ستكون تجربة مهمة في مسارك، وستشكرني على اختياري لكَ لهذا العمل.

وقبل أن تنهي جملتها، أدارتْ محرك السيارة وظلتْ تتأملني بعينين مفتوحتين، وفم مليء بالدهشة، وبعدها بقليل قالتْ بنفس النبرة الهادئة:

- أدعوكَ لمشاهدة فيلم أمريكي في سينما لو بالزاك. هل سمعت بها من قبل؟

تنحنحتُ وقلتْ:

- لا

ظننتُ أني لمحتُ ظل ابتسامة على وجهها، لكن كنتُ مخطئاً. قالت بصوتها الأجشّ :

-هي من أوائل دور السينما في باريس، وفي فرنسا بأكملها. هذا إنْ لمْ أقُلْ في أوربا.

توجهنا إلى السينما التي لمْ تكن بعيدة عن نوتردام كثيراً. وحين وصلنا بحثت بعيني عن مكان فارغ كي نركن السيارة، لكن كانت كل الأماكن ممتلئة عن آخرها، مما جعلنا نضطر إلى ركنها في الشارع الذي يقع خلف مبنى السينما. ثم عُدْنَا أدرجنا ناحية الباب مشياً على الأقدام، وفي طريق العودة لمحتُ لافتة كبيرة كُتب عليها بخط واضح وعريض "منشورات بيير بولمان". وقفتُ للحظة أتأمل الواجهة الزجاجية التي تعرض مجموعة من والإصدارات التي تنشرها الدار. اجتاحتني رغبة في الدخول إلى ذلك المكان، وإلقاء نظرة على الكتب المعروضة، استدرتُ نحو اليفيا التي كانتْ تقف خلفي مباشرة، ثم همستُ:

- أستأذن منك للحظة، أودُ شراء بعض الروايات بغرض التسلية.

في الحقيقة لمْ يكن هدفي من دخول ذلك المكان هو شراء رواية، بل كنتُ أتمنى فقط أن التقي ببيير بولمان، هذا الرجل الذي سرق مني قلب نجمة، وحولها في غفلة مني إلى امرأة ناجحة وواثقة من نفسها كل تلك الثقة. كنتُ أتمنى أن أرى ملامح وجهه وَمشيته وأسمع

نبرة صوته لا أكثر. لستُ أدري لماذا لا أزال مستمراً في الغرق بقصة كان من الضروري أن أتجاوزها كي أكف عن الانتظار. أدركُ هذا الغرق، وأدرك خطورته، أحدق فيه بصمتٍ فتتفاقم كراهيتي لنفسى كلما واصلتُ الانتظار وواصلتُ الغرق.

دلفتُ إلى الداخل بسرعة، وأول شيء صادفني بعد أن اجتزتُ عتبة الباب، هي تلك الخزانة الخشبية التي كانت تصطف عليها أحدث اصدارات الدار. رميتُ عيني بين الرفوف عبثاً وكأنني فعلاً أَبْحَثُ عن رواية ما، ومن دون سابق انذار كان صوت غليظ يندفع عالياً من حنجرة أحدهم، بعد أن انتبه لوجودي، ناداني وسألني:

- كيف أساعدكَ سيدي؟

فقلتُ دون تفكير مسبق :

- أنا كاتب، وأرغب في نشر رواية، وجئت إلى هُنا لرؤية السيد بيير بولمان.

ضحك قائلاً :

- للأسف، السيد بيير بولمان لمْ تعد تربطه أي علاقة بهذه الدار ما عدا الإسم المكتوب على اللافتة المعلقة في الخارج.

غاب صوته لجزء بسيط من الزمن، ابتلع ريقه وأضاف ضاحكاً:

- أقدمُ لكَ نفسي، أدعى جوناتن ميرن، ناشر ومترجم.

ضحكتُ معه محاولاً مداراة خجلي، ثم استرسل ذهني بانفعال في استحضار كذبة أخرى يمكنها أن تخرجني من هذا الموقف المحرج الذي وضعتُ نفسي فيه.

مد يده لمصافحتي، سحبتُ يدي من جيب معطفي، صافحته مرتبكاً، فضغط بأصابعه الخشنة على كفي، ثم دعاني إلى مكتبه كي نتحدث في التفاصيل. افزعتني دعوته وخشيتُ أنْ يكتشف كذبتي السخيفة، فاعتذرتُ منه بذريعة أن وقتي لا يسمح اليوم وسأعود إليه في الغد. أشحتُ بنظري عنه، وبقيتُ أشعرُ بعينيه مستمرتيْن في قراءة لغة جسدي الذي نَفَثَ مزيداً من العرق والحرارة والارتباك.

اِتجهتُ إلى الباب بخطوات متسارعة وأفكار متصارعة، لحق بي، وخيل لي أنه يمشي خلفي ويضحكُ بسخرية بعد أن اكتشف حقيقة ما اِدَّعيْتُ، وأنني مجرد كاذب بليد لمْ يعرف كيف يرسم كذبته. اِستدرتُ وسألته محاولاً اخفاء توتري :

- هل يناسبك أن نلتقي عند الخامسة مساء؟

-طبعاً يا ...

ثم اضاف وهو يسرحُ بنظراته في ملامح وجهي المتشنج :

- لمْ تعرفني بِاِسمك بعد

قلتُ بعد لحظات من الصمت والتفكير، وكأنني لمْ أفهم سؤاله:

- اسمي، مهدي المباركي

هز رأسه بامتنان قائلاً بصوتٍ عالٍ:

-تشرفت بمعرفتكَ سيدي.

لمْ استطع أنْ أفكر أو أرد، ولمْ تسعفني حالة القلق التي كانت تتملكني حينها. نفث جسمي مزيداً من العرق، شعرتُ به يسيل على ظهري بارداً، برودة الثلج. فكرتُ في أنه يجب أن أخرج من ذلك المكان قبل أن يتطور النقاش، ويأخذ طريقاً آخر. كنتُ اَسمعُ صوتاً يدوي في أعماقي ويتوسل إلى هذا الرجل "أتركني أذهب ارجوك"، لكنْ تلك الكلمات ظلت محبوسة في داخلي ورفض لساني النطق بِهَا.

بعد ثوانٍ خرجتُ من هناك بصعوبة كبيرة. كانتْ اليفيا تقفُ عند عتبة الباب، تنظر في ساعة معصمها وعلامة الإنزعاج واضحة على ملامحها. تفرستْ للحظات وجهي القلق، ثم أَلقَتْ نظرة عابرة على الرجل الذي كان يقفُ خلفي مباشرة، فقد تبعني دون أن أشعر به، ثم أطفأت سيجارتها في المنفضة المعدنية الصغيرة التي كانت تحمل في يدها، سحقت العقب بقسوة باردة وبطيئة، وعادت تنظر في عيني بشكل مباشر، وقالت:

- هل اشتريت شيئاً؟

هززت رأسي نافياً وهمست بسرعة:

- لا، لمْ تعجبني. العناوين كلها سطحية ومستهلكة ولا تغري بالقراءة.

تنهدت وهي تقول:

- صار اليوم الكل يكتب وينشر، هذا الاستسهال العجيب في عملية الكتابة سيغرق المكتبات بالنصوص الرديئة التي لا تستحق القراءة، وسيخلق جيلاً من الكتاب لا توهمهم الجودة بقدر ما يهمهم الكم والشهرة والتقاط الصور في المعارض والملتقيات، وسيغرق القارئ وسط موجة من الأفكار المريضة والشاذة.

نكستُ رأسي، وسرنا في اتجاه السينما. لكن لمْ تبرح مخيلتي تفاصيل ذلك الموقف المشين الذي رميتُ نفسي فيه، فقط لأن عقلي توقف عن التفكير لحظة واحدة. أحياناً يكون تسرعنا في اتخاذ القرار، هو عيبنا الوحيد الذي تأتي بعده الخسارات تباعاً.

دخلنا إلى قاعة السينما، كان الفيلم في بدايته ولحسن الحظ لمْ يفُتْنَا أي مشهد. كانت القاعة شبه مظلمة، وممتلئة بالناس. جلسنا في المقاعد الأخيرة التي كانت ما تزال فارغة، في تلك الحظة كان على الشاشة الكبيرة مشهد لريشة تدورها الرياح لتحط بهدوء على الأرض فيحملها رجل ويضعها داخل حقيبته بينما كان جالساً على مقعد في محطة الحافلات، ثم جاءت امرأة وجلستْ بجانبه فعرض عليها قطعة شوكولاطة، وراح يحكي لها عن ماضيه وعن قصته الحزينة.

كانت هذه أول مرة أدخل فيها الى قاعة سينما لمشاهدة فيلم. كنتُ مندهشاً من حجم الشاشة، ومن شدة اضوائها التي كانت تخف حينا وتهيج حيناً آخر، وفجأة تسلل همس فاتن إلى أذني :

-لا تشغل نفسك بمراقبة العشاق، ولا تحصي عدد القبل المسروقة في الظلام، استمتع بالفيلم.

اطلقتْ كلماتها في أذني، ثم أزاحت خصلة من الشعر كانت قد سقطتْ على عينيها حين كانت منحنية على كتفي. عادت لمشاهدة أحداث الفيلم إلا أنها كانت ترمقني من حين لأخر بنظرة حائرة لمْ أقدر على تفسيرها.

مدتْ يدها، ومسكت بأصابعي وبصرها مشدود إلى الشاشة، لمْ تنظر إلي أبداً، أناملها فقط هي التي كانت تعبث بحواسي كلها وترفع حرارة جسدي درجة درجة. لحظتها اشتعلتْ في ذهني صور جنسية كثيرة، كنت قد رسمْتُها في خيالي منذ أول مرة رأيت فيها اليفيا، وغرقتُ بعدها في الصمت والخيال والتشهي. استحضرتُ شكل نهديها وبياض بشرتها ونعومتها.

سحبتُ يدي المرتجفة من تحت يدها، ووضعتها على بطنها، ولا أعرف من أين جئتُ بكل تلك الجرأة. كنتُ أنتظر منها ردة فعل غاضبة على هذا التصرف، لكنها لمْ تُبْدِ أيَّ تمنُّع بل على عكس ما توقعت تماماً. نظرتْ إلي وابتسمتْ وكأنها تقول لي بتلك الابتسامة تقدم اكثر.

مررتُ يدي من خلف أكتافها ببطء حتى صارت في حضني، ثم مددت رؤوس أصابعي إلى صدرها وداعبته من فوق ملابسها، وبعد لحظات قليلة رفعتُ عنها الملابس قليلاً، وانزلقت أصابعي شيئاً فشيئاً حتى أمسكتُ بثديها الصغير وعصرته عصراً. كانت أنفاسها المتقطعة تصطدم ساخنة بعنقي، كانت تئن أنين امرأة ملهوفة محرومة.

وضعتُ يدي اليسرى على سُرَّتِهَا، ورحتُ أوغل أسفلها. فوجئتُ بها تهمس في أذني لاهثة بعد أن فكت حزام سروالها: أدخل أصابعك هنا. دسستُ يدي بين فخذيها، كانت مبتلة بسائل ساخن لزج ومتدفق، وتلهث على كتفي كما لو أنها كانت تجري لمسافة طويلة. تنظر إلي بعينين مفتوحتين متلهفتين وعلى الرغم من ظلمة القاعة كان يخيل لي أنني أرى فيضاً من نيران تشبُ بجسدها الذي كان ملتصقاً بي من جهة اليمين، وفي لحظة طوقتني وشدتني إليها بيدين من حديد كما لو أنها تخافُ أن أتوقف عن اقتحام عمقها. ترتعش على نحْوٍ عفْوِيٍّ، ثم تسقط في نشوة عارمة لمْ تعد تدرك بسببها أين هي، وماذا تفعل، ولا من أكون. عقدتْ سروالها بسرعة وعدلتْ قميصها، ثم في الأخير سحبتْ مشطا صغيراً من الحقيبة صففتْ به شعرها.

اِنحنتْ على كتفي مرة أخرى، وكنتُ أتوقع أنها ستقبلني أو شيء شبيه بهذا، لكنها قالت بنبرة ما تزال مشبعة بالنشوة: أشعر ببعض التعب، أريد ان أذهب إلى البيت لأنام قليلاً.

غادرنا القاعة بخفة على رؤوس أصابعنا، كي لا نفسد على الآخرين متعة الفيلم الذي لم أشاهد منه أنا تحديداً إلاَّ اللقطةَ

الأولى، ولمْ أعرف عنوانه حتى، ولا أي شيء عن تفاصيل القصة التي كانت تبدو مثيرة منذ البداية.

عندما خرجنا من ظلمة القاعة التي مارسنا فيها جنوناً سِرّياً مثل مراهقين. كانت أضواء الشارع قد اشعلت، وكان الظلام قد نزل باكراً على المدينة وبدا الطريق أملس ومشعاً بسبب الأمطار التي تساقطتْ بكثافة من دون أنْ نشعر بِهَا.

اتفقنا على أن توصلني أولاً ثم تذهب بعد ذلك إلى بيتها، لكنْ ونحن في طريق غيرتْ رأيها وقالت، أنها تريد أن تطعمني طبق سمك على الطريقة الفرنسية، وتعرفني على حبيبها ليون. لمْ أود أن اسألها من هو ليون، لا أنكر شعرتُ ببعض الغيرة، لكن أخفيتُ ما احسست به في أعماق صدري. لا أدري لماذا قالتْ ذلك بصوت عالٍ. أكيد كي تضع حداً للجنون الذي اقترفناه سهواً في ذلك المكان الساكن وغير المضاء، وأيضاً كي لا أتمادى أكثر في التقرب منها، وكسر الحواجز التي هدمتها شهوتنا بضربة واحدة، وفي مكان عام على مَرْأى ومسمع من الجميع.

في لحظة من اللحظات شعرتُ برغبة كبيرةٍ في طرْح ذلك السؤال الذي كان عالقاً بحلقي. كيف سمحتْ لها نفسها أن تتحسس جسد رجل جائع لأي امرأة كانت، وهي على علاقة مع ليون؟ وكيف تماهتُ مع اندفاعه بتلك الطريقة المخيفة؟ لكنْ اخترتُ الصمت بعد أن اكتشفتُ أن مَا وقَع بيننا لا ينفك يكون مجرد شهوة عابرة يجب علي لزاماً أن أنساها وكأنها لمْ تحدث.

طوال مسافة الطريق وخوف ما كان يبعثرني، لا يشبه أي خوف اعتراني من قبل، خوف له طقوسه الخاصة التي توسع من ثقوب الذاكرة، وتجعل من ملامستها أمراً بالغ الصعوبة مثل المرايا المكسورة التي كلما حاولنا جمع شظاياها، جرحتنا في العمق ومزقت عروقنا.

تحول ذلك الظلام الذي نزل على باريس مبكراً إلى غشاوة تثقل الروح وتنهكها. كيف تحول الليل إلى شيء مخيف هكذا. كنتُ أجلس بجانب اليفيا في المقعد الأمامي للسيارة، غارقاً في الصمت الذي أمتد بيننا، صمت ثقيل أثقل من الظلمة والضباب الذي كان يحيط بنا من كل الجوانب.

أرى وجهها في ضوء مصابيح الشارع الطويل الذي يقسم باريس نصفين، يومض ثم ينطفئ. كانتْ تبتسم بحبور، أرى عينيها الصافيتين تبحثان عن شيء غامض من وراء زجاج السيارة، ثم تغمض عينيها وتبتسم في سرها وكأنها تذكرتْ شيئاً له صَدَى مفْرح في أعماقها. فكرتُ في أن أختطفها من ذاكرتها، واحكي لها قصة ماريا بولمان التي كان اِسمها ذات يوم نجمة، أو أحكي لها عن قصتي مع الخوف الذي لا معنى سوى أنني ضخمته أكثر مما ينبغي، لكن عقلي كان مثل صندوق حديدي مغلق لا يمكن فتحه، وإن حاولت فتحه سينفجر في وجهي كَلُغْمٍ.

كيف تجرأتُ؟ يندفع هذا السؤال في ذهني بصوتٍ خافتٍ. لماذا انصعت لتلك الشهوة العمياء الطاغية؟ وكيف خنْتُ نضال في أول فرصة اتيحت لي؟

نعم .. لا أشعرُ بالذنب بسبب أنني خذلتُ نضال ولأنني لمْ أكن وفياً للوعد الذي قطعته على نفسي في تلك اللحظة التي ضممتها إلى صدري في بوابة المطار، بل لأنني كنتُ مجرد ذكر في نظر اليفيا التي كانت تعرفني اكثر من نفسي، كانت تعرف بأنني لنْ أقاوم لمستها وأنفاسها وهمستها، ككل الرجال الذين صادفتْ في حياتهَا، ووشت نظراتهم إليها باِشتهاء مضمر. هي التي تحرشتْ بي وأنا الذي أذْعْنْتُ لتحرشها، واستجبتُ لَهَا دون تردد أو تمنع أو تأخير.

كنتُ أُقاوِمُ رغبة عنيفة في البكاء. خرج صوتي محشرجاً سائلاً إياها: هل ما يزال البيت بعيداً؟ ردتْ وهي تشير بيدها اليمنى: في الطابق الثالث من تلك البناية. انتابتني حينها نوبة كراهية مفاجئة لها، وتمنيتُ لو أنني أختفي من الوجود مثلما تختفي الشمس خلف الغيوم الكثيفة. وربما كرهتُ نفسي أيضاً في تلك اللحظة الملتبسة. بدا لي أنني في صدد الدخول في مغامرة جنسية مخيفة، ومما لاشك فيه أن عواقبها ستكون وخيمة.

جل ما كنتُ أريده هو أن أنزل من السيارة وأتنفس هواء الشارع، وتهبني اليفيا وقتاً أختلي فيه مع نفسي قليلاً، وأعيد ترتيب أفكاري التي صارتْ متضاربة داخل جمجمتي. كنتُ أشعر أنني مرمي في لجة اليأس. استسلمتُ إلى الثقل الذي حَطَّ في عينيّ فجأة، فأغمضتهُمَا وغصت في الظلام كما لو أنني في عز النوم، وما لبثت أن امتدت يدها وهزتْ كتفي، هزتها طويلاً ثم قالتْ بصوتٍ منخفض: أفتح عينيك لقد وصلنا إلى البيت. نزلتُ من السيارة، ثم سحبتُ نفساً

عميقاً مِلْءَ صَدْرِي. الهواء البارد سرعان ما راح يختفي شيئاً فشيئاً ولمْ يبق في داخلي سوى تلك الأفكار التي كانتْ تخنقني وتضغط بقوة على صَدْري حتى كادت تسحقه. ما الذي حدث لي؟

لمْ يكن يلوح في خيالي سوى وجه نضال باهت الملامح. وكلما لاح لي شعرتُ بألم لا يطاق ألم يتمددُ في جسدي كله، ثم يعود ويتجمع في رأسي ككرة ثقيلة وملتهبة. كنتُ اشعر برعب وتأنيب ضمير لمْ أجسر على التخلص منهما. رددتْ في نفسي: نضال لا تحبني وكل ما جمع بيننا هي تلك اللحظات السريعة على الفراش وما فعلته لا يعتبر خيانة على الاطلاق، الذي حدث بيني وبين نضال هو نفسه الذي حدث بيني وبين اليفيا، وسيحدث مع نساء أخريات.

قلتُ هذا الكلام كي يهدَأَ قلبي وأتحاشى السقوط على مرمى أنفاس اليفيا، التي كانت تسترق النظر إلي من المطبخ بجوع امرأة محمومة.

مشتْ نحوى بخطواتها البطيئة ذاتها، تقدمتْ خطوة خطوة، وكلما تقدمتْ أكثر، تطير من رأسي ذلك الشعور الذي كان يكبل رغباتي، مع كل خطوة تخطوها، كنتُ أحدق فيها بصمت، ولكن ثمة صوت كان يصدح في رأسي قائلا: قمة الغباء أن تترك هذه الفرصة تضيع من بين يديك. اليفيا امرأة شهية، ضاجعها بما أنك اشتهيتها من قبل، هذه هي المناسبة لكي تحقق رغبتك المكبوتة.

أَذغنتُ مرة اخرى لها، راحت تتشممني وتقبلني بنهم. كانت تؤلمني أنفاسها، تجرحني شفاهها الحادة كالسكين، باتت عيناها تشعان بريقاً متوهجاً. وقفت وحملتها بين ذراعي، ثم وضعتها على سطح مكتبها. كانتْ عارية تماماً، جامحة كفرس. وعرفتُ حينها أن خلاصي منها لنْ يكون سهلاً كما توقعت.

ضاجعتها كما كنتُ أشتهي وأكثر. جربتُ معها بعضاً من خيالاتي الجنسية. لمْ تُمانع في أن أقذف في فمها مائي الساخن، بل أنها ترجتني أن أقذف فيه للمرة الثانية والثالثة.

بعد أن انتهينا، دخلت إلى السرير الدافئ عارياً، فأنا لمْ أجرب يوماً النوم دون ثياب، ولكن في ذلك المساء أحببتُ أن أكتسب عادة جديدة. كما كانت تقول نضال دوماً: " على الانسان أن يجرب فعل أشياء جديدة كي لا يقتله الملل ".

سألتني اليفيا بينما كانت تصففُ شعرها أمام مرآة صغيرة :

- أخبرني عن خيالاتِكَ الجنسية

ضحكتُ من سؤالها، وجدته غريباً شيئاً، ما ومثقلاً بالنشوة. استنتجتُ من سؤالها شيئاً واحداً، هو أنها استمتعتْ بما وقع بيننا على سطح المكتب. ربما لمْ تجرب من قبل حلاوة المضاجعة بتلك الطريقة.

وها هي الآن تفتح أمامي باب الابداع. أجبتُ محاولاً الهرب من فخها ومن التورط فيها اكثر:

- للأَسَف لمْ أفكر في الموضوع من قبل.

- كارثة إن أنكَ لمْ تفكر في هذا الموضوع بالضبط

- لماذا؟

استدارت برأسها نحوي وأطلقت زفرة حارة ثم قالت :

-أنتَ تكذب ... لا يوجد إنسان على وجه هذه الأرض ليس له تخيلات جنسية. قل أنك تَسْتَحْيِي من البوح بها لا أكثر. وفي هذه الحالة فقط سأحترم صمتك يا لئيم.

تحسستْ ملامح وجهها، ثم أكملتْ كلامها :

- سأخبرك عن التخيلات الجنسية الاكثر شيوعاً عند النساء، لكن قبل ذلك عدني بأنك ستبوح لي بإسرار خيالك وأحلامك الجنسية.

لمْ أجبها، فرسمت على وجهها ابتسامة ماكرة، ثم قالت في سخرية مريرة :

- سأعتبر صمتكَ موافقة إذن

واسترسلت في الكلام دون توقف :

أحمر -

- من وقت إلى آخر تراود المرأة بعض التخيلات الجنسية، والتي غالباً ما تكون من وحي الخيال نتيجة رغبة لمْ تحصل عليها، أو من خلال أفكار وتطلعات تخشى التعبير عنها وافصاحها للعلن. مثل ما يحصل معك أنت بالضبط الآن. وأول هذه التخيلات هو الجنس الجماعي حيث إنَّ المرأةَ تستطيع أن تتعرى أمام مجموعة من الاشخاص وتمارس معهم الجنس دون قيود، وأحياناً المرأة تذهب بعيدا وتتخيل نفسها تمارس الجنس مع أحد المشاهير.

قاطعها رنين الهاتف، لكنها لمْ ترد، اغلقتْ الخط، وواصلت بشيء من الحماس المتزايد:

- تقول احصائيات نشرتها جامعة أمريكية أن 95 من أصل كل مئة أبلغوا عن وجود خيالات جنسية لديهم، ويستحيل ان تكون أنت من ضمن الخمسة بالمائة المتبقية. وتقول نفس الدراسة إنَّ الرجال يستجيبون للأفكار الجنسية ويتقبلونها بشكل أكبر من النساء.

لمْ أكن بحاجة إلى مزيد من المعلومات حتى أفهم قصدها ومغزى كلامها. قاطعتها ضاحكاً: أخبريني عن تخيلاتكِ أنتِ. حدجتني بنظرة ممتنة، وقالتْ بحماس أكثر من الأول:

- دوماً أتخيل نفسي بين رجلين على سرير واحد، عارية تماماً أحدهما يمص حلمة صدري، ويعضها ويداعبها بلسانه، والآخر يمص أصابع قدمي واحداً واحداً، ثم يصعد ببطء ليتذوق باقي جسدي .

وأحياناً أتخيل نفسي مع امرأة مثلي نتبادل القبل الساخنة ونساعد بعضا على الاستمناء.

لمْ أكن في موقع يسمح لي بقول كلمة واحدة واكتفيتُ بابتسامة باهتة، تحولت بعد ذلك إلى ملامح سخط وانزعاج، لمْ تلاحظ هي كل ذلك، فقد كانت منشغلة بترتيب خزانة ثيابها، وآخر شيء أذكر أنني سمعتها تقوله قبل أن يغيبني النعاس الذي كان قد أثقل جفوني، هو أنها ستعزم صديقتها صوفي إلى العشاء غداً، ويجب أن أكون حاضراً لأتعرف عليها عن قرب. هي لمْ تَحْكِ لي عن صوفي أي شيء، كل ما أضافته هو أنه من الممكن جداً أن نصير أصدقاء أنا وصوفي، لأنها خفيفة الظل وتحب المزاح كثيراً على حد تعبيرها.

وفجأة وفي تلك اللحظة التي تفصل بين النوم واليقظة تذكرتُ اِسم ليون، مر بذهني كومضة ضوء. صمتت للحظات، ثم حسمتُ أمري وسألتها :

- لماذا لمْ يأْتِ ليون هذا المساء؟

خيل لي أنها لم تسمع ما قلت، اتسعت عيناها في تعبير واضح عن الاستغراب ثم وضعتْ كأس الماء الذي كان بين يديها على المنضدة الخشبية الموجودة بجوار السرير، وأطلقتْ ضحكة قصيرة، قالت بعدها بتهكم مستتر :

- لحظة واحدة، سأحضر ليون ليتعرف عليك.

خرجتْ مسرعة من غرفة النوم، ومشت صوب غرفة المكتب، لمحتها من مكاني تفتح الباب. صدمتُ حينها من السؤال الذي خطر ببالي لحظتها. كيف يمكن أن يوجد هذا الشخص معنا في نفس البيت ولمْ أشعر بوجوده طول هذه المدة. ولكن سرعان ما استبعدت هذا الاحتمال قائلاً في قرارة نفسي: ربما ستتصل به على الهاتف واختارت غرفة المكتب كي لا أسمع الحديث الذي سيدور بينهما، أو ربما شيء أخر غير كل هذه الأشياء التى أفكر بها.

ألجمتني كثرة التخمينات، وأثقلت رأسي وتناسيت هذه الأفكار لأنني لمْ أكن مقتنعاً في قرارة نفسي بكلامها، لأنها ببساطة لنْ تستطيع دعوة حبيبها ليون إلى البيت وأنا ممدد على فراشها عاري الجسد. ربما قالت ذلك فقط نكاية بي لا أكثر، وبقيتُ انتظر عودتها.

جاءتْ وهي تحمل بين ذراعيها حوض سمك صغير، وبداخله سمكة جورامي ذهبية اللون بزعنفة ظهر طويلة تسبح برشاقة. ثم رفعتْ حاجبها الأيسر قبل أن تقول :

- أقدم لك حبيبي ليون المسالم واللطيف.

ثم واصلتْ وهي تتقدم ناحية المنضدة :

- ازح الكأس قليلاً من فضلك، هذا الحوض ثقيل جداً.

أدرتُ بصري في المكان، وحمرت أذناي خجلاً. مددتُ أصابعي ولمستُ الزجاج الشفاف، وداعبتُ ليون من خلف الزجاج الفاصل،

ثم أطلقتُ ضحكة مدوية وصل صداها إلى كل زوايا البيت، وسألتها مستغربا:

- كيف عرفت أن هذه السمكة ذكر وليس أنثى؟

أجابت وهي تشير بأصبعها إلى السمكة التي كانت تنزلق بسلاسة من ركن لأخر:

- الزعانف الطويلة هي ما يميز الذكور عن الاناث.

التقطتُ نفساً عميقاً، وأطلقتُ زفرة ارتياح بعد أن عرفتُ أن ليون مجرد سمكة ذهبية اللون تسبح في حوض زجاجي صغير بشكل روتيني ممل وبسلام أيضاً. أيعقل أن أخبر اليفيا بأنني كنتُ أتوقع أن ليون السمكة، هو عشيقها الذي أشعل غيرتي منذ أن سمعتُ اِسمه يوم أمس؟ وجعلني أطرح على نفسي أكثر من سؤال، وأنسج في خيالي أكثر من سيناريو.

تلفتتْ اليفيا نحوى، وكأنها سمعتْ ما كنتُ أحكي في سري. تأملتني بنظرة من يود أن يبوح بشيء على طرف لسانه، فهمتُ ذلك من حركة شفتيها، ثم قالتْ بهمس رقيق جداً:

- منذ رأيتكَ أول مرة وأنا منشغلة بكَ وبماضيكَ الذي ترفض انزاله من على أكتافك، رغم أنه أتعبك جداً، وحول أيامكَ إلى ما يشبه الركض صوب اللاشيء. ملامحكَ المهزومة ومشيتكَ وأثار الندوب

على جسدكَ، وشتْ بكَ وحكت لي قصتك حتى من دون أن أطلب ذلك. أود الآن أن أسألك فقط عن صمتكَ.

قاطعتها قائلاً في حسرة :

- لمْ أعش في هذا العمر الطويل، إلا فصلاً واحداً. كان مليئاً بالصمتِ والخوف والظلمة. فترة السجن علمتني كيف أبتلعُ لساني الذي سبب لي هذا النزف المتواصل، وأسجن أفكاري داخل جمجمتي الصلبة. صرتُ أجد صعوبة كبيرة في الكلام، ككل الذين عرفتهم وتقاسمتُ معهم قساوة الجدران الأربعة في ذلك الركن البارد حيث تفقد الأشياء حلاوتها، وتصبحُ كلها مرة المذاق. تعلمتُ كيف أحني رأسي وأكون مطيعاً. تراكم داخلي نوع من الخوفِ غيرِ المنطقي وغير المبرر. صرتُ أخاف من عبور الشارع، تبدو لي تلك المهمة صعبة بل ومستحيلة، سيارات تجري بأقصى سرعتها، وإشارات مرور، وأضواء في كل الاتجاهات. صرتُ أخاف الوقوف خلف الأبواب المغلقة فهي تذكرني بحارس السجن الذي كان كلما فتحتْ أحلامي باب الزنزانة أغلقه وهو يشتم بأفظع الألفاظ ويهدد باغتصابي.

قاطعتني :

- ولكن ...

تابعتُ وكأنها لم تقاطعني :

- تصوري حتى الماء البارد صار يخيفني، ويعيدني إلى ذلك الدلو الذي استعمله الجلاد في تعذيبي، حينما كان يسكبه على رأسي كلما أغمضتُ جفني، حتى أجن من قلة النوم وشدة التعب. صرتُ أخاف التعرى أمام المرآة كي لا ألمح انعكاس جسدي الذي ما يزال محتفظاً بذكرى موته الأول. أصواتُ المفاتيح والأقفال إذ بمجرد أن أسمعها تنتابني رغبة في الغثيان، أختنق وتكاد أنفاسي تنقطع إذا ما كنتُ في مكان مغلق. صرتُ مسكوناً بالخوف، ومحشوا بالعقد والأمراض النفسية التى لا تعد ولا تحصى. ولو حدث وفتحتُ فمي وتكلمتُ حَتْماً سأتمزق من الداخل، وأتحول إلى شظايا صغيرة حادة الأطراف تجرح كل من يحاول لمسها.

أطبقتْ اليفيا أصابعها على يدي. أصابتني عيناها بالخرس، كانت نظرتها مليئةً بالتعاطف. قالت بصوت مرتعش مبحوح وهي تتحسس موضع إبهامي المبتور:

- في نظري يجب عليك زيارة طبيب نفسي قبل أن يتفاقم الوضع، وتصبح حينها أزمتك أكبر وأكثر تعقيداً. أتوقع أن المشكلة ما تزال في مرحلة البداية ولا تكاد تكون مجرد مخاوف بسيطة يمكن تجاوزها بالجلسات دون الحاجة إلى أدوية. وإذا أحببت الفكرة سأعطيك عنوان طبيبة كانت أزورُها في فترة عانيت فيها من الاكتئاب بعد وفاة أبي. بصراحة تحسنتْ حالتي كثيراً بعد أن لجأت إليها.

ثم أردفتْ وهي تنزلق بجانبي على السرير:

- فكر بالموضوع وأنا رهن إشارتكَ. آه كي لا أنسى موضوع رواندا، اذا كانت حالتكَ النفسية لا تسمح بالسفر إلى تلك البلاد المشتعلة بالحروب الأهلية، ستكلف الادارة شخصاً أخر ليقوم بالمهمة بدلك.

شعور عارم بالارتباك اعتراني، وتصنعتُ بعض اللامبالاة، ثم اشحت بوجهي مجيباً:

- أنا متحمس جداً للسفر إلى رواندا، من يعرف ربما أتخلص من خوفي وسط الدموية والعنف. وقد تنسيني أوجاع الناس أوجاعي ويعاد إلي توازني وسط الفوضى.

لا أعرف لماذا كان جوابي بهذه الصيغة، رغم أنني في الحقيقة لمْ أكن متحمساً بالمرة لهذا التكليف الباكر الذي سيرجعني إلى عمق اِفريقيا، عمق الجوع، والحر، والأوبئة، والحروب الطاحنة. ولمْ يمر على تواجدي في باريس سوى شهر تقريباً، حتى أني لمْ أسترح بعد من حمل الحقائب الثقيلة، وبهذه السرعة سأعود أحملها على كتفي متوجهاً صوب بلاد لا أعرف عنها شيئاً سوى تلك الأخبار القليلة التي تكتب في الجرائد عن الابادة الجماعية التي تشنها قبيلة ضد أخرى.

صمتت للحظات طويلة، وكأنها كانت تفكر في شيء أكثر أهمية من رواندا والإبادة والسفر.

بدا لي أنها لا تعير أي اهتمام لما أقول. كانتْ غارقة في ذاكرتها تحدق في السقف وتبتسم، قبل أن نتنبه لوجدي قربها. انتظرتُ ردها بخصوص إصراري على السفر، لكنها قالت شيئاً بعيداً كل البعد عن

الموضوع الذي كنا نتحدث فيه قبل أن تسرقها الذكريات وتسبح في بحور الماضي :

- أتدري لدي رغبة في أن أحكي لك قصة لمْ يسبق لي أن شاركتها مع أحد، لكنني الآن لمْ أعد قادرة على حمل جفوني أكثر.

ثم حبستْ العبارات في مقلتيها، واستدارت إلى ناحية الأخرى. ساد الصمت للحظات بيني وبينها، قبل أن تعود وتقول بشيء من الاعتزاز :

- كريستوفر يحبني، أخبرني بذلك ذات مرة كما عبر عن رغبته الصادقة في الارتباط بي، رفضته رغم أنني كنتُ معجبة به في فترة سابقة، لا أعرف لماذا رفضته. لمْ تكن لي دوافع مقنعة.

قاطعها مرة اخرى رنين الهاتف، ولمْ ترد هذه المرة أيضاً. كدتُ أهمس في أذنها سائلاً من سيتصل بكِ في هذا الوقت المتأخر من الليل، لكن تراجعتُ في أخر لحظة، لأن الأمر ببساطة لا يعنيني في شيء، ولا أريد أن ابدو أمامها شخصاً فضولياً. استدارتْ ناحية ثم استرسلتْ في الكلام بنبرة يغلب عليها بعض النعاس وبلا مبالاة مصطنعة محاولة إخفاء إنزعاجها من رنين الهاتف :

- هو شخص أناني لا يفكر إلا في نفسه، ولا يختار إلا ما يناسبه. كان من الممكن أن أبادله نفس الشعور لو لا هذه الصفة التي أكره في الرجال. قلتُ له أريد أن احبكَ لكن لا أعرف كيف. دُلَّنِي على طريق يجمع بيننا. ساعدني في البحث عن شيء مشترك بيننا، حتى ولو كان

سخيفاً وغير مهم. بل ذهبتُ إلى أبعد مما كنت أتوقع، حاولتُ أن ادخل عالمه وأقتحم تفاصيله الصغيرة، وليتني ما فعلت. اكتشفتُ حقيقته باكراً جداً. وشيئاً فشيئاً صرتُ أستلذ بتعذيبه وتواطأت مع قلبي ضده. رأيتني آنذاك امرأة قادرة على سحق رجل يحبها. أنانيته المفرطة كانتْ تدفعني بطريقة ما إلى حيث أصبحت. كنتُ فقط أتمنى لو أنني أنسحب دون أن أجرحِ كبرياءَهُ أكثر. لكنْ المرأة القاسية بداخلي كانتْ مستمتعة بما تفعل. وفهمتُ حينها وبصورة نهائية أن هذا الرجل لا يليق بي، ولن أحبه مهما طال انتظاره.

رسمت على شَفَتيْهَا ابتسامةً باردة، ونامت. اشياء كثيرة كانت ما تزال عالقة على طرف لسانِهَا، لكنها فضلتْ تأجيل البوح إلى وقت آخر. استغرقني التفكير في ما قالته وقتاً طويلاً، قبل أن أخلد للنوم عارياً تماماً، وهذا الأمر كان في غاية الأهمية بالنسبة لي، فمنذ عشرين عاماً لم أنَمْ على هذه الوضعية المريحة. أحساس جميل أن ينامْ الانسان عاري الجسد دون خوف من أن يغتصبه أحد في عز الحلم.

* * *

صادفتُ في اليوم التالي، بينما كنت متوجهاً إلى المطعم القريب من مبنى الجريدة لتناول وجبة الغداء، كشكاً صغيراً يبيع الكتب والسجائر والجرائد... الخ. جالتْ عيناي بين الرفوف، واجتاحتني رغبة حقيقة هذه المرة في شراء رواية. وقفتُ اتأمل العناوين بتركيز كبير. ولمْ

أتعرف على أي اسم من تلك الأسماء التي كانت معروضة أمامي وفجأة انتشلني صوت البائع من شرودي قائلاً :

- هل تبحث عن كتاب محدد؟

لم أتردد في الاجابة :

- لا

أجاب وهو يشير بأصابعه إلى أعلى الرف :

- هذه كلها اِصادرات جديدة لكتاب شباب.

وشرعَ يقترحُ علي عناوين كثيرة ومختلفة. لكنْ لمْ تعجبني اقتراحاته، ففضلتُ أن أختار بنفسي حتى لا أتورط في رواية رديئة. وأندم على المبلغ الذي سأدفع مقابلها.

رفعتُ عيني نحوه وقلتُ بنبرة قاطعة لا تحتمل النقاش :

- أريد رواية، كلمات.

لا أدري كيف خطر ببالي أن أعيد قرأت هذه الرواية.

هز رأسه في صمتْ، ثم تطلع إلى أسفل الرف على يمينه، سحب الرواية ومَسَحَ عنها بعض الغبار المتراكم براحة يده، حتى صارت ملامح سارتر نقية وواضحة. أخذتُ منه الكتاب وعلبة سجائر من النوع الرخيص وجريدة. ثم أتممتُ طريقي نحو المطعم.

عند وصولي إلى المطعم كان كريستوفر يجلس في مكانه المعتاد مع بعض زملاء العمل. لوحتُ بيدي وحييتهم، ثم جلستُ في ركن بعيد مشمس قرب النافذة المطلة على الشارع. شردتُ في قراءة النص المكتوب على الغلاف الخلفي للرواية. ثم وضعتها جانباً وانتقلتُ إلى تصفح الجريدة بسرعة في انتظار أن يحضر لي النادل البيتزا التي طلبتها.

* * *

ماريا بولمان .. تصفي حسابها مع الماضي عبر رواية.

كان هذا هو العنوان العريض للمقالة الصحفية المكتوبة على الصفحة الأولى. لمْ يترك لي أي مجال للتفكير، فقد اشتعلتْ بداخلي حرائق كثيرة وأسئلة لا حصر لها. متى كتبت هذه الرواية؟ وعن أي ماض كتبت؟ ولماذا لم تخبرني بأنها نشرتْ رواية؟

كانت المقالة عبارة عن حوار صحفي يضم تسعة أسئلة مع أجوبتها. محررة على الشكل التالي :

السؤال الأول

- كيف استطعتِ الانتقال من التشكيل إلى الكتابة؟

- الرواية فن جماهيري وشعبي، ويصل إلى عدد كبير من الناس، كما أن هذا الزمن هو زمن الرواية. وأيضاً لأن وجعي كان كبيراً ولم تسعفني الألوان لوصفه فلجأتُ إلى الكلمات لعلها تفي بالغرض. وكما أنني لستُ أول شخص يجمع بين الفن التشكيلي والكتابة، سبقني إلى هذا المزج، جبران خليل جبران .. وسليم بركات .. وجبرا ابراهيم جبرا، والعديد من الأدباء العرب وغير العرب. كما أن الرواية بشكل خاص تتسع لحمل هذا التاريخ الطويل بأوجاعه وأحلامه وخيباته، أكثر من الوحة.

السؤال الثاني

-انطلاقاً من العنوان "الجلاد" ما سر هذا العنوان ؟

- كان لي أنا أخرى كاتبة كشفت عن نفسها بعد أن اغتصبها الجلاد، وقررتْ فجأة أن تكتب عنه كي تخبر العالم ماذا فعل بها. ببساطة العنوان عارٍ منَ الأسرار، وسره الأكبر أنه واضح. في هذه الرواية قلتُ الحقيقة المرة والقاسية التي يرفض المجتمع تقبلها، لمْ أمارس أي رقابة على نفسي وكتبتُ بكل حرية.

السؤال الثالث

- أخبرينا عن تفاصيل القصة؟

- كتبتُ هذه الرواية منذ خَمْسَ عَشْرَةَ سنة، لكن بسبب ظروف خاصة لمْ أنشرها. الرواية تصِفُ ما تعرضتُ له من تعذيب واغتصاب خلال فترة الاعتقال التى قضيتها بسجون النظام المغربي سنة 1973. رواية الجلاد، هي محاكاة للواقع المرير الذي عاشه الشعب المغربي من قمع وإهانة واعتقال وقتل واختطاف على يد السلطة الحاكمة التى ما تزال إلى اليوم تمارس بطشها وعدوانها بكل حرية. هذه الحكاية ليستْ حكايتي أنا وحدي، هي حكاية كل شخص عاش تلك الظروف القاسية. أما تفاصيل القصة فهي موجودة بين سطور الكتاب.

السؤال الرابع

-سمعنا أنَّ روايتكِ اليوم ممنوعة من التوزيع داخل المغرب، إلى أي حد سيساهم هذا المنع في نجاح الرواية؟ وكيف ستصل إلى القارئ المغربي، الذي هو المعنى الأول بهذا النص وبهذه الذاكرة؟

- هذا المنع إن دل على شيء فإنه يدل على ضعف النظام وهشاشته، ومن وجهة نظري الخاصة، النظام الذي يخاف من مجرد نص هو نظام فاسد وفاشل، ولا يستحق البقاء في مناصب الحكم والتسيير، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى ما دامت السلطة تمارس رقابة مشددة على المبدع، فهي تعترف بطريقة ما على أنها سلطة

قمعية وخبيثة. وأتوقع أن الرواية ستصل في يوم من الأيام الى القارئ المغربي.

السؤال الخامس

- النظام المغربي اليوم بصدد توقيع عقد صلح بينه وبين معارضيه؟ هل يمكن اعتبار هذا الصلح نوعاً من أنواع رد الاعتبار لضحايا سنوات الرصاص؟

- بصراحة أعتبره صلحاً منْ طرف واحد. الدولة لمْ تعترف إلى الآن بوجود معتقلات سرية، ولا بوجود ضحايا، ولا بوجود التعذيب والاغتصاب والقتل. كان من المفروض أن يتم محاسبة القتلة أولاً، وتنحيتهم عن الكراسي، وإعطاء الشعب حقه في الحياة بكرامة وعدالة. ثم بعد ذلك نفكر بموضوع المصالحة ورد الاعتبار. ومن هنا اوجه رسالة إلى كل شخص سيوقع على تلك الورقة مقابل تعويض مادي أو منصب ثقيل أقول له إنك خائن، خُنْتَ القضية وصرتَ منهم، وستمارس عدوانك المكبوت على الاجيال القادمة. كما فعوا معك تماماً بل وأكثر.

السؤال السادس

- مغرب اليوم، إلى أين يتجه؟

- مغرب اليوم يشبه مغرب الأمس، لا شيء تغير إطلاقاً، نفس الخطاب السياسي، نفس الوجوه السياسية، نفس القمع والتضييق.

النظام ما يزال يسلك نفس المنهجية في التعامل مع المظاهرات والاحتجاجات والأصوات المعارضة. القصر يتحكم في كل شيء، في السياسة، والاقتصاد، والثقافة، والتعليم. نفس السجون التى تَمَّ اعتقالنا فيها ما تزال مفتوحة في وجه كل شخص فكر في الوقوف ضد سياسة الدولة. والتاريخ سيثبت صحة ما أقول.

السؤال السابع

- لمن تهدي هذه الرواية؟ وهل كتبت وجعك فيها؟

- إلى الجلاد الذي أقحمني في كتابة هذه الرواية. أنا مدينة له بالكثير، أولاً لأنه منحني وجعاً عميقاً يستحق الكتابة. ثانياً لأنه كان رحيماً بي ولمْ يقتلني في ذلك اليوم الذي صعق فيه جسدي بالكهرباء، وتبول على وجهي واغتصبني. أهدي هذا النص إليه لأقول له أنظر إلى حجم الدمار الذي خلفته وراءك، وأقول له أيضاً إنني لمْ أنسَ ذاكرة الوجع الذي بيننا. ولم أنْسَ ملامح وجهك ولا نبرة صوتك. أما في ما يخص الشق الثاني من السؤال، أقول لك سيدي: أنا لمْ أكتب الوجع، فقط استعنت به، لأكتب الحياة، وأكتب التاريخ، واصفي حساباتي مع الماضي. وكان يمكن أن لا أكتب لو كان فوق رأسي سقف رقابة سقف خوف.

السؤال الثامن

- هل يوجد نص أخر قيد الكتابة؟

-لا ولكن ثمة شخص آخر سيكتب هذه القصة من وجهة نظره هو. وستكون بمثابة جزء ثانٍ.

السؤال الاخير

-لماذا نكتب ؟

* * *

كانت الجريدة مليئة بالأخبار، ومن خبر إلى آخر كنتُ أتدحرج بين الصفحات، أبحث عن جواب ذلك السؤال لماذا نكتب؟ هل نسى المحرر إضافة الجواب الأخير، أم أنها لمْ تجب على ذلك السؤال من الأصل. كيف يعقل لجريدة أن تأتي بكل هذه الأخبار وتنسى إضافة شيء مهم جداً. من كثرة من قلبت الصفحات حفظت العناوين كلها.

"أري هالبسترام يقوم بقتل 14 طالبا يهوديا في جسر بروكلين في مدينة نيويورك ... "

"استقلال مولدوفا عن الاتحاد السوفيتي، والناخبون المولدوفيون يصوتون ضد اعادة توحيد مولدوفا مع رومنيا ..."

"شركة أبل تطلق للمرة الاولى نظام ماكينتوش"

"القوات الامريكية تنسحب من الصومال ..."

"صحيفة نيتشر البريطانية تنشر خبراً عن العثور على هيكل عظمي لإنسان يعود إلى 2.3 مليون سنة في اثيوبيا ..."

"مقتل رئيس راوند يوفينيل، ورئيس بوروندي على نفس الطائرة بعد اطلاق قذيفة عليها، بالقرب من العاصمة كيغالي"

أغلقتُ الجريدة وغدا للطعام مذاق مر، فتركته ومضيتُ. كانت روحي تتبخر مني شيئاً فشيئاً، ولا أدري بماذا أجيب على ذلك السؤال الذي إنفجر في رأسي كقنبلة. لماذا نكتب؟ سؤال ظل يجول في بالي طول الوقت، من دون أن أجد له جواباً مقنعاً. وشعرتُ أنه بات لزاماً أن أرمي تلك الجريدة في سلة القمامة، وأتخلص من صوت نجمة الذي كان يصدح بداخلي من حين لأخر. بدا الأمر كأن شيئاً ما انكسر تحت ثقل ذلك السؤال. أعرف الآن أن هذا حدث لسبب محدد هو أن نجمة كانت تدرك تماماً أنني سأقرأ تلك المقالة. لذلك تركت ذلك السؤال معلقاً في الفراغ، وربما كنت أنا المقصود بالشخص الذي سيكتب الجزء الثاني من روايتها. لكن لماذا أنا تحديدا؟ لماذا يجب علي من دون كل هؤلاء الذين عرفتهم بعدي أن أكتب قصتها؟ لماذا أعتقد أنها اختارتني دونا عن البشر لأكتب قصتها؟ هل لأنني أعرف نفس التفاصيل ومررت من نفس التجربة، وبيننا نقاط عديدة مشتركة.

أم لأنني طردت من المحبة الأسرية، وكبرت في ميتم مثلها. حتى هذا التفسير غير مقنع بالنسبة لي، فكل شخص في هذا العالم يشعر على الدوام بشيء من اليتم، حتى وإن كبر بين أبويه، يظل الشعور

بالنقص قائماً في داخله. أتوقع أنها لمْ تذكرني في روايتها ولا بحرف واحد. فلماذا تنتظر مني أن أكتب قصتها؟

* * *

جاء المساء بارداً كعادته. وقبل دقائق على نهاية الدوام طلبتني اليفيا إلى مكتبها، ثم شرعتْ تبحثُ عن خريطة ميترو باريس وسط كومة من الأوراق، ولكنها لمْ تجدها رغم بحثها الطويل. فقالت بنبرة غاضبة، وهي ترشدني إلى الطريق الذي سيوصلني إلى بيتها :

- أقرب محطة إلى هذا المبنى، توجد عند اِشارة المرور في أخر الشارع وتسمى لويس بلونش، وعند وصلكَ إلى محطة سالي مورلاند ستجدني أنتظركَ عند الساعة التاسعة مساءً بالضبط. حاول أن لا تتأخر ولا تنسى اِسم المحطة، س ا ل ي م و ر ل ا ن د . اِتفقنا.

لا أعرف لماذا لمْ تصطحبني معها في السيارة هذه المرة؟ جاء هذا السؤال في بالي بعد أن خرجتُ من مكتبها، لكن سرعان ما قلتُ في سري، ربما خوفاً من مراقبة كريستوفر لها. ولكنْ هي لمْ تقُل إنَّهُ يراقبُ حركاتها، أو يتجسس عليها من بعيد. في الأخير احترمتُ رغبتها تلك، فأنا لا أرغب أن أشغل بالي أكثر في معرفة السبب الذي جعلها تتجنب تواجدي برفقتها على نفس السيارة. مهما كان السبب فهو لا يعنيني إطلاقاً، وفي كل الأحوال هي أسدت لي خدمة ومنحتني بعض الوقت وبإمكاني استغلاله في قضاء بعض الأغراض التي لا تحتمل التأخير.

كان ما يزال أمامي ثلاث ساعات على الموعد. وكان لدي الكثير لأقوم به في تلك المدة، في البداية توجهتُ إلى الكشك الذي اشتريتُ منه رواية سارتر وتلك الجريدة الملعونة. بهدف شراء رواية الجلاد لكن لمْ تكن متوفرة، فأرشدني البائع إلى المكتبة التابعة لدار نشر بيير بولمان قال إنَّ المكتبة تتوفر على أخر الاصدارات. وطبعاً لنْ أقصد ذلك المكان مرة اخرى، يكفي أنني خرجتُ منه بصعوبة يوم أمس.

كان هذا الأمر عكس ما كنتُ أشتهي، لدرجة أنني أحسستُ بحزن عميق. لأنه فعلاً كانت لي رغبة حقيقية في العودة إلى ذلك الزمن، الذي صار اليوم بعيداً أكثر من اللازم، والتسلل إلى أعمق نقطة فيه.

كانت الساعات تمر ببطء داخل الحانة الصغيرة المجاورة لمحطة لويس بلونش. عيناي مفتوحتان تحدقان في الفراغ، وعلى الطاولة أمامي كأس ويسكي وعلبة سجائر صارت فارغة بعد أن سحبت منها أخر سيجارة، ورواية سبق وقرأتها في زمنٍ مَاضٍ.

مر على سفر نضال يوم واحد، لكنه مر بتثاقل مميت، يوم حدثت فيه أشياء كثيرة. اكتشفتُ فيه أن كريستوفر يحب اليفيا وربما يراقبها من بعيد كالمجنون، وعرفتُ أن نجمة اصدرت رواية تحكي فيها عن تفاصيل الاعتقال الذي تعرضت له في فترة السبعينات وكنا فيه ضحية النظام نحن الإثنيْن، واكتشفت أيضاً أن ليون مجرد سمكة ذهبية اللون، صغيرة بحجم رأس أصبع. كل هذا ولمْ ينْتَه بعد اليوم الأول على فراق نضال.

لا أذكر تماماً كم كأساً شربت حتى تلك اللحظة، التي هممت فيها بالخروج من الحانة والتوجه إلى محطة الميترو. شعرتُ بحاجة إلى أن أذرف كل الدموع التى تملأ صدري قبل أن أغادر ذلك المكان وأن أفرغ من الداخل دفعة واحدة، إذ من غير المعقول أن أظل مزدحماً على هذه الدرجة من الكثرة

وراح عقلي يومئ لي بأن البقاء لدقيقة أخرى وسط هذا المكان المثخن بالحنين، سيجعل مني أضحوكة أمام الغرباء.

تأبطت رواية سارتر، وغادرت الحانة بخطوات غير متوازنة، ودموع تقف على حافة الرموش. لماذا يشتهي الانسان البكاء أحياناً؟ لا أدري لربما كي يسترجع حقه في البكاء. يقال إنَّ الإنسانَ كلما كبر قليلاً، صادرت منه الحياة هذا الحق، وضخمتْ بعقله الباطني الرغبة في الانعتاق والبكاء والتحرر من قيود المجتمع، فيصير وكأنه يسبح في الفراغ .

في ذلك المساء، وصلتُ إلى بيت اليفيا متعباً من المشي طول اليوم. لمْ تكن هذه المرة الأولى التي أرتدي فيها الحذاء لأكثر من خمسة عشر ساعة متواصلة، لكن هذه المرة أحسستُ أن قدمي اليمنى توجعني بشدة. دلفت إلى الحمام حيث كان يمكنني الاطلاع على قدمي بكل حرية دون أن أضطر إلى اخبار اليفيا بهذه الأوجاع الصغيرة. نزعتُ الحذاء، ثم الجوارب التي كانت ملتصقة بأحد أصابعي بعد أن نزف منه الكثير من الدم. وضعت قدمي في سطل من الماء الساخن ودعكتُ موقع الجرح بإبهامي حتى صار نظيفاً. كان يبغي تطهيره لكن الأمر لمْ

يكن على تلك الدرجة من الخطورة، ثم غسلتُ يدي وعدت لأجلس مسترخياً على الأريكة بالقرب من المدفأة، أدقق النظر إلى الصور المعلقة على الحائط.

تذكرتُ حينها حائط البيت الذي قضيتُ فيه بعض طفولتي. كان مليئاً بالبقع والثقوب الصغيرة. كنتُ أتخيل تلك البقع التي سببتها في الغالب الرطوبة، وجوها عابسة شاحبة الملامح، تشبه إلى حد ما وجوه العجائز، وأحياناً أخرى كنتُ أتخيلها فراشات لها أجنحة كبيرة ملونة، وكنت أمنح لكل واحدة اِسماً يليق بلون جناحيها، لكنْ تلك الوجوه العابسة وتلك الفراشات الملونة اِختفتْ نهائياً، بعد أن قام أبي بطلاء البيت باللون الأزرق السماوي.

يبدو أن اليفيا لاحظتْ شرودي الطويل في تلك الصور المعلقة على الحائط. وقفتْ قربها ثم قالت وهي تشير بأصابعها إلى واحدة بالأبيض والأسود:

- هذه صورة أبي وهو يحملني بين ذراعيه في يوم ولادتي. والتي فوقها تلك هي أمي. أتدري أن كل من شاهد هذه الصورة قال إنني أشبهها كثيراً، ولكن أنا أرى أنها لا تشبهني اطلاقاً. عيونها أجمل من عيوني، ولهذا أنا أتحسر أحياناً على عدم امتلاك عيوننا مثلها. وإن شئت الصراحة فأنا أحسدها على كل شيء تمتلكه، ملامح وجهها، وطيبة قلبها، وإحساسها الدائم بالحرية.

صمتتْ للحظات، ثم سألتني باهتمام وهي متوجهة إلى المطبخ :

- فودكا أم ويسكي؟

أرد بنبرة بطيئة:

- شربت خمسة كؤوس من الويسكي قبل مجيئي إلى هنا.

ثم اكملتُ :

- لا أريد ان أشرب المزيد

قالت في لهفة :

- ولماذا؟

قمتُ من مكاني ومشيتُ صوبها. كانت حينها تقوم بتقشير الفواكه في المطبخ، وقفتُ خلفها، ثم احتضنتها قائلاً:

-يقال على المرء أن يهزم حزنه بالضحك، وأنا أخشى أن يهزمني الحزن لحظة سكر.

التفتْ إلي وانعقد حاجبها في تساؤل، ثم قالت :

- لمْ أفهم قصدكَ.

أجبتها بابتسامة عفوية :

- لعلي أَخاف أن أضعف، فأبكي مثل الأطفال بين ذراعيكِ.

ثم واصلت بعد شيء من التفكير :

- كلما زاد سكري زادتْ هشاشتي وضعفي، وصرت أقرب إلى حالة البكاء الذي يلازم البوح دائماً. وبما أنني أشعر دوماً بخلل في عاطفتي، فهذا الأمر يجعلني لا أُجازف، وإن شئت الصراحة أَخاف أن أفرط في الشرب فأضعف، وأنا خائف من أن أبكي لحظة ضعف. أخشى من تلك المشاعر التي تستيقظ في أوج السكر لأنها تكون صادقة وحقيقية والإنسان ترهبه الأشياء التي تأتي عارية على حقيقتها، لأنه يحتاج إلا بعض التزييف والكذب كي يواصل الحياة دون وجع.

قطبتْ جبينها محاولة فهم كلامي الذي أنا نفسي لم أفهمه، لأنني فعلاً كنتُ في أوج السكر، ولا أعرف كيف ركبت تلك الجمل مع بعضها البعض، على كل حال كنتُ أحاول أن أشرح لها حالتي لا أقل ولا أكثر. ويبدو أنني فشلت في المهمة. كان يمكن أن أصوغ كل هذه الجمل المتقاربة، في كلمة مقتضبة من أحرف قليلة على سبيل المثال، "ممتلئ" كلمة صغيرة، مليئة بمعان ودلالات ضمنية، وأشياء أخرى لا حصر لها.

كانتْ نبرتي متوجسة بعض الشيء، صمتُ للحظات ولمْ أترك لها فرصة قول كلمة واحدة، كنتُ أطوقها بذراعي قبل أن تنتفض قائلة :

- هل لي بسؤال أطرحه عليك؟

ولمْ تنتظر كي أجيبها، بل أردفت سريعا :

- هل أحببت يوما؟

ثم واصلت بخفوت :

- أقصد القول: هل عشت يوماً قصة حب.

شردتُ ببصري بعيداً. باغتتني بالسؤال وقذفتْ بي إلى لجة القلق، وأيقظتْ بداخلي جرحاً عميق الغور. ارتبكتُ وكأنني أقفُ وجها لوجه مع الذاكرة. وخيل أنها وجهتْ لي تهمة ثقيلة وليس سؤالاً عابراً يمكن أن يطرحه أي شخص علينا. أحسستُ وكأنها تستدرجني إلى تلك الزاوية الضيقة الموجودة في أعماق قلبي، هناك حيث القصة الأكثر تعقيداً. أنا لمْ أكن أظن يوماً أن الجواب على هذا السؤال صعب لهذه الدرجة، ويسبب حالة من الدوار مرفقة برغبة في التقيؤ. في الحقيقة لستُ أدري بِمَ يشعرني تحديداً هذا السؤال. هل عشت يوماً قصة حب؟

لمْ أدْرِ بِمَ أجيبها، فحاولتُ أن أتملص من السؤال بطريقة ذكية، لكن في عمقها كانت طريقة غبية جداً ومضحكة. قلتُ وأنا أتشمم رائحة شعرها :

- على حسب تعريفنا للحب.

ردتْ بعد أن استدارتْ نحوي ببطء متعد، حتى لامس نهدها صدري، ثم أشبكتْ أصابع يديها خلف رقبتي كانت تنظر إلي بريبة :

- لا تراوغ

ضاقتْ عيناي ورحتُ أفكر في بناء جواب يقنع فضولها المترامي، ويجعلني أنجو من فخاخ الذاكرة، ثم قلتُ بصوت هامس :

- في نظري الحب هو القدرة على احتضان الطرف الثاني، رغم بشاعة عيوبه. وأنا لمْ اجد يوماً امرأة قادرة على احتضاني بكل عيوبي. دائماً كنتُ مطالباً بتغيير شيء ما، كي أصير على مقاس من صادفتُ في حياتي. هنا يصبح الحب شيئاً متعباً ومقلقاً وثقيلاً جداً. أن نحب يعني أن نقبل كل شيء دون تدمر أو اِنزعاج.

صمتتُ لبرهة ثم واصلت، ولمْ أترك لها فرصة التمعن في كلامي:

- في بعض المرات أشعر أنني لمْ أعرف الحب ابداً، لم أجربه. ولم يمر في حياتي قصص كثيرة. أو ربما هي قصة واحدة قديمة انتهت وماتت منذ زمن بعيد. لكن ذلك الشعور بالذنب مازال على قيد الحياة، ينخسني في رأسي وصدري وخصيتي، فاشعر بألم حقيقي كلما تذكرت تفاصيل تلك القصة.

كنتُ أدرك أنني أحاول أن أتفلسف في ردي على ذلك السؤال المباشر، استجابة لرغبتي في عدم الغوص كثيراً في تفاصيل تلك القصة المتداخلة، التي صارت تبدو اليوم تافهة إلى أبعد حد. فهل كانت ستقبل اليفيا أن أحكي لها السخافات التي لا تحدث إلى في الروايات الرديئة؟

قبلتني، ثم قالت بنبرة من يسحبك إلى التهلكة:

- أحكي لي ما وقع

قبلتها بدوري وأجبت همساً:

- لا قدرة لي على سردها الآن.

ثم أضفتُ في سري، "هذه القصة تنهشني بصمت صارخ"، ورغم ذلك لنْ افضي بها لأحد. وحدقتُ في الفراغ لوقت بدا لي طويلاً، ثم عدتُ وقلت بحماسة:

- أريد أن أسمع بعض الموسيقى في هذه اللحظة.

ظلتْ تنظر إلى وجهي للحظات ثم سارعت إلى القول:

- ما رأيكَ أن نستمع إلى باتريك فيوري؟

تسللتْ من بين ذراعي، ومشت بخفة إلى صالون، تبعتُها بخطوات بطيئة دون أن أضغط على أصبعي المجروح، وخيل لي أنني أسير متعثراً، وضعتْ الأسطوانة المدورة على جهاز الغرامافون، وراحتْ تردد كلمات الأغنية، وتتمايل بتماهٍ رهيب مع النغمات.

dans ma vie

Je rêve à trop de choses et puis

Faudrait que je prenne un peu le large

Si je pouvais tourner la page..

Je fais de ma vie un enfer

Je frôle l'overdose

et je meurs d'ennui

Faudrait que je t'oublie

Avant que d'autres regards ne t'effleurent

au hasard

Ne s'y brûlent, ne s'y brûlent,

Que d'autres vies en déroute

Ne se mêlent à ta route

* * *

دق جرس الباب مرتين متتاليتين دون انقطاع. خفضت اليفيا من صوت الموسيقى قليلاً، ثم مشتْ لتفتحه، لكن قبل أن تضع يدها على المقبض، وقفتْ للحظة، سحبتْ نفساً عميقاً ثم وضعت أذنها على الباب في محاولة منها لسماع شيء ما. بقيتْ على ذلك الحال قرابة الدقيقة، قبل أن تلتفت إلي وآثارُ القلق واضحة على ملامح وجهها. كانتْ متوجسة من فتح الباب. أشرتُ لها بيدي كي تفتحه،

لكنها ردتْ بإشارة من رأسها تعني الرفض، وفجأة جاء صوت نسائي من خلف الباب قائلاً نبرة منخفضة:

- اليفيا أنتِ هنا؟

لحظتها ابتسمت ابتسامة مفعمة بالثقة، وكأن هما ثقيلاً أزيح عن صدرها، ثم فتحت الباب ضاحكة :

-اشتقتُ لكِ، يا سخيفة

ثم نادتني بنفس النبرة :

- مهدي أقدم لكَ حبيبتي صوفي.

"اللعنة" قلتُ هذه الكلمة في قرارة نفسي، وأنا مشنوق بالصمت الذي بسط ظلاله على المكان فجأة.

الصمت ذاته الذي يجتاحني كلما صادفتُ شيئاً يثير مخاوفي. مددْتُ يدي، وصافحتها دون أن أنظر إلى وجهها الذي ظلت ملامحه محفورة في ذاكرتي ولمْ أنْسَهَا منذ رأيتها أول مرة في الحانة، في ذلك اليوم الممطر الذي جئت فيه إلى باريس.

صوفي هي نفس المرأة التي جمعني بِهَا القدر على طاولة صغيرة، لمْ تكن تسمح لنا بأكثر من تعارف سريع، قبل أن أغادر الحانة في ذلك اليوم. أتذكر أنها قالتْ اِسمها صوفيا.

عيناها تنظران إلي، وأنا أحدق في العدم محاولاً تجاوز نظراتِهَا التي كانتْ تتأملني بعمق مخيف.

ربما تذكرتْ أننا سبق والتقينا قبل اليوم، لكنها لمْ تقل شيئاً حتى تلك اللحظة. ظلتْ صامتة ترمقني بتلك النظرات الطويلة المتفحصة. إذن هي المرأة ذاتها التي لطالما عذبني الفضول لرؤيتها مرة اخرى، ولطالما حلمتُ أنني أضاجعها. إنها هي ذاتها إذن؟

يا للمصادفة العجيبة، أيعقل أن تكون باريس صغيرة لهذه الدرجة؟

سحبتْ علبة سجائر من حقيبة يدها، ثم أشعلتْ سيجارة وهي تقول موجهة كلامها إلي :

- لذي شعور يقول إننا التقينا في يوم ما.

قلتُ بسرعة كي أبدد مخاوفي :

- لا أظن

ثم أضافتْ اليفيا بدهشة وهي تنظر إلي :

- لا يمكن، فلمْ يَمْضِ على تواجده في باريس سوى ثلاثة أسابيع، وأنتِ غائبة عن هذه المدينة مدة شهر ونصف.

صمتت اليفيا قليلاً ثم واصلت بمزاح :

- اعترفي، هل جئت إلى هنا ولمْ تخبرينني بذلك؟

ردتْ صوفيا بنبرة جدية :

-البارحة فقط تركتُ روما، فكما تعرفين ظروف العمل لا تسمح لي بالسفر متى أحببت.

قلتُ بعد لحظات صمت :

- ما طبيعة عملك؟

وكنت على وشك أن أنطق اِسم صوفيا بدل صوفي، لكنني في اللحظة الأخيرة أحجمتُ، شيء ما لجم لساني.

لمْ تمنحها اليفيا وقتاً لرد حين قالت :

- في البداية كنت تعمل صحفية في نفس الجريدة التي تعمل فيها أنتَ الآن. لكنها انتقلتْ إلى عالم الموضة، وصارت عارضة أزياء.

ثم اضافت :

- سأدعوكَ لحضور عرضها القادم في باريس.

قاطعتها صوفي قائلة وهي تنظر إلي :

- أريد كأس ويسكي من فضلكَ.

سكبتُ لها كأساً وأضفتُ إليه قطع الثلج. ثم سألتها اليفيا، إن كانت ترغبُ في الأكل. فردتْ أنها تخشى زيادة الوزن وأن أكلها على العموم قليل لسوء شهيتها، كما أن قوانين العمل صارمة بخصوص هذا الأمر وواضحة، الوزن الزائد يستوجب الطرد المباشر.

اِستغْربْتُ كيف أنها تخشى زيادة الوزن، وهي نحيفة حد الضمور. لكنني لمْ أجرؤ على مناقشة الموضوع معها. اكتفيتُ بأن أطرح عليها ذلك السؤال الذي برق ببالي لحظتها :

- هل أنتِ سعيدة بعملك هذا؟

عقدتْ حاجبيها متسائلة، وكأنها لا تعرف هل هي سعيدة أم لا، لكن سرعان ما ارتسمتْ على ملاحها ابتسامة خفيفة قالت بعدها:

- دخلتُ عالم الموضة وعروض الأزياء منذ كنتُ في الثانية والعشرين من عمري. ظهرتُ على منصة عروض أزياء كبرى الشركات مثل، برادا .. وشانيل .. وميلبوري ..، وزرتُ نيويورك، ولندن، وميلانو. ولكنْ بعد مرور ثلاث سنوات ما زلتُ غير قادرة على سداد ديوني.

صمتتْ قليلاً ثم واصلت بعد أن سكبتْ لي نفسها كأس ويسكي :

- بدأتْ ديوني عندما بدأت العمل كعارضة أزياء. بعد أن سافرت إلى لندن لأخضع لتجارب الأداء، دفعتْ الوكالة التي وقعتُ لَهَا تكاليف الاقامة والمعيشة، وهو المبلغ الذي سأصبح مدينةً به. سألوني إنْ كنتُ

أريد الحصول على سائق خاص، دون توضيح أن هذه الخدمة مكلفة للغاية وأن علي دفع ثمنها.

أطلقتْ ضحكة قصيرة، ثم قالتْ بنبرة متوترة :

- تكمن مشكلة عارضات الأزياء، أنه في حين إذا سافرت إحدى العارضات للمشاركة في أسبوع الموضة ولمْ تحصل على فرصة ستكون مدينة لوكالتها بالمبلغ المالي الذي أنفق عليها.

حاولتْ استعادة هدوئها، أشعلتْ سيجارة أخرى ثم استرسلت:

- واجهتُ أنا تلك المشكلة حين سافرت إلى نيويورك، لكنني لمْ أتمكن في النهاية من الحصول فرصة المشاركة في أي من العروض بسبب مرضي حينها. وبعدها ولمدة عامين لمْ أتقاض أي مقابل مادي لأن كل ما كنتُ أحصل عليه كان يعود للوكالة من أجل تسديد ديوني المالية.

صمتت للحظة قبل أن تنفجر ضاحكة :

- أتوقع أنني فشلتُ في أن أكون عارضة أزياء ناجحة

أضافت بسخرية :

- تلتزم عارضات الأزياء بحمية مشددة للحفاظ على أوزانهن، وإلى نظام رياضي قاسٍ لصقل العضلات ونحت الخصر. تفرض هذه المهنة

قوانين صارمة لا تشبه أبداً ذلك العالم البراق الذي تلتقطُهُ عدسات الكاميرا، وتكتبُ عَنْهُ الصحافة.

تحولتْ نبرتها الساخرة إلى نبرة مشحونة بالحسرة والندم :

- تلك الحياة التي تبدو مترفة، سرعان ما تنهار وتصل حد الموت. أفكرُ أن أترك هذه المهنة قبل أن أموت وسط الوساوس والجوع واضطرابات الأكل.

قلتُ مصدوماً :

- ما الذي يجبركَ على البقاء في هذه المهنة القاسية؟

هتفتْ اليفيا بعد صمت طويل :

- الحب هو الذي جرها إلى هذه الدوامة

قالتْ صوفي بعد أن ارتسمتْ على ملامحها ضحكة جميلة :

- سأخبركَ بسر صغير، عندما جئتُ إلى باريس أول مرة كان في عمري آنذاك سبعة عشر سنة. تعرفتُ على مصمم أزياء ايطالي. أحببتهُ رغم أنه كان يكبرني بثمانية عشر سنة، وارتبطتُ به رغم أنه كان متزوجاً وله ثلاثة أبناء. استمرتْ العلاقة بيننا مدة أربعة سنوات، ثم انفصلنا بعد أن اكتشفتْ زوجته القصة. في تلك الفترة كنتُ قد حصلت على دبلوم الصحافة، وبدأت العمل. ثم بعد سنة من الفراق عدنا لبعضا. لكن بشرط أن أتخلى عن مهنة الصحافة والتحق بعالمه.

ثم أضافت :

-لمْ يكن أمامي من حل سوى أن أُنفذ طلبه، لأنني كنتُ غارقة فيه حد الهوس.

قلت متسائلاً:

- هل العلاقة ما تزال مستمرة؟

أجابتني وهي تنفثُ دخان سيجارتها :

- لمْ أعد أحبه بنفس العمق الذي كان في بداية، لكنني غير قادرة على العيش بدونه. أشعرُ بنفسي مكبلة وعاجزة عن الابتعاد عنه. ثمة ذاكرة مشتركة بيننا ترفض التخلي عنه.

صاحتْ اليفيا محاولة قلب دفة النقاش إلى جهة أخرى :

-إشتقتُ لتناول طبق الفسنجان الايراني من طبخ يدكِ حبيبتي صوفي.

ثم أضافت موجهة كلامها إلي :

- لابد أن تتذوق ذلك الطبق الفخم.

قلتُ:

- أنا لمْ أسمع به من قبل.

ردتْ صوفي :

-نقدم هذا الوجبة في إيران خلال المناسبات العائلية والولائم الهامة. يتكون مِنْ عصير الرمان، والجوز المطحون، والدجاج أو قطع اللحم المفروم، ويكون طعمه حلواً أو حامضاً حسب الرغبة.

ثم اردفت :

-تعلمتُ تحضير هذه الوجبة على يد أمي، كنا في كل يوم جمعة نزور جدتي التي كانت تقيم في أحد البوادي القريبة من العاصمة طهران ...

قاطعتها ضاحكاً :

- طهران ... كنت اتوقع أنكِ فرنسية الأصل

أجابت بنفس النبرة الضاحكة :

- لا أنا إيرانية، لكنني ممنوعة من دخول إيران.

- لماذا؟

ردتْ ومسحة حزن مفاجئ قد اِرتسمتْ على عيونها، وكأن سؤالي نكأ جرحاً قديماً :

- كان أبي ضابطاً كبيراً في صفوف القوات الجوية، وخلال سنة 1980 حاول هو وبعض الجنود والضباط وعناصر من الجيش والمخابرات، الانقلاب على الحكومة والإطاحة بالجمهورية الاسلامية.

سرحت عيناها عبر النافذة، مرت لحظات ثقيلة من الصمت، عادت لتتكلم من دون أدنى تبدل في نبرة صوتها، فيما عيناها تحدقان في الفراغ :

- لكنْ تسربت الخطة قبل تنفيذها، وتم القبض على عدد كبير من الضابط، وفشل انقلاب نوجة، ولحس الحظ أن والدي لمْ يكن من بين الذين تم اعتقالهم، واستطاع اخْراجَنَا من طهران باِتجاه لبنان، قبْل أنْ تَصِلَ الينا يد السلطة، لكن عيونها ظلت تترقبُ خطواتنا حتى بعد مغادرتنا البلاد، وتم اغتيال أبي في بيروت سنة 1984 خلال اجتماع سري. في تلك السنة هاجرتُ رفقة أمي إلى هنا.

أخرستني قصتها، وبقيتُ صامتاً للفترة طويلة، وأول فكرة جالتْ في خاطري وأحرقتني، هي أننا نتشابه في شيء واحد فقط، هو مصيرنا المشترك والغُرْبَة الأبديَّة التي لنْ تنتهي أبداً.

أنا أيضاً لنْ أعود إلى وطني، وسأدفن خارج ترابه، لنْ أرى سَماءَهُ مرة أخرى، ولنْ أجلس على الرمل بمحاذاة موج بحره الأزرق الصافي. أنا وهي تجمعنا مأساة الاقتلاع من الأرض التي ولدنا فيها.

كلامها رتق جرح الفراق عن الوطن البعيد، وراح ينزف قلبي من جديد. شعرتُ وكأن الجدار الذي كان بيننا زال بفعل الوجع المشترك، وصارت المسافة بيننا أقرب. كان في أعماقي لهف إلى حضنها الذي ظل يراود خيالي طوال الفترة الماضية. ثمة رائحة معششة في خلايا شمي، تذكرني بتفاصيل أول يوم رأيتها فيه. وتذكرني أيضاً بتفاصيل الاشتهاء الأول، والذي عبثاً كنتُ أحاول رتق شقوقه في أحلامي وصحوتي بشيء من الخيال وبشيء من التعالي.

صدري المتأهب كان ينتظر إشارة منها، ليباشر البوح بكل شيء. شرودها الطويل جعلني أقفُ على حافة جملة كنتُ متشوقاً لقولها بصوتٍ عالٍ: "نعم سبق والتقينا في تلك الحانة الصغيرة وجلسنا على نفس الطاولة، وحدث أنْ سَحَبْتِ سيجارة من علبة السجائر التي كانت موضوعة بيننا ".

وفجأة أحسستُ بذراع اليفيا تغمرني وتقف سداً مانعاً أمام ذلك السيل الجارف الذي كان يجرني صوب صوفي، وتكبح تلك الرغبة المتدفقة في عز اِندفاعها.

كان شرودها مغمساً بالأسى، ووجهها متخماً بالحزن، إلا أنها ظلتْ على الرغم من ذلك حريصة على رسم ذلك الفرح المبتور على ملامحها. لمْ أكن أتوقع أن ذلك السؤال الأخير الذي طرحته سهواً أن يفعل بِهَا ما فعل، وأن ينخس ذاكرة مفعمة بالوجع. وأن يقظ جرحاً لمْ يُشْفَ بعد.

لماذا؟ هذا السؤال الذي يبدو سخيفاً، هزها في العمق وأربك جسدها حتى صار عليه من الصعب اِخفاء دموعها خلف صمتها. اِنزوت، وكانتْ تتنحبُ ألماً. وكانتْ ظلال ضحكة مكسورة ترتسم في عينيها وهي تردد بلكنة عربية ثقيلة، كلمات تلك الاغنية التي ترجعها إلى شوارع بيروت، وإلى الأيام الأخيرة التي جمعتها مع والدها.

احكيلي احكيلي عن بلدي

احكيلي

يا نسيم الي مارق عالشجر مقابيلي

عن أهلي حكايي عن بيتي حكايي

وعن جار الطفولة حكايي طويلي

يا نسيم لي مارق عا ألأرض الغار

حلفتك تجي تلعب عندي بهالدار

خبرني انكان بعدو بيذكرني

ببلدي وعالسهرة ناطرني

ساعات الفرح القليلي

حبيبي احكيلي

حلفتك خبرني

كيف حال الزيتون والصبي والصبيي

بفيي الطاحون

فيروز، ذلك الصوت الذي لا ينفك يهتف في داخلي بهدوء، ويعيدني إلى ذاكرة السجن. صوتها السخي كان يتمازج مع حزمة الضوء الشحيح الذي كان يتسلل من الكوة الصغيرة ويخترق القضبان الغليظة، ذلك الصوت كان يمنحنى بعض الدفء في خلوتي، وينتشلني من ضجيج العزلة، ويضعني في صفاء لا تبعثره ضوضاء ولا صدى.

حدقتُ في وجه صوفي شارد الفكر، ولا أعرف لماذا أحسستُ في تلك اللحظة أن لها جمالاً ضارباً وجارحاً وموتراً. كنتُ أصغي إلى صوت أنفاسها البعيدة. كنتُ أسير أصابعها الطويلة المتشابكة مع بعضها، إلى أن سمعتُ صوتاً يخترق شرودي وغفوتي، أعادتني نبرة اليفيا فجأة إلى الواقع حين قالت، وهي تجلس على ركبة صوفي وتطوقها بذراعيها :

- اغمض عينيكَ يا مهدي.

ثم قبلتها على شَفَتَيْهَا بالطريقة نفسها التي تقبلني بها. رفعتُ نظري عنهما سريعاً فواجهتني المرآة، رأيتُ اِنعكاس وجهي فيها متشظياً. كان يتناهى إلى سمعي صوت يتردد بإيقاعٍ رتيبٍ. كان صوت حميمية

مشتعلة بينهما. تراءى إلي في بادئ الأمر أن ما رأيتُ وما سمعتُ، ما هو إلا حلم من أحلام يقظتي، وأنه مجرد صورة من مئات الصور التي أخزنها في ذاكرتي وأستدعيها لحظة شهوة. لكنْ الأمر هذه المرة لمْ يكن كذلك، بل كان حقيقياً. تلك الأصوات جعلتني أتخيل ما يحدثُ بينهما على حافة الأريكة.

ربما لمْ تكن لدي الجرأة الكافية لِلْنظَرِ اليهما، لكنني كنتُ أشعرُ بتلك الحركات التي حفزتْ حواسي كلها. كان الصوت يتردد ضعيفاً ولمْ أكن أسمع إلا نهاياته. كنت أتلذذ بما أسمع وأتخيل.

التفتُ نصف التفاتة، كانتْ حينها صوفي تنزع سترتها القطنية، تلاقتْ نظرتنا في تلك اللحظة، فأشارت إلي بالتقدم نحوها. استدرتُ مرة أخرى صوب المرآة مكسورة الزاوية وحدقتُ في وجهي الهزيل الغارق في التشهي، الذي كان يقطر منه عرق بارد جداً. حاولتُ بشتى الطرق تجاوز تلك الهوة العميقة التي كانت تسمرني في مكاني، لكنْ قدمي لمْ تكن تقوى على الحراك.

كدتُ أجري للخروج من البيت، لكنْ لرغبة في خوض التجربة كانت أكبر من الخوف الذي كان يسري في اعضاء جسدي. توجهتْ نحوي اليفيا، لمْ أتحرك من مكاني اكتفيتُ بالنظر المتوغل في جسدها العاري، وهو يقترب مني، وهو ينطق بأكثر من معنى. جرتني من يدي، ومشتْ بي صوب غرفة النوم، وبعد ثوانٍ قليلة تبعتنا صوفي عارية تماماً.

وقفتُ مبهوراً أتأمل تفاصيل جسمها النحيف جداً. أحسستُ بدقات قلبي تتسارع والعرق يتصبب غزيراً على عنقي. جاءني صوتها كالهمسات حين قالت: أغواني صمتكَ. ثم وقفتْ أمامي حتى لامس نهدها الصغير صدري.

اليفيا كانت تقف خلفي. تهتُ بَيْنَ الحلم والواقع، ولمْ أعرف مِنْ أيْنَ أبدأ. اليفيا كانت تعرف كيف تشعل حرائقي، وصوفي كانت المرأة المشتهاة.

* * *

بعد خمسة أيام، لململتُ أشيائي في حقيبة صغيرة، وركبتُ الطائرة المتوجهة إلى كيغالي، بعد أن تسلمتُ رسالة من ساعي البريد قادمة من سراييفو. وبعد أن أقلعت الطائرة بدقائق معدودة، فتحت الرسالة.

***

من نضال إلى مهدي

سراييفو 3 نيسان 1994

لا أعرف إن كانتْ هذه الرسالة ستصل إليك أم لا، لكن رغم من ذلك سأكتبها ..

لماذا أكتبُ إليك؟ سألتُ نفسي وأنا أجلسُ خلف النافذة الصغيرة التي تُطل على مدرج الطائرات في مطار سراييفو. في هذه اللحظة يخيم على المكان صمت مطبق وكثيف. على عكس يوم أمس، فقد كانتْ المدينة تغلي. أصوات القذائف المدفعية لمْ تتوقف، والطائرات كانت تحلق على مسافة قريبة، وتلقي على المنازل مئات القنابل الحارقة والثقيلة. المباني الشاهقة التي تبدو صلبة ظاهرياً تستحيل رماداً فجأة. سراييفو ممزقة إلى شظايا صغيرة وتلفها سحب دخان كثيف أسود.

رغم كل هذا التمزق والتشتت والخراب، إلا أن هذه المدينة ترفضُ الاستسلام والخضوع، وتزداد كل يَوْمٍ اصراراً على البقاء واقفة وصامدة. الكل هنا على استعداد لِلدِّفاع عن الأرض التي ولد فيها، حتى ولو كلف ذلك حياته. الكل على أَتَمِّ الجهوزية للموت في سبيل سراييفو التي تتآكل شيئاً فشيئاً.

المدينة تواجه بمكابرة مصيرها المحزن وحدها، وتموتُ ببطء أمام أنظار العالم على يد الصرب. في كل يوم ترجع خطوة إلى الوراء قبل أنْ تتهاوى نحو هوة الجحيم الذي لا قرار لنهايته.

الحرب ما تزال مستمرة في سراييفو، ولا أظن أنها ستتوقف قريباً. الشوارع مزدحمة بالْجُثَثِ المتعفنة، والنيران تلتهم البنايات ولمْ يعد بالإمكان إِخمادها. الموت هنا صار شيئاً رخيصاً وعادياً بل حتى صار هو والمدينة شيئاً واحداً. أتساءل اليوم إذا لمْ أكن مخطئة بدخولي غمار هذه التجربة التي ليستْ في النهاية إلا مشاهد قاسية تتكرر كل ثانية

في الحقيقة لستُ نادمة على المجيء إلى هذه المدينة، ولست خائفة أيضاً، لستُ خائفة مِنْ أنْ تخترق رصاصة جمجمة رأسي، أو تمزقني قذيفة. أنا هنا كي أخْتَبِر قُدْرَتي على البقاء حية لأطول مدة ممكنة، والتقاط أكبر عدد ممكن من صور للمهالك المأساوية التي تهزني من العمق.

سراييفو بحاجة ماسة لمنْ يوصل أنينها إلى المجتمع الدولي، هي بحاجة لمنْ يحس بوجعها، لمن يشاركها الخوف والجوع والدمار، هي بحاجة إلي حتى وإن كنتُ أحمل بين يدي فقط آلة تصوير.

صادفتُ يوم أمس عجوزاً يجلس على كرسي خشبي أمام منزل يحترق، غير مهتم تماماً بالقذائف التي تسقط حوله، ولا بالرصاص الذي يمر من قربه ويكاد يخترق جسده النحيل. كان يبكي بحرقة عن مدينته التي تنهار أمام عينيه وتتحول إلى رماد ودخان ودماء.

وصادفتُ امرأة تركض بسرعة كي تجتاز الشارع وكان بين ذراعها رضيع. كانتْ تبحثُ عن مكان أمن تحتمي فيه من الموت، ولكن في منتصف الشارع اِستقرتْ في رأسها رصاصة أطلقها احد القناصة، لتسقط أرضاً والدم يفور من رأسها والرضيع يبكي بين ذراعها. لمْ يستطع أحد الاقتراب منها، تُركت مكانها غارقة في دمها.

صادفتُ أيضاً ثلاثة كلاب تتنازع بينها على يد بشرية. هذا المشهد أحسسته أكثر بشاعة من سقط القذائف ومن رصاصات القناصة التي تستقر في أجساد الناس. يعيش سكان المدينة ظروفاً إنسانية صعبة للغاية. الهجمات الصربية تمنعُ وصول الطعام والماء والمواد الطبية. الناس هنا يموتون جوعاً وخوفاً، وهذا تحت مرأى ومسمع قوات الأمم المتحدة التي تسيطر على مطار سراييفو، وعلى منطقة سربرنتيسا، وزيبا، وتعلن أنها مناطق أمنة تابعة لها.

يُقالُ إنَّ قُوات الجيش الصربي قامتْ بعمليات تطهير عرقي ممنهجة ضد البوشناق، إذ عزلتْ الذكور عن النساء والأطفال، وكدسوا في المستودعات والحظائر والمدارس ثم أُطلق عليهم الرصاص، وألقيتْ جثثهم بمقابر جماعية. وقبل أسبوع فقط تعرضتْ مجموعة كبيرة منَ الرجال والنساء والأطفال، لأعنف أنواع التعذيب والتجويع، وحتى الاعدام. وتمت تصفية أكثر من 150 شخصاً في ليلة واحدة، ثم اِطلاق النار عليهم عشوائياً.

ربما تحتاج هذه المدينة لسنوات طويلة كي تحصي أمواتها. لأن العالم كله عاجز عن فعل شيء، أو حتى متواطئ مع هذا الهجوم البربري الذي تشنه صربيا على البوسنة والهرسك.

حكتْ لي سيدة أنها تعرضتْ للاغتصاب في مستشفى برتشكو. بعد أن ذهبت للعلاج، وجدت نفسها محتجزة في غرفة صغيرة، تغتصبُ كل ليلة من قبل ستة أو سبعة جنود بشكل متتالٍ على سريرها في المستشفى.

وحكتْ لي أخرى بنبرة باكية، قصتها حين قالت على لسانها بالحرف : "حدث هذا قبل سنتين تقريباً أذكر أنه ذات ليلة السادس من مايو 1992 ولما كنتُ في البيت مع أهلي وفي منتصف الليل بدأ اشتباك عنيف فاستيقظت، ظننت أن الجنود يحاصرون بيتنا. كان قلبي يخفق بقوة حتى أنني بالكاد كنتُ أستطيع التنفس. في تلك الليلة قررنا ترك البيت والهرب إلى الغابة المجاورة لننجو بأرواحنا. هناك وجدنا كل الناس هاربين مثلنا، اَقمنا في الغابة عشرة أيام، واستهلكنا

كل الأكل الذي كان معنا. عندها قرر والدي أن نعود إلى البيت بحثاً عن الطعام. عدتُ أنا وأبي وعمتي فقط وفي طريق العودة ثم اعتقالنا. أخذني أحدهم إلى بيت قريب واغتصبني، بعد ذلك جاء أخر وكرر معي نفس الأمر ".

لا أعرف لماذا أخبرتكَ بكل هذه القصص، وبكل هذه التفاصيل، لكن جميل أن يشعر المرء أن هناك في مكان ما، من يهتم لأمره، شخص ما ينتظره، ويحتاجه ويفكر به. هل تفكر بي الآن؟ هل اِشتقتَ إلي؟ هل شعرت للحظة أنني أنقصكَ؟

أنستني الحرب أن أسأل عنكَ، ولكنها لم تُنْسِنِي أنْ أشتاق إليك

كيف حالكَ؟

يصعبُ علي أن أحدد ما أشعرُ به في هذه اللحظات القاسية، والأكثر عزلةً وخوفاً. كل الاشياء التي تحيط بي مقهورة، قهرها الزمان وشوهتها الحرب. هل تعرف معنى أن يكون الإنسان وسط الجحيم، والموت يدوى في كل زاوية ينظر إليها، ويحاول أن ينزع من عينيه كل شيء جميل.

أصوات القنابل والقذائف تعكر صفو اللحظة، لكن رغم هذا الضجيج المزعج قررتُ أن أكتب لك، لأخبركَ بشيء مهم جداً، لكن قبل ذلك يجب أن تكون على استعداد نفسي لسماع القصة. وإن خفت مزق هذه الرسالة قبل أن تكمل قراءتها، أو أحرقها كما فعلت مع لوحات نجمة.

ربما أفزعتكَ هذه الجملة الأخيرة، نعم لقد أخبرني أبي بما فعلت، لكنني لمْ أكن أملك الجرأة الكافية لمواجهتك. اِرتبكتُ وهرب الكلام من فمي وانعقد لساني، ولمْ أسألك لماذا أحرقت اللوحات والبيت، ولا أنتظر منكَ جواباً الآن. هذا الأمر لا يعنيني اطلاقاً، وليستْ لَدَيَّ الطاقة لتحمل الحديث عنه. عندما سمعتُ الخبر اندهشتُ من تصرفكَ الغريب، لكن سرعان ما تمالكتُ نفوري وانزعاجي منك، وحاولتُ بهدوء أن أتلمس رهافتكَ ورقتكَ الجميلة، كي أنسى ما فعلتْ.

في البداية لمْ يكن مخططاً أن أحبك، لكن شيء ما في أعماقي قادني إلى الوقوع فيك، وصرت هائمة في صمتكَ، وفي عمق الأسئلة التي تطرحُ علي من حين لآخر. شيء ما تمتلكه أنتَ وحدكَ، جعلني أنساقُ خلفكَ دون وعي.

أهكذا يولد الحب؟

لماذا كلما حاولتُ الابتعاد عنكَ خطوة، سحبتني إليك بقوة؟ ألا ترى أن علاقتنا بدأتْ متوهجة منذ اللحظة الأولى؟ وكما نعرف أن كل الأشياء التي تتوهج باكراً تنطفئ باكراً أيضاً. قد يكون من الصعب تقبل هذه الحقيقة ولكن في النهاية سنجد أنفسنا أمام علاقة حب استنفدتْ طاقتها، ووصلت إلى مرحلة ليس فيها متسع للجنون والحرية.

أنتَ الرجل الوحيد الذي وقفتُ أمامه عاجزة عن التحكم في مشاعري، واخترتُ السفر ومواجهة الموت على مواجهته. لمْ يكن اختيار السفر إلى سراييفو بسبب أنني أحببتُ خوض تجربة الحرب والدمار، ومشاركة الناس أوجاعهم ... الخ، بل اخترتُ السفر لكي أبتعد عنكَ وأنساكَ وأشفى منك.

لا أريد أن أثقل عليك بهذا الكلام الفارغ أكثر ...

يا مهدي، أنا أعرفُ حقيقة العلاقة التي كانتْ تربطكَ بنجمة في فترة ما. وأعرف أنني لستُ ابْنَةَ بلقاسم، وأن نجمة هي أمي التي تخلتْ عني وتركتني. أعرف التفاصيل الصغيرة جداً في هذه القصة، أعرف كل شيء، كل شيء.

كنتُ أنتظر رؤيتكَ منذ زمن بعيد، وفي ذلك اليوم الذي جئت فيه إلى المكتب تبحثُ عنْ ماضيكَ البعيد، قررتُ حينها أن أجعلك تحبني وتغرق بي، وتنسى نجمة وتحقد عليها وتكرهها. كنتُ أود أن أنتقم منها، وأحرق قلبها، وأسرقك من الماضي الذي جمعكَ بِهَا.

كل شيء حصل لك كان مخططاً له. الرسائل التي وجدت في الخزانة، أنا التي وضعتها في ذلك المكان، حتى يسهل عليك إيجادُها، وبتلك الطريقة جعلتكَ تفكر بالهجرة إلى فرنسا للبحث عن حبيبة عمرك الذي ضاع. أنا أيضاً كان هدفي من الهجرة هو البحث عنها. كنتُ أشتهي أن ألمح وجهها فقط وأسألها، لماذا تركتني ورحلتِ؟ لماذا فعلتِ بي كل ذلك الدمار؟

وجدتها قبل أن تجدها أنت، وكان من الضروري أن أساعدك في الوصول إليها. عندما عرفتُ أنها ستقيم معرضاً في باريس، طلبتُ من مدام اليفيا أن ترسلكَ إلى إجراء حوار صحفي معها، وذلك ما حدث بالضبط. يومها اِكتملتْ المهمة التي جمعتني بِكَ. لمحتني نجمة برفقتكَ، وتعمدت حينها أن أمسك يدك بطريقة تجعلها متأكدة من وجود علاقة بيننا. وأتوقعها أدركتْ أننا على علاقة. كنتُ أتمنى لو توجهتُ صوبها وصرختُ في وجهها قائلة: "لقد سرقتُ حبيب عمرك، وصار ملكي". لكنْ شيئاً ما اِنكسر بداخلي واِخترت أن أبتعد عنك وأترك كل شيء خلفي وأسافر وأتركك للأبد. من الأرجح أنكَ تتساءل الآن، لماذا فعلتُ كل هذا؟

لنْ أجيب عن هذا السؤال، أعرف أنني خذلتك بكلامي هذا. ربما كنتُ لا أستحق قلبكَ، ولا أنت تستحق جسدي. أنا امرأة لا تعرف ما تريد، وأنتَ رجل يسكن ماضيه، وما يزال يبحث عن طريق سهل ليكمل حياته. لا تحاول أن تتعمق في فهم هذه الرسالة. عندما تصلك هذه السطور اِعْتَبِرْ أنَّ نضال التي تعرفْ ماتت، وانتهتْ قصتنا باكراً جداً. صارت اللعبة مكشوفة الآن، أليس كذلك؟

عندما أعود إلى باريس، أريد أن لا أراك في حياتي، لأنني أخططُ للوصول إلى بيير بولمان، زوج نجمة. أريدُ أن أحرمها منه وأكسر قلبها كما كسرتْ هي حياتي. أريد أن أجعلها تتذوق طعم العذاب والحرمان.

ساراييفو ذات حرب ..

كيغالي

نيسان 1994

لا أدري كمْ قضيتُ من الوقت على متن الطائرة.

وصلتُ إلى المطار التابع للجيش البلجيكي عند الرابعة مساء. كانتْ حرارة الشمس تحرق الوجوه، داهمني حينها شعور غريب. التفتُ نحو السور الصغير المحيط بمدرج المطار وكان مكتوب عليه، " لا مكان لتُوتْسِي هُنا " عبارة قاسية مكتوبة بلون الدم، شيء يشبه اللعنة أصاب هذا المكان.

رافقني أحد الجنود إلى مبنى صغير تابع للمطار، ثم سلمني مفتاح غرفة توجد في الطابق الثاني. عاد إلى مكانه بعد أن أخبرني بأن الوضع خطير جداً، ويفضل أن أخبرهم بأي خطوة أقوم بها. وضعتُ حقيبتي فوق سرير حديدي قديم، ثم حملتُ الكاميرا بين يدي وخرجت من المبنى. أردتُ تفادي المرور من أمام الجنود كي لا يوقفني أحد.

وبالصدفة وجدتُ نفسي وسط بحر من الحشود البشرية المختبئة في الفناء الخلفي. رأيتُ الخوف والخيبة في عيونهم المنهكة. وفجأة قام شاب وتوجه صوبي يركض بسرعة وكأنه ينوي ضربي، وَقَفَ أمامي وَسَحَبَ سكيناً صغيرة مِنْ جيب سرواله، ثم قال بنبرة مرتبكة :

- من أنت، من تكون؟

شعرتُ بموجة خوف شلتْ جسدي، رفعتُ يدي إلى الأعلى ببطء، وأجبت بنبرة خائفة :

- أنها مجرد كاميرا، وأنا صِحَافِيّ

تسلقتْ عيناه الشاردتان بوجهي ثم رد :

- وماذا تفعل هنا؟

قلتُ في قرارة نفسي، أي صدفة ملعونة هذه التي رمتني وسط هذا الخراب، أنزلتُ يدي ثم قلت له :

- أنا هُنا لجمع بعض المعلومات بخصوص ما يحدث.

ضَحِكَ ثم همسَ في أذني :

- سيقتلكَ الهوتو إن وجدوكَ هُنا، أهرب لتنجو بحياتك.

ترددتُ بعض الشيْء قبل أن أسأله :

- مَنِ الذي أشعل هذه الحرب؟

حكَ رأسه المستديرة الكبيرة، ومسّد شعره الخشِنْ براحة يده وتنهد، ثم قال قبل أن يرجع إلى ذلك المكان الذي كان يجلس فيه :

- تباً لكم جميعاً

عندما كنتُ خارجاً من الفناء، أدركتُ أن مزاجي ازداد سوداويةً، انتبهتُ إلى أني بتّ وسط الخوف الحقيقي، تكدر مزاجي أكثر وأنا أقفُ خارج البوابة. اشعلتُ سيجارة بصعوبة بسبب هبّات الهواء الساخن، سحبتُ منها نفساً واحداً، ثم رميتُ بها في بركة موحلة بجوار السور المرتفع، ووقفتُ للحظات طويلة أتأمل بعيداً، وفجأة اقترب مني ثلاثة رجال يحملون مناجل وهروات كبيرة، كانوا ذوي أجسامٍ خشنة على عكسي. نظرتُ إليهم وقد جهزتُ نفسي لكل الاحتمالات، الثلاثة كانوا على استعداد كامل للقَتل، وكنت على استعداد للقِتال حتى الموت.

تنهدتُ. أحسستُ بأن الزمن يتمددُ، لكن لمْ أشعر بالخوف، ولمْ يكن الهرب مبرمجاً نهائياً في ذهني، وقفتُ أمامهم وقلتُ بصوتٍ عالٍ: " لا يخيفُني الموت" ، وأضفْتُ في سري، لم أحضر هنا لأُقتل، وفجأة راحت طلقات الرشاشات والبنادق تمزق صمت المكان وتحدثُ وجعاً في الأذن، حاولتُ الاقتراب منهم ولا أعرف لماذا، وبرغم من سماع صوت أحدهم خلفي يقول لي: لا تقترب منهم، ثم شعرتُ بعدها بيد كبيرة وصلبة تسحبني بقوة.

كان ذلك الشاب الذي التقيته في الفناء هو من أنقذني من الموت المحتم، سحبني من يدي بنفس الطريقة التي جرني بها من أمام البوابة إلى ركن بعيد ثم قال غاضباً :

- أنت مجنون. كانوا سيقتلونكَ

مرت لحظات من الصمت سألته أخيراً السؤال الذي كان لا بدّ أن أطرحه: مَنِ الذي أشعل هذه الحرب؟ سكت وبدا أنه لا يريد أن يقول أي شيء، تنهد ثم قال بصوت خافتٍ وحزين:

- أريد سيجارة.

لم يضف شيئاً، كان ينتظر أن أعطيه سيجارة، وفعلتُ ذلك بهدوء، ابتسم ابتسامة صغيرة، وهو يقول :

- على أيّ حال، ماذا تريد أن تعرف؟

- كل شيء عن هذه الفوضى

اِرتسمتْ على وجهه ضحكة صغيرة، غابتْ بسرعة وهز رأسه وهو يتمتم :

-بدأ الصراع العرقي منذ زمن بعيد.

نظر إلي ثم واصل:

- قبل الحقبة الاستعمارية، اِحتل أبناء التوتسي الطبقات العليا، بينما أحتل أبناء الهوتو الطبقات الدنيا. وكان يتم التفريق بينهم من خلال ما يملك الفرد اقتصادياً، أي فرد يملك أكثر من عشرة أبقار يسمى توتسي، ومن يملك أقل من ذلك العدد يطلق عليه هوتو، ومن لا يملك شيئاً يطلق عليه توا. وعندما جاء المستعمر البلجيكي حرض الهوتو ضد التوتسي.

سألته باهتمام:

- لماذا؟

رد بصوتٍ منخفض:

- كان يهمه أن يفرق بين مكونات المجتمع كي يبسط سيطرته على البلاد. وفي عام 1959، أطاحت قبيلة الهوتو،التي تمثل أغلبية السكان بحوالي 85%، بالحكم الملكي الذي كان في يد أقلية التوتسي، فيما يعرف بـ «ثورة فلاحي الهوتو» ليفر الآلاف من التوتسي إلى أوغاندا والبلدان المجاورة.

- وماذا حدث بعد ذلك؟

وقبل أن يجيب عن سؤالي، طلبَ مني سيجارة أخرى أخرجتُ علبة السجائر أشعلتُ له واحدة وأشعلتُ لي أنا أيضاً واحدة، سحب نفساً طويلاً ثم رد بسرعة:

- شكلتْ المجموعة الفارة جماعة سياسية عسكرية في منفاها تحت اسم «الجبهة الوطنية الرواندية»، وبدأت تشن هجمات على رواندا عام 1990، من أجل تأمين عودة الروانديين المنفيين من التوتسي وإعادة تشكيل الحكومة الرواندية. استمرتْ الحرب بين الجبهة الوطنية الرواندية، التابعة للتوتسي، والجيش الرواندي المكون من الهوتو، ثلاث سنوات. لينتهي القتال باتفاق سلام الذي تم توقيعه

قبل سنة تقريبا، إلا أن الاحتقان العرقي كان قد بدأ يشحذ نصاله أكثر.

ثم أضاف :

- وفي ليلة السادس من هذا الشهر. سقطتْ طائرة كانت تقل الرئيس الرواندي جوفينال هابياريمانا ونظيره البوروندي، على إثر هجوم صاروخي، وقتل جميع من كان على متنها. حملتْ الهوتو خلالها جماعة «الجبهة الوطنية الرواندية»، مسؤولية إسقاط الطائرة، ومن ثم قررت الانتقام من التوتسي جميعهم، وشرع أعضاء الحرس الجمهوري في قتل المدنيين التوتسي في قسم من كيغالي يقع قريباً من هذا المطار. وفي غضون أقل من نصف ساعة من وقوع حادث سقوط الطائرة، كانت المتاريس التي يقف عندها أفراد مليشيات الهوتو ويساعدهم فيها في كثير من الأحيان أفراد من الشرطة شبه العسكرية أو عسكريون، قد أقيمت للتحقق من هوية أبناء طائفة التوتسي. وأنشأ متطرفو الهوتو محطات اذاعية وصحفاً تنشر الكراهية وتحث الناس على التخلص من الصراصير أي قتل التوتسي. وكانت القناة تبث اسماء الأشخاص الموجودين على قوائم القتل حتى القساوسة والراهبات شاركوا في قتل بعض ممن لجأ إلى الاختباء في الكنائس..

القيتُ على مسامعه سؤالاً شغل بالي منذ وصلت هذا المكان :

- لماذا أنتم هنا؟

حدجني بنظرة طويلة ثم قال بنبرة باكية :

- لقد ذبحتْ أمي أمام عيني، ذبحها جارنا الذي عشنا بجانبه سنوات طويلة، واستطعت أنا الفرار من الموت بأعجوبة. أما أخي الصغير فقد أمسكوا به من رجليه وقلبوه للأسفل ثم قطعوا رأسه بالساطور. وجئت أنا وأبي إلى هنا هرباً من سكاكين الهوتو وبنادقهم.

صمت للحظات ثم أردف :

- الهوتو هُمْ من أَسْقَطَ الطائرة كذريعة لتنفيذ إبادة جماعية بحقنا.

وراحت الأسئلة تتهاوى من دِمَاغِي، وتترك مكانها حالة من الصمت والخوف. رفعتُ بصري صوبه وطرحتُ ذلك السؤال الذي كان يطرح بشكل مستمر في الأوساط السياسية بفرنسا. طرحته باستغراب مصطنع بدقة:

- ماذا فعل المستعمر البلجيكي للتفرقة بين الرونديين وجعل الجار يقتل جاره بهذه الطريقة البشعة؟

نظر إلى الجهة الأخرى ثم رد :

- كان يعيش أفراد هذه الأرض في تناغم تام. ويتحدثون لغة واحدة ولا يمكن التمييز بينهم إلا من خلال المستوى الاقتصادي، فمن عمل بالزراعة هم الهوتو ومن يعمل بتربية الأبقار هم التوتسي. كان لابد للاستعمار أن يستعمل طريقة ذكية ليحكم قبضته على ثروات البلاد.

أطلق ضحكة قصيرة ثم واصل :

- انتشر البلجيك في أرجاء رواندا حاملين أدوات القياس، يزنون الرونديين ويقيسون حجم تجويف الجمجمة وطول الأنف. وقد أثبتوا زورا أن للتوتسي مواصفات أكثر نبلاً وارستقراطية من الهوتو، وأن الهوتو أقرب في صفاتهم إلى الحيوانات. منْ هنا رسخ المستعمر للتفرقة بين الشعب الرواندي على أساس مختلق لا وجود له. وفي سنة 1933 أصدر بطاقات هوية لتحديد الانتماء العرقي لكل مواطن.

اِستوقفتني إجابته وسرحتُ بفكري بعيداً. ثَبَّتَ نظرته وهو يتفرس في وجهي للحظات ثم قال :

- من أين جئت؟

- فرنسا

جوابي فاجأه وتحول البريق الذي التمع قبل قليل في عينيه القلقتين غير المستقرتين إلى دهشة بالغة كأنه تلقى صفعة على وجهه.

-لا تخبر أحداً أنك من فرنسا.

وأنا أنظر إليه مستغرباً من كلامه، أشار بيده ثم صاح:

- أغرب عن وجهي

هتف بذلك وغرب هو عن وجهي. مضي وهو يلعن ويشتم شتائم بذيئة. التفت وصاح بنبرة أكثر حدة :

- فرنسا هي حليفة للنظام الهوتو المتطرف الذي قتل أسرتي.

صمت للحظة ثم بصق على الأرض وأضاف بنبرة حاقدة :

- كان يجبُ أن أتركك تُقتل أيها الفرنسي الحقير.

بدتْ لي هذه العبارة مريعة، إلا أنها لمْ تكن تعنيني بشكل خاص. خطر في بالي أن أفضل ما يمكن فعله في تلك اللحظة هو مغادرة ذلك المكان المقفر الغارق في الصمت. أنظر إليه واسأل نفسي هل ثمة ما يستحق أن أموت لأجله هنا؟ ورحتُ أحدق في الفراغ بعينين شاخصتين. شعرتُ برهبة غريبة وأنا أنظر إلى تلك المجموعة الصغيرة من الناس التي تفترش الأرض، وترتعش من شدة الخوف. أنظر إليه وهو يقف على بعد خطوات مني، أصغيت إليه وأنا أفكر في ما يدور حولي وكيف رمتني الأقدار في هذه الأرض المليئة بالهموم والأحزان واليأس. تبين لي أنني صرت وسط الجحيم. لست أدري ما أفعل؟ ولا كيف أخرج نفسي من هذا المستنقع؟ تسللتُ ببطء وعدت إلى الغرفة. تملكني لحظتها احساس بالعجز وربما اشد وطأة من الاحساس بالعجز احساس يشوبه الكثير من الانهاك.

- أحمر

* * *

أفقتُ في صباح الغد مفزوعاً على صوت انفجار قريب. نهضتُ وسرتُ مترنحاً بِاتجاه النافذة التي كانت تطل على خرابة بيت محطم. لمحتُ مجموعة كبيرة من الرجال يحملون بنادق وسكاكين وهراوات، يتجهون نحو المبنى التابع لقوات الأمم المتحدة. وقد اعترض طريقهم أربعة من الجنود.

كانت سحابة دخان أسود كثيف يتصاعد من منزل صغير. شعرت بخوف كبير وخطرت ببالي لحظتها فكرة مجنونة، قد تساعدني في الرجوع إلى باريس والهرب من هذه الخراب، مثلا أن أتعرض لاصابة خفيفة من مسدس أحدهم، بهذه الطريقة يمكنني أن أعود من حث جئت، أنا لستُ مستعداً للبقاء وسط رائحة الموت المنتشرة في الهواء.

حملتُ حقيبتي الصغيرة، وتوجهت صوب الفناء الخلفي، في المكان الذي التقيت فيه ذلك الشاب يوم أمس، وجدته ما يزال في مكانه، اقتربت منه وقلت:

- ما رأيك أن أعطيك الف دولار أمريكي، مقابل أن تصيبني برصاصة في ذراعي.

رد بنبرة خائفة ومرتبكة :

-أنتَ مجنون فعلاً

-لا لست مجنوناً، كل ما في الأمر أنني أريد الرجوع إلى فرنسا وهذا يعني أن أتعرض إلى اصابة أو مرض كي أتمكن من العودة في أقرب وقت.

صمت يفكر للحظات ثم رد ببرودة :

- أنا لا أملك غير هذا السكين الذي بين يدي، هل تتوقع أنْ يفي بالغرض؟

- أفضل رصاصة، في الكتف وليس جرحاً،

- انتظرني هنا

بقيت مكاني أنتظره، عاد بعد دقائق قليلة، وهو يحمل فوق كتفه الأيمن بندقية صيد ثم قال:

- تعطني خمس مئة دولار اضافية

- لا أملك سوى الف دولار.

-حسناً اِتبعني

- إلى أين

- إلى مكان فارغ كي لا يلمحنا فيه أحد

خرجنا من الفناء ومشينا مدة ربع ساعة وسط الأشجار الكثيفة، كنت أتبعه من الخلف بخطوات متعثرة وقف فجأة واستدار نحوي قائلا:

-هذا المكان مناسب، هو أقرب نقطة إلى المستشفى.

مد يده نحوي وهو يهمس بصوت خافت:

- اَعْطِنِي الألف دولار الآن

فتحتُ الحقيبة وسحبت منها النقود، دون أن أتفوه بأي كلمة، أخذ المبلغ مني ووضعه في الجيب الخلفي لسرواله، ثم تراجع ستة خطوات بالضبط، ثم قال بعد أن صوب البندقية نحوي.

- هذه الطريق التي على يسارك ستوصلك إلى المستشفى

أرد بصوت مرتعش خافتٍ، كما لو أنني لا أريد أن يسمع كلامي أشخاص آخرين محتملين من حولنا في الغابة:

- ركز جيداً قبل أن تطلق أرجوكَ، أريد الاصابة هنا على مستوى الكتف الأيمن بالضبط.

قال بحرارة، وقد فهمتُ، من صوته المنفعل المتقطع الخافت، أنه يوشكُ على اطلاق النار:

-اغمض عينيكَ ولا تتحرك من مكانك خطوة واحدة.

أغمضتُ عيني بصعوبة كما طلب مني، ولمْ أعد أسمع شيئاً سوى صوت الرياح وهي تهز أوراق الشجر، وفي تلك اللحظة التي لمْ تكن سوى جزء من الثانية، شعرتُ بالرصاصة تخترق صدري وتمزق الجلد واللحم.

* * *

فجأة وجدتُ نفسي في المستشفى ..

لستُ ادري كيف جئت إلى هنا. ولا كم من الوقت مر وأنا غائب تماماً عن الحياة. لكن يبدو لي أنني لم أغب إلا قليلاً. كل ما أتذكره الآن هي تلك الحظة التي اخترقت فيها الرصاصة صدري، وسقطتُ على الأرض.

فتحتُ عيني بصعوبة، كان المكان غارقاً في الصمت العميق والموحش. التفتُ إلى اليمين واليسار ببطء، لمْ يكن بجانبي شيء سوى جهاز التنفس الاصطناعي.

كانتْ أشعة الشمس تتسلل دافئة من خلف زجاج النافدة. رحتُ أنصتُ إلى صوت الطبيعة، أراقبُ الطيور في السماء. فكرتُ في أني نجوت من الموت الذي صنعته بغبائي، وأن القدر منحني عمراً جديداً، وفرصة أخرى للحياة.

كنت أشعر بنفسي كشبح، حركتُ قدمي قليلاً ولكن يدي اليسرى لمْ أكن أشعر بها اطلاقاً. وفجأة شرع الضياء الذي كان

يقتحم الغرفة من النافذة الصغيرة يتلاشى شيئاً فشيئاً إلى أن انطفأ نهائيا. فتحتُ عيني مرة أخرى ورأيت أمامي امرأة ترتدي وزرة بيضاء، تتقدم نحوي بسرعة، كان وجهها شاحباً جداً، ولمحتُ يديها ترتجفان بشدة. وقفت بجانبي للحظة ثم قالت بنبرة امتزج فيها الفرح بالخوف والارتباك والدهشة:

- يا الله وأخيراً.

ثم وضعت أصابع يدها على صدري وأضافت:

- لقد نجوت من الموت، لقد قاومت

صممت قليلاً ثم خاطبتني بهدوء ينم عن ارتياح داخلي:

- هل تسمعني؟

أجبت بإشارة خفيفة وبصوت منخفض:

- نعم أسمعكِ

- أنت بطل فعلاً

قالت وهي تضحك ثم سألت:

- هل تذكر ما حصل لك؟

- كل ما أذكره هو تلك اللحظة التي اخترقت فيها الرصاصة صدري، ولا أتذكر ما حدث بعد ذلك.

ردت وهي تحاول أن تغلق النافدة:

- لقد جاء بك إلى هنا بعض الجنود، بعد أن وجدوك غارقاً في دمك قرب الكنيسة، ولو لا لطف الله لكنت الآن مجرد رقم على سجل الموتى. صحيح أنكَ دخلت في غيبوبة لمدة أسبوع تقريباً لكن جسدك كان يقاوم بشكل مدهش.

صمتتْ قليلاً ثم أردفت سائلة:

- لماذا جئت إلى كيغالي؟

- أنا صِحَافِيٌّ،

- أعرف أنك صِحَافِي، قصدي ما الذي دفعك إلى المخاطرة بحياتك.

وقبل أن أجيبها على سؤالها دخل علينا رجل أشقر طويل القامة بزي عسكري، أقترب قليلاً ثم قال:

- مرحبا استاذ مهدي

- مرحبا سيدي.

-أنا الضابط مانويل، من فرقة حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة، وأنا هنا لأطرح عليك بعض الأسئلة السريعة.

صمت للحظة ثم اردف:

- أين كنت متوجهاً لحظة تعرضكَ للهجوم؟

سحبت نفساً عميقاً استجمعتُ قواي ومسحتُ على وجهي قليلاً ثم قلت بنبرة مرتبكة:

- كنت في طريقي إلى الكنسية، بعد أن سمعت أن مجموعة مسلحة تنتمي إلى الهوتو تتوجه لقتل عدد كبير من التوتسي كانتْ تحتمي داخل الكنيسة، حاولت أن أسبقهم إلى الكنيسة كي أنقد الأبرياء من المذبحة.

- من أخبرك بهذا الأمر؟

- غوتو

رد بسرعة:

- من يكون غوتو؟

- شاب من قبيلة التوتسي صادفته بجوار المطار، خلال الجولة التي قمتُ بها في صباح اليوم التالي من قدومي إلى هنا.

سجل كلامي على دفتر صغير، وقبل أن يغادر الغرفة قال:

-السفارة الفرنسية ستتكفل بنقلك في أقرب وقت ممكن إلى باريس لمواصلة العلاج هناك.

- شكراً على تعاونك أيها الضابط

رد مبتسماً:

- هذا واجبي أيها البطل

"بطل" هذه الكلمة ترددت في أعماقي بشكل عبثي، سخرتُ من نفسي، بل كرهت نفسي لحظتها، أنا لستُ بطلاً ولمْ أكن متوجهاً لانقاد أي أحد، كنت أحاول الخروج من هذه الأرض فقط.

شعرتُ أنني أغرق في سديم من الأفكار السوداء، ترى أي جنون قذف بي في هذه المحنة الجديدة، كلمة "بطل" لا تليق بي، لأنني ببساطة لمْ أكن متوجها للكنيسة لأنقذ الأبرياء بل لأنقذ نفسي لا أكثر.

وبينما أنا شارد الذهن أفكر في الكذبة التي رميتُ بها سهواً في وجه الضابط مانويل، قاطعتني الطبيبة بصوت خافت:

- نسيتُ أن أعرفك على نفسي أنا الدكتورة يم عضوة في منظمة أطباء بلا حدود، وأنا من سوريا.

- تشرفتُ بمعرفتكِ دكتورة، شكراً على كل شيء فعلتيه من أجلي، شكراً لأنك اعتنيت بجرحي طول هذه الفترة.

ابتسمت ابتسامة ملغزة ثم ردت:

- كنتُ أصلي لأجلكَ، وأطلب من الله أن يخرجك من هذه الأزمة، هذا كل ما فعلت في الحقيقة.

كنتُ ألعن لحظتها الفكرة المجنونة التي أوصلتني إلى ذلك السرير، وألعن القدر الملعون الذي كتب علي منذ ولادتي إلى اليوم، أحسست بحزن يابس وخشن يتمدد في عروق القلب.

التفتُ صوبها كنت أراقب نظراتها لكنها بدت كما لو أنها تتحاشى النظر إلي عمداً، تمنيت لحظتها لو أنها فقط منحتني نظرة سريعة كي أشكرها لكنها لم تفعل، بل سحبتْ من حقيبتها كتاباً انتبهتُ أنها رواية وليمة لأعشاب البحر للأديب السوري حيدر حيدر وخرجت من الغرفة دون أن تضيف كلمة واحدة.

قضيتُ في تلك الغرفة سبعة أيام، كانت كافية جداً، لتجمعني بالدكتورة يم في سرير واحد، لا أعرف كيف حدث ذلك، لأنني لمْ أكن أخطط له، كل شيء وقع صدفة ومن دون سابق انذار.

هي أيضا تقول إنها لم تكن تتوقع أبداً أن تمارس الجنس في مكان عملها، أو أن تخون زوجها الذي تحبه. وتقول أيضا إنَّ ما حصل بيننا هو مجرد نزوة عابرة ستنسى مع مرور الوقت ولا داعي لإعطاء الأشياء أكبر من حجمها.

انتهت قصتنا بعد أن عُدْتُ إلى باريس، ولم نتواصل إلاَّ بعد مرور عشرين سنة، رأيتها في أخر أيام حياتها قبل أن تموت بعد أن هزمها سرطان المعدة وخرب جسدها.

دانكرك

22 كانون الأول 2017

منذ الصبح وأنا أبحث عن سبب يجعلني أتشبثُ بالحياة، لكن لمْ أجد أي شيء حتى الأن، أشعر بالفراغ محيط بي من كل الجوانب، بل أشعر أنني أسبح وسط الفراغ، لمْ تعد تربطني أي علاقة بالحياة، لمْ تعد السماء الغائمة تغريني بالنظر إلى سحابها الأسود الكثيف، ولا البحر الهائج يشبهني في شيء، لمْ أعد أشبه البحر بَتَاتاً، صارتْ كل الاشياء المحيطة بي بلا معنى، صرتُ مثل الجثة الهامدة التي تنتظر الموت الرحيم.

ما معنى أن نواصل الحياة وقد مات ما كنا نعيش لأجله. أشعر بالحزن، الألم الجسدي الذي أحسه، جعلني اشعر بالحزن على نفسي، لماذا علي أن أتحمل كل هذا الوجع، وفي النهاية سأموت دون أن ينتبه أحد إلي، لا رغبةَ لي سوى بالنوم، وأن لا أستيقظ بعد ذلك. أحس بأن الدنيا باتت لا تطاق، ولا تتيح مجالاً للتنفس. حتى الكتابة صارت تسبب لي الضيق، لا أريد أن اتكلم مع أحد، أو أن أقول شيئاً. ولا أريد أن أسمع شيئا، أحب أن أكون وحدي في هذه اللحظة، أحاول أن أستجمع قواي لأكتب الرسالة الأخيرة، وأنهي هذه الرواية وأنهي حياتي معها. يرفض أن يفارقني هذا التعب اللعين، وأشتهي أن أنس هذا الألم والعذاب والبؤس، الذي ينتشر في هذا العالم الموحش، أحياناً أحدق في كومة الاوراق المكدسة أمامي، وأغضب من هذه النصوص الغريبة التي كتبتها، والتي لا تشبه شيئا أخر في هذا الفراغ.

قبل يومين طلبت من طبيبي الخاص أن يمنحني الحق في الرحيل، أن يمنحني الموت الرحيم، لكنه رفض ذلك ومنحني مضادات الاكتئاب، وأخبرني أن ثمة دوما شيئاً ما يستحق الحياة. وجدتُ ما قاله مجرد كلام فارغ لا أكثر، وقررتُ أن أنهي حياتي بطريقتي الخاصة. تسللتُ بعدها إلى الصيدلية الموجودة في الجهة الأخرى من المستشفى دون أن يلمحني أحد، ثم سرقتُ كمية كبيرة من مادة الفينتانيل.

الرسالة الأخيرة إلي ريما،

البعيدة كالوطن، القريبة كالجرح.

ريما يا فراشة الأحلام الحزينة ..

كل شيء كان يمتد بشكل لا مُتَنَاهٍ ...

قبل لحظة من الآن قمت بحقن كمية كبيرة من مادة الفينتانيل بدمي، ثم نهضتُ من السرير ووقفت أمام النافدة، وتأملتُ البحر الممتد على طول البصر لبعض الوقت، نظرت في ساعتي ووجدت أن الساعة لم تتجاوز العاشرة قبل منتصف الليل بعد، أحسستُ بالاختناق، وتزايد شعوري بالوحدة.

عدتُ وجلستُ وراء مكتبي الصغير، وفكرتُ في أن أكتب لكِ الرسالة الأخيرة، لا شيء مهم في ما ساقوله لك الآن، فقط أحببت أن أخبرك أنني سأرحل عن هذا العالم بعد ساعتين من هذه اللحظة على أكثر تقدير، وليس من المعقول أن لا أودعكِ بطريقة تليق بكِ.

بمجرد ما بدأت بالكتابة إليك، تبددت وحدتي وانجلى هلعي. صرتُ أشعر ببعض الطمائنية تلك التي يشعر به المرء وهو على بعد ساعات محدودة من النهاية والخلاص، وأكثر ما يشغلني الآن قبل الرحيل، هو أن أخبرك بكل شيء أن أخبرك بالحقيقة رغم أنها ستكون صادمة وقاسية على قلبك الذي أحبني بعمق وبصدق، قلت في رسالتك الأخيرة التي وصلتني قبل أسبوع تقريباً، أنك مشتاقة لي كثيرا،

وأنك محتاجة لي أكثر من أي وقت مضى، وأنك أحببتيني منذ أول لحظة رَأَيْتِنِي فيها، كما لم تحبي رجلاً من قبل، وأنك اشْتَهَيْتِ جسدي كما لمْ تشتهي يوماً جسد رجل، وأنك ستأتي لزيارتي نهاية الشهر القادم.

حبك لي أكبر من مقاسي، ومرفوض وممنوع بقوانين الأرض قبل السماء، في هذه اللحظة أشعر أنني مفعم بالحب ومُنْتَشِ، حتى أنني حين أغمض عيني تشيعني ذكرى أول ليلة قضينها معاً إلى عالم آخر، أذكر حين دخلتُ عليك الغرفة التي كانت تطل على صخب شارع الحمرا في بيروت، كنتِ شاردة الذهن واقفة أمام المرآة، تفكرين في أشياء لم أود أن أسألك عنها، لأنني كنت مشدوداً إلى تفاصيل جسدك الذي كان يذوب بيننا لحظة احتضنتكِ من الخلف، والتفت حول خصرك ذراعي، أزحتُ شعرك من الخلف، تحسستُ رقبتك بلطف وكأنني كنتُ أخشى أن تذوب على شفتي.

أنا أيضاً اشتهيتك تلك الليلة، أشتهيتُ أن أقبلك، لكنني في كل مرة كنتِ تحاولين فيها أن تستديري، كنتُ أمنعكِ بذراعي وأطوقك بشدة، كنتِ مجبرة على الخضوع لرغبتي، كي لا نقترف بحق أنفسنا جريمة بشعة، وخطيئة لا تغتفر.

أشرق وجهكِ عندما لامس جسدك جسدي، انتبهتُ إلى ابتسامتك المعكوسة على المرآة، وجدتها ساحرة مربكة. هل أحببتك كصديقة لا أكثر؟ كثيراً ما سألت نفسي هذا السؤال في السنوات الماضية، أم أحببتك كامرأة لم أستطيع اقتلاعها من قلبي بتلك

السهولة والبساطة؟ سنتان منَ الرسائل والصور والسفر والكتابة والذكريات المشتركة التي لا يمكن أن تخرج من الهوة اللعينة التي اسمها الذاكرة بسرعة. أتذكر الآن تلك الشامة السوداء على عنقك، وأتذكر نبرة صوتك الهامس، أتذكر رائحة عطرك وعطر انفاسك.

كلما تذكرتُ هذه الأشياء التي تبدو اليوم بعيدة جداً، أحسستُ بالوجع يتمدد في صدري، لمْ أستطع أن أمنع نفسي من الغوص في تفاصيل ذلك التماس الأول والأخير الذي حدث بيننا، لا أستطيع أن ألومك على ما حدث، ولكني في أعماقي ألوم نفسي كثيراً، لا ألومها فقط بل أتمزق غضباً كيف سمحت لنفسي بالتقرب منك واشتهائك، كيف نسيت للحظات أنك اِبنتي من دمي ولحمي وأحزاني، نعم يا ريما أنا والدك البيولوجي.

كنتُ أتمنى أن أخبركِ بهذه الحقيقة منذ اللقاء الأول، لكن أمك منعتني من ذلك. كنتُ مع كل رسالة أكتبها لكِ، أكاد أعترف لك بهذا السر، لكن ثمة شيء ما كان يمنعني، شيء غير مفهوم وغير واضح، حتى بعد وفاة أمك، لم أقدر على كسر ذلك الصمت الذي فرضته علي أثناء حياتها، لمْ أكن أملك الجرأة الكافية لفتح موضوع خطير ومتشابك كهذا، أو لربما لم تكن عندي الرغبة الكافية في فتح جراح الماضي البعيد الذي يصعب نسيانه، وتصعب الكتابة عنه. الماضي الذي أثقلت تفاصيله روحي المتوحدة فقررت التخلي عنه والرحيل بعيداً.

أكتشفتُ من دون أي دهشة، أن رائحة بيتك المفعم بالفن والحياة والموسيقى لا تغيب عن ذاكرتي. وكذلك ما زلت أتذكر ملامح وجهك الذي كان ينوء تحت حزن بالغ، عندما حكيتُ لك تفاصيل اللقاء الأول الذي جمعني بوالدتك يم أول مرة، كذبت عليك حين قلت لك، أن ما جمعني بها مجرد صداقة قوية ولدتْ وسط الحرب والدماء والقتل والخوف.

دعيني أخبرك بالحقيقة الآن، ما كان يربطني بيم هو أكبر من الصداقة، لكنه لم يكن حباً، ربما كان شهوة عابرة، طبعاً لم يكن أحد يعلم حقيقة ما جرى بيني وبينها في ذلك الماضي البعيد، احتفظنا بالسر في أعماق الذاكرة، ومضينا دون أن نلتفت للخلف.

العلاقة التي جمعتني بها، كانت قصيرة جداً لم تتعدَّ الأسبوع، لكن في ذلك الأسبوع تعلمتُ أشياء كثيرة، تعلمتُ كيف يمكن للانسان أن يترك كل شيء وراءة ويركض صوب العطاء والتضحية دون مقابل. أمك علمتني كيف أصنع القطيعة مع أوجاعي وذاكرتي. علمتني كيف أن النسيان هو نوع من الحب، وأن التوقف عن الخوف هو بداية للحياة.

وبعد مرور عشرين سنة، وبعد قطيعة طويلة متعبة ومؤلمة، أرسلتْ لي أمك رسالة بخط يدها تخبرني أنها مريضة جداً وتعاني من سرطان المعدة، وأنها انجبتْ مني طفلة اِسمها ريما.

قبل ستة أشهر من وفاتها زرتكم في دمشق، وأنتِ تعرفين تفاصيل تلك الزيارة، تعرفتُ عليك على أساس أنني صديق قديم جاء لاطمئنان على صحة أمك لا أكثر، كنتُ أفكر في أن أخبرك بالحقيقة وأهمس في أذنك ببطء:" اِبنتي الصغيرة الخجولة، التي حرمتني منها قسوة الحياة "، لكن الخوف الذي كان يختبئ في عيون يم منعني من البوح، كنتُ أحاول بصعوبة تحمل ثقل الصمت الذي فرض علي، وتحمل المسافة التي تفصلني عنك. كنت أشتهي أن أضمكِ إلى صدري، كنتُ أشتهي أن أحتمي في دفء كفك وأصيح بأعلى صوتي: ريما اِبنتي دمي ولحمي أنتِ.

أتسأل لماذا صمتت طول هذه المدة، واخترت في هذه اللحظة الملتبسة التي تسبق الموت، أن أقول هذا الكلام، ربما كان يجب أن أخذ معي هذا السر إلى القبر، ربما كان من الضروري أن أواصل الصمت وأواصل لعب دور الصديق معك.

أعرف تمام المعرفة أني سأصدمك بهذه الرسالة، لكن صدقيني يا ريما، صدري لمْ يعد قادراً على اخفاء هذه الأشياء أكثر، وأعرف أيضاً أنك ستكرهينني كثيراً، لكني مقتنع بأن ما قمت به سيجعلك حرة من قيود الماضي الذي كتب عليك دون أن تدري بذلك.

اليوم .. هو أخر يوم في حياتي.

انتهى كل شيء دفعة واحدة، وتخلصتُ من الخوف الذي كان يسكنني طول سنوات عمري أو لعلني أتوهم أني تخلصت منه، في هذه

اللحظة التي صار فيها جسدي ينهار شيئاً فشيئاً، أشعر أنني أتمرغ في الفوضى، أشعر وكأنني طفل في العاشرة من عمره، طفل بجسد أكبر منه. طفل يحاول التسلل هارباً من عالم بات ضيقاً جداً ولا يحتمل. كيف كان يمكن أن أتجنب كل هذا الدمار الذي أحاط بي، وأملك نفسي بما يكفي.

كل ما أفكر فيه في هذه اللحظة، هو حبك الذي ضج به قلبي فجأة، وأصبح من الواجب علي أن أقاوم تلك الذاكرة وذلك الحنين الذي أخذ يصحو رويداً رويداً دون أن أدري. حبك لي وحدهُ يستطيع أن يصلني بنقطة الضوء الغائرة في الأعماق، وحده يملك القدرة على جعلي أشعر ببعض الندم على ما قمت به سهواً. ربما كان يجب أن أقاوم مرضي ووجعي وخوفي وأن لا أستسلم للموت الذي اخترته بنفسي، كان من الضروري أنْ أواجه قدري بشجاعة وعنفوان، ولكن يا صغيرتي ...

الغريب أنني رغم هذا الارتطام الذي كان جافاً مع الحياة، ما زلت أشعر بالكثير من الفرح المخفي في زوايا جسدي يتمدد ببطء. العد العكسي قد بدأ فعلاً، وكما يتمدد الشعور بالفرح يتمدد معه بشكل متوازٍ مفعول الحقنة، أشعر براحة كبيرة وكأنني انتهيتُ من ثقل ظل يضغط على صدري طول سنوات.

صرت أدرك جيداً أكثر من أي وقت مضى، أن الحياة قرار يجب أن يتخذه المرء قبل أن يفاجئه الموت. وصرت أدرك أيضاً أنني كنتُ

بالكتابة أحاول عبثاً أن أمنح حياتي بعض التوازن. ويبدو أنني فشلت في هذا الأمر، فشلتُ في أن استعين بالألم لأكتب الحياة.

يسود صمت كلي داخل هذه الغرفة الواسعة التي تطل على البحر، الذي علمني بعض الجنون، وملئني بالكثير من الحنين إلى بحر الوطن ورمال شواطئه الذهبية الساخنة، البحر هنا لا يشبه تماماً بحر المدينة التى ولدتُ بها وكبرت بين أزقتها الضيقة وسرقت مني أحلى أيام العمر. المدينة التي أشتهيت دائماً أن أموت في حجرها، وأن تفتح الحياة أمامي وتزهر أحلامي على شرفاتها المتهالكة الحزينة. المدينة التي نمت في حضنها مثل طائر الواقواق اليتيم الذي يجد نفسه صدفة في عش ليس له.

التفاصيل المرتبطة بمدينتي التي لمْ تسكنّي مدينة غيرها، هي جرح عميق وقاسٍ يصعب علي تحمله. فمنذ أن غادرتها في ذلك الزمن القبيح، لم ألتفت صوب أي مدينة بعدها. أكتشف بعد كل هذه السنوات، أن المدن الأقرب إلى قلوبنا ليس تلك التي نمضي فيها أجمل أيام حياتنا، بل تلك التي تمضي معنا طول أيام العمر.

هأنذا اليوم أكتب لك منكسراً، لأن كل الأشياء التي أحببت سرقت مني. يا ريما، هلْ تُريدين أن أضيف أكثر أم أصمت؟ بصراحة وبصدق لم أعد أعرف ماذا يجب علي أن أكتب وأن لا أكتب. أشعر أنني قلت كل شيء، ولمْ يبقَ في صدري شيء سوى بعض الشوق إلى وجهك، وجهك الذي لم يترك شيئاً للصدفة.

شيء وحيد فقط أشعر بالندم لانني لمْ أقم به في حياتي، هو أن أقف فوق أعلى قمة جبل وألمس السحاب بأصابع يدي، منذ طفولتي وأنا أحلم بفعل هذا الأمر.

دعيني أخبرك في الأخير أنني كتبت هذه الرواية فقط لأقول لك كم كانت الحياة قاسية.

وداعاً ريما ...

الرسالة الاولى والأخيرة إلى نضال التي ماتت دون أن تودعني ..

حبيبتي نضال ..

لو تعرفين فقط كم أنا مشتاق لكِ، وكم كنت أحتاجك، ومازلت أحتاجك حتى وأنا على بعد نصف خطوة من الموت، الموت الذي أنتظر ضربته القاضية التي لا شيء بعدها غير العدم. أحتاج أن أموت بين ذراعك. أو ربما أحتاج فقط أن أكون معك الآن، وأن أرى ملامح وجهك الذي اختفى قبل أن أشبع منه.

بعد رجوعي من كيغالي مباشرة صادفني خبر موتكِ في انفجار، نزل علي الخبر مثل الصاعقة.

مضتْ الأيام التي جمعتنا سريعة، لكنها تركت بداخلي كتلة كبيرة من المخاوف، مخاوف ما تزال تنحت أعماقي بقسوة، والأيام التي عشتها بعد سماع خبر موتك كانت قاسية حد الوجع.

أه .. لوتعلمين كم كان رحيلك موجعاً، حربي ضد الذاكرة التي تسحبني إليك كل حين لا تزال قائمة. فكلما حاولتُ نسيانك انزلقتُ إلى هاوية سحيقة، وكلما تذكرت ضمر قلبي وتضاءل.

نضال، أعلم تماماً أن هذه الرسالة لن تصل إليك أبداً، لكن رغم ذلك سأقول كل الاشياء التي لم تمنحني الحياة فرصة لقولها لك.

أحببتك، أحببتك، وأوجعني رحيلك أكثر مما أوجعني رحيل أمي.
كتبت هذه الرسالة لأخبرك، كم كانت الحياة فارغة بدونك،

يا نضال يا وجعي الأبدي. وداعاً ...

الرسالة الأخيرة إلى نجمة..

لمْ أكن أتوقع أن يأتي يوم علي ولا أجد بداخلي أي شيء لك، شفيتُ منك ومن حبك وأنتهى الزمن الذي كان بيننا، وانتهتْ أجمل قصة حب، كتبت هذه الرسالة القصيرة لأقول لك فقط ..

حبيبتي نجمة تباً لكِ ..

الرسالة الأخيرة إلى اليفيا ..

سيدتي أعرف أن خبر اِنتحاري سيكون مفاجئاً لك، لكن صدقيني لم يعد يربطني بهذه الحياة أي شيء ...

حين تصلك هذه الرسالة أرجوكِ لا تنشري خبر موتي في الصفحة الأولى من الجريدة، دعيني أرقد في سلام.

وداعاً اليفيا ..

الرسالة الأخيرة إلى صوفيا ..

أردتُ فقط أن أخبرك، أنني ما زلتُ أتذكر شكل أصابعك الطويلة إلى اليوم. وما زلت أتذكر نبرة صوتك أيضاً.

وداعاً ...

الرسالة الأخيرة إلى كريستوفر..

آسف كُلَّ الأسفِ لأنني ضاجعتُ حبيبتك في ذلك اليوم.

الرسالة الأخيرة إلى الرفيق بلقاسم ..

آسف لأنني أحرقتُ بيتك في ذلك اليوم، وسرقت منك اللوحة التي تحب ..

أيها الرفيق الجميل، أخجل من أن أقول لكَ وداعاً

الرسالة الأخيرة إلى أمي ..

صدقيني يا أمي، كتبتُ هذه الرواية بدم القلب، فقط لأخبرهم جميعاً أنني لمْ أكن سيئاً لتلك الدرجة ...

إليكم جميعاً ...

أنا سأموت الأن ..

والمرجو منكم أيها الغرباء عدم كتابة تاريخ هذا اليوم على شاهد قبري، لأنني مت قبل سنوات من هذه اللحظة ولمْ يشعر بي أحد ...

* * *

وبعد أن انتهيتُ من كتابة الرسائل، حاولتُ ترتيبها رغم أنني وجدتُ صعوبة في البداية. شعرتُ بعقب السيجارة يحرق أصابعي فسحقته في المنفضة. ثم نهضتُ متثاقلاً ومشيْتُ صوب السرير، ارتميتُ فيه وأنا أردد مع بيبي كينغ تلك الأغنية التي أحبها.

Nobody loves me, but my mother
And she could me jivin' too

Nobody loves me, but my mother
And she could me jivin' too

Now you see why I act so funny, baby
When you do the things you do

أحمر -

انتهت في 08/غشت/2020